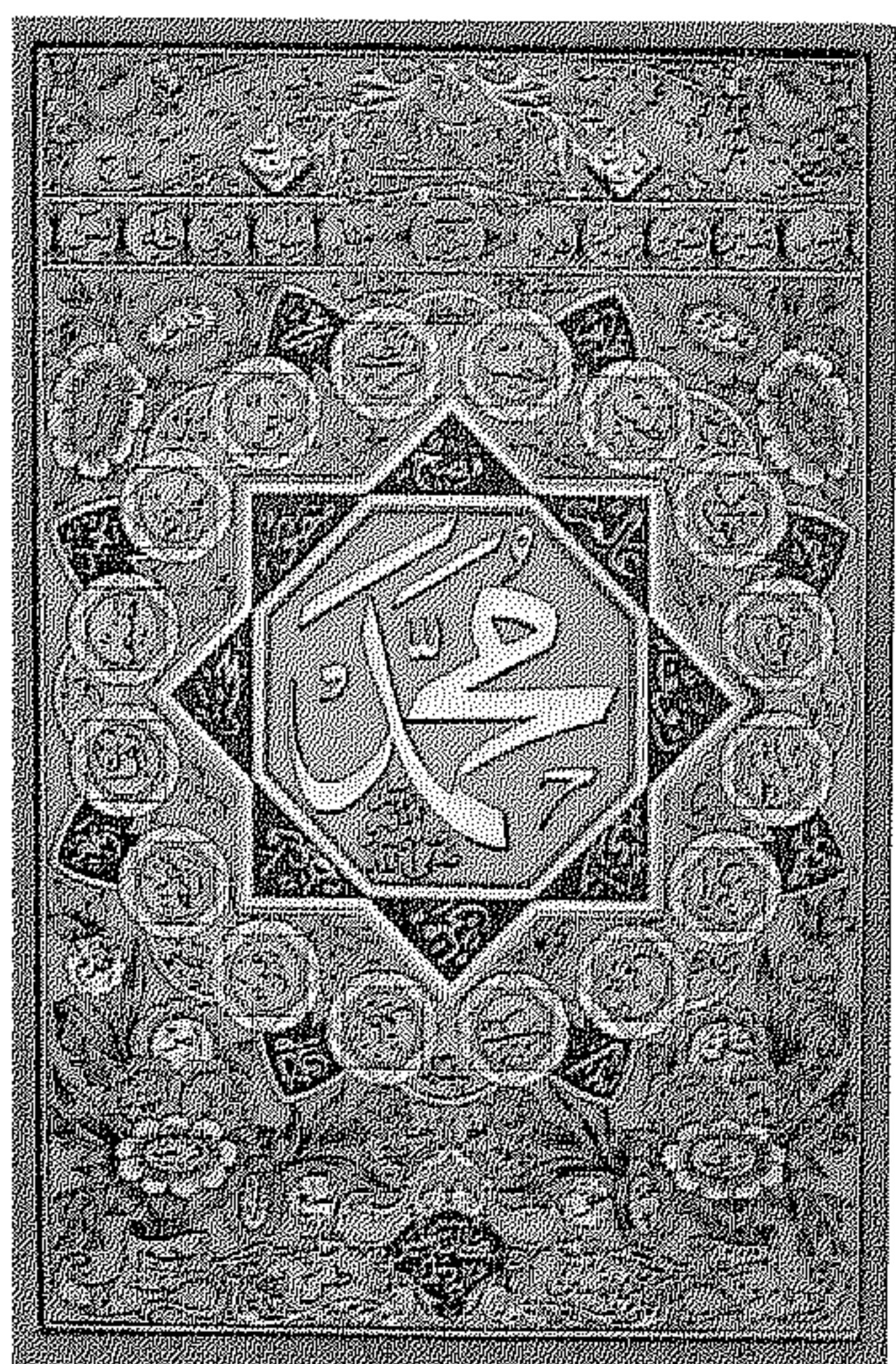


الشيخ عبد الله بن عبد الحميد

مَشَاهِدُ وَقَصَصُ

مِنْ أَيَّامِ النَّبِوَةِ



دار الجدي

الشيخ عبد الله عسلايبي

مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ
مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دَارُ الْجَمْعِ

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

📖 : ٣٤٣٧٥٢ - 📧 : ٥٢٢٢ / ١١ - نُضد النص: علي حمدان - ضَبَطَه بالشَّكل على
أصوله: محمود عسّاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -
صورة الغلاف مُقتبسة من: *L'Islam nelle Stampe*, BE-MA Editrice, Milano, 1988

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطبعة

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً
كَاسِمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِحُلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنُهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْتَرَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ يُمَثَّلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُنْوَانِ جَدِيدٍ،
كَوَلِيدِ تَقْمُصَ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسَخَ فِي خَلْقِهِ
خَلْقُهُ الْبَدِيءُ، وَأَنْتَظِمَتْهُ أَمْشَاجُ تَكْوِينِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا الْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى الْقَارِيءِ مِنْ قَبْلِ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنْ
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْرِهَا، إِبَّانَ كَانَتْ تَثَاقُلُ بَيْنَ
الْحَبْوَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخَطْوَةِ وَالْخَطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَبْعُدْ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاضِرَةِ الْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ
الْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ،
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزَحَبُ وَأَغْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دارَ الجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي
وَأَذْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ
بَلَوْتُهُمْ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أُعَانِيَهُمْ وَأُعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَغْوَامي هَذِهِ
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحَبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعْتُ بِمَا
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنْ أَكْدَاسٍ «غَرَابِيبَ سَوْدٍ».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ
تَفَطَّرْتُ أَلْمًا حُوبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّعْ، عَلَى مَسْمَعِ
وَمَرَأَى، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظُلِيمًا مِنْ
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظُلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ الْقَبَانِيِّ الْقَائِمِ بِأَعْبَاءِ
الْفَتْوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْحُصِّ وَرَشِيدِ الصُّلْحِ
وَشَفِيقِ الْوَزَّانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ الْمَعَالِي مِيشَالِ إِدَّه، وَمِنْ سُورِيَّةِ
تَفَضَّلَ بِمَنْ نَابَ عَنْهُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّؤُوفِ الْكَسْمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.
وَحَصَصْتُهَا بِالذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمَ الْمِهْرَجَانِ التَّائِبِيَّ الْأَوَّلِ لِعَدْنَانَ
الْمَالِكِيِّ وَكَانَ عَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأُكْتَفِيَ
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجَعَ الصَّحَافَةُ فِيهَا
يَوْمَئِذٍ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ الْجَيْشِ السُّورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا
قَالَ ابْنُ الْمُقَرِّيِّ صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُظُوظَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ
أَعْمَى، وَأَغْشَى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَزَرْقَاءَ الْيَمَامَةِ
وَتَوَجَّ عِيَادَتِي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزُولاً صَاحِبُ الْفَخَامَةِ رَئِيسُ
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ
هُوَ الْأَزْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةٌ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ عَبَقَرُ،
الْإِبْدَاعِيِّ سَعِيدِ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرُّعْيَةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمًا
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوَالُ:

تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِإِدْرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَتَفُّةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنْ الْقِيَمَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى
مَسَاعِ انْسَائِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مُؤَسَّسَاتِهَا، وَلَأَنَّهَا بَاتَتْ
آلَانَ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي الْآسَمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّدْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَيْفَ بِي وَأَنَا
الْثَمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَوْلَاءِ «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ
حَالٍ أَهْمٌ وَأَجَلٌ مِنْ مِجَنٍّ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ
وَمُغْصَرُ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ الثَّرَايَاتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَذَهَا شَافِعَةً لِيَذْكُرَ... وَحِينَ أَنْوَّهُ

بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أَشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ^(١) كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصها الكامل هنا لئلا يذهب بها دهرُ الدهارير، وتلتفها دُؤامةُ الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلا في جريدة الحياة لصاحبها المرحوم كامل مروءة، وذلك بتاريخ ٢١/٢/١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

«أَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنِيَّةٌ وَتَعْضُّهَا كَانَ لِي مِنْ عُمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى الْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وفي حُسْنِ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ عَتَبَتِهِ، فَقَدْ أَنْقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسِي مَا آتَسَعُ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ يَمِي إِلَّا ذِكْرَاكَ.

هي هُنِيَّةٌ، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتُ فِي حُسْنِ نَفْسِي بَتْ أَشْعُرُ لَكَأَنَّمَا هُوَ عُمْرِي كُلُّهُ جَاءَ فِي مِقْدَارِ هُنِيَّةٍ.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَرِيدُكَ، بِصِفَاتِ أَنْتَ تَمْلِكُ أَكْرَمَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ نَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعِيشُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءٍ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعِيشُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِعُزِّي حَقَائِقِهِ، إِنْسَانًا يَعِيشُ بِقِيَمِهِ، بِوُغْيِ قِيَمِهِ فِي نَاسٍ، دَعِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّ، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أُحَارِزُكَ، بَلْ لَعَلِّي أُجَارِيكَ.

قَرَأْتُكَ فَحَبَبْتُكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَنْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَالْحَرْفُ مَا كَانَ يَنْحَدِرُ عَنْ قَلَمِكَ، إِلَّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ أَنْحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْنَاكَ.

فَمَا أَكْثَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأَكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَعَالًا، وَمَا كَانَ إِلَهَذَا الْوَرَقِ أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَارَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَخُطُّ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِثُورِكَ وَقَرَابِيِّكَ... كَأَلَّذِي يُصَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَظُّ أَنْفُسِهِمْ، فَصَلَاتُهُمْ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الزُّفْرَةِ الَّتِي أَنْطَوَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفٌ اسْتَوَتْ فِي الْفَاظِ، مِثْلَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَجِدَ النَّاسُ فِي كَلِمَاتٍ دُمُوعِهِمْ وَأَفَانِينَ دُمُوعِهِمْ... وَإِنَّمَا هِيَ حُشَاةٌ أَرْفَضَتْ قَطْرَاتِهَا، وَجَزَتْ فِي حُرُوفِ رَسْمَتِهَا، ثُمَّ جَمَدَتْ فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةٍ الَّذِي كَانَ، فِي
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدِّمَقْسِ الْحَرِيرِ.

وَأَرَدْتُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لَبِيدٍ قَوْلَهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَْتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وَقَوْلَ الْآخِرِ الْعَبَّاسِيِّ:

قُمْ فَاسْقِيْنِي بِالْكَبِيرِ وَغَنِّي ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَالْأَغْرَبُ الْأَغْرَبُ فِي هَذَا الزَّمَنِ، الزَّمَنِ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنَّ
الْقَدَرَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنْ أَلْجَلَّةِ
الْعِلْيَةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَهُ، إِلَّا قَنْطَرَةٌ غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَسْمُهُ،
لِيُضْبَحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارٍ عَرَضٍ بَغْضٍ مِنْ أَيَّامِ
النُّبُوَّةِ، وَسَبَقْتُ بَأَنَّ الْحُسَيْنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا بَدْعَ أَنْ أُبْلِسِمَ

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأَجْرِي حَرْفًا عَلَى قِزطاسٍ، لَوْ أَنَّ مَنْ أَكْتُبُ عَنْهُ يَقْرَأَنِي، أَوْ يَقْرَأَ فِي
يَوْمِهِ عَنِ أَمْسِهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَمَلْتُ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاتَتْ أَكْبَرُ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاقِعِهَا
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الرَّاحِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْثَلْتُ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَاتَزَتْ الْغُرْبَةُ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْرِي أُنْكَ
سَتَطُوبُهَا غُرْبَةً إِلَى غُرْبَةٍ، هِيَ قَرِيبَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا عِنْدَ مُنْخَدَرِ يَدِكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا وَرَاءَ
مُنْخَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَفْقِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِمُ وَتَبْنِي، وَهَذَا مِيرَاثُكَ.

وَأَنْتَ الْيَوْمَ تُبَارِكُ وَتُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ...».

بُرَحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعِظَائِمِ مِنْ بُرَحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا
الْعَزَاءَ، لِبَاطِنَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَانِينَةَ كُلَّ الطَّمَانِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لَشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدْبِنَا الزَّاهِرِ،
أَحَدُهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْجُرْجَانِيُّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ غَزَلَتَهُ فَأَجَابَ
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ أَنْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدَّلِّ أَحْجَمًا
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَا فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَخْزَمًا
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوَيْبٍ الْهُذَلِيُّ الَّذِي
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلِيكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقْبِهِ
فِي السَّنَسِكْرِيتِيَّةِ: الْمُسْتَنْبِرِ.

أَيْسْتُ بِوِخْدَتِي وَرَضِيْتُ بُغْدِي فَطَابَ الْجَوُّ لِي وَدَنَا السُّرُورُ
وَأَخْكَمَنِي الزَّمَانُ، فَلَا أَبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشُ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أُحلامُ الإنسانِيَّةِ، واتَّصَلَتْ
في الواقعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الأُحلامِ...

فلمْ تُعْذُ تَحْمِلُ اسْمَها التَّقْلِيدِيَّ «الأُحلامُ النَّائِهَةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَقْدَمُ
نَاطِقٍ بِالشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَرِ الإنسانِيَّةِ، يَوْمَ غَدَتْ واقِعاً حَيّاً لِكائِنٍ حَيٍّ...

*

وكانَ هذا الفَجْرُ قَدْ آنَبَتْقَ في الغابِ، واتَّصَلَ بِالأُلائِيهِ في المَغارِ
والكُهوْفِ، حَيْثُ أَطَلَّ الإنسانُ، لأوَّلِ مَرَّةٍ، إلى الأفقِ مُتَأَمِّلاً، وشَعَرَ
بوجودِهِ...

ولكنْ لمْ يَسْقُطْ مِنْ وجودِهِ إلَّا على أَشْباحٍ ورُموزٍ، ثُمَّ لمْ يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيْرَةُ الإنسانِ بِكُنْهِ إنسانِيَّتِهِ في مَراحِلِ النُّشوءِ العَقْلِيِّ، ومَدَّ
الخيالَ في مَعْنَى الحَيْرَةِ...

ولم يَزَلْ يَلِجُ، مَعْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلُ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغَطاً يَنْبَعِثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
يَبْدَأُ أَنَّهُ مُبْنَاهُمْ كَنَغْمَةِ الْوَتْرِ الْمَقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنِينِ الشَّارِدَةِ الدَّاوِيَةِ...

*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ. وَمَا يَثْبُتُ مِنْهُ إِلَّا
رُؤْيًى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْآلُ، كَتَلَكِ الرُّؤْيَى الَّتِي تَتَرَاقَصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ
الْفَجْرِ وَآغْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنَحَدَرَاتِ (*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانٍ
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

*

وَأَخِيرًا ثَبَتَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،
فَانْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَنَسَجَ أَخْلَامَهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثِيراً مَا كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ
مُلْتَمِعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُعُداً أَحْيَاناً،
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيَّةٍ تَظَلُّ الذِّكْرَى تُشِيعُهَا
أَبْدأ...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاءَ، قَصَدْنَا فِي عَرْضِ ذِكْرَى

(*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.

النُّبُوَّةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتُنْصَدِلُ بِشَفَقِهَا الْمُشِعِّ عَلَى
الْبَقَاءِ...

مُقَدِّمَةٌ

لم أقصِدْ في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التَّاريخِ، إلَّا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الرِّوَايَةِ أوِ الحَبْرِ، وأَمَّا ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسَهُ فِي تَارِيخِ الحُسَيْنِ: نَقْدَ وَتَحْلِيلَ الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالوَجْهِ التَّارِيخِيِّ المَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أوِ بُعْدٍ، لَكِنِّي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ البَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تَاماً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُضَدِّرَ حُكْماً، بَسْلاً أوِ إِيْجَاباً.

وَحَاوَلْنَا، هُنَاكَ، أَنْ نَتَفَهَّمَ حَرَكَاتِ النُّبُوَّةِ وَالنَّبِيِّ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَوَامِلِ العَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجَارِي التَّارِيخِ، إِنَّ لِلْجَمَاعَةِ أوِ لِلأَفْرَادِ.

وهذه العَوَامِلُ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، تُسَمِّيهَا تَارِيخاً حِينَما تَقَعُ فِي المَكَانِ، وَتُحَرِّكُ الجُمُوعَ عَلَى مَا آسَتَتْ مِنْ أَتْجَاهَاتٍ وَحَدَّدَتْ مِنْ مَذَاهِبٍ. وَبِدُونِهَا لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتٍ مُبْهَمَةٍ لَا تُعَبِّرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ فِي حَدِّ فَايِدَتِنَا.

وَيَكُونُ الغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ قَدْ ضَاعَ، حِينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الجَانِبَ الوَاقِعِيَّ مِنَ الحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا بِالجَانِبِ التَّارِيخِيِّ، فَإِنَّ الحَيَاةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الوَاقِعِ وَالتَّارِيخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الجُزْءَ الأَهَمَّ فِينَا، جَمَاعَاتٍ كُنَّا أوِ أَفْرَاداً، تَارِيخِيٍّ مَحْضٍ. وما دُمْنَا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ مَا آسَتَوَى فِينَا مِنَ الوَاقِعِيَّةِ بِمَا آسَتَوَى فِينَا مِنَ التَّارِيخِيَّةِ،

فلن تكون لنا فائدة من التاريخ.

يبد أننا نشعر بالحاجة إلى التاريخ. حتى ليخيل إلينا أن لدى الإنسان، طفلاً وشيخاً، حاسة سادسة تاريخية تلح فيه بحاجتها، وتُشيع في دُخيلته أطمئناناً مشفوعاً بتلبس للقصة، كأنما هو يسمع حكاية نفسه، أو كأنما أنتقل، عبر الزمن، إلى حيث يكون الزمان الموهوم، وتقوم وقائع الماضي.

وهذا المثل في الإنسان يزعج، عندي، إلى ما استوى في مزاج النفس ووَخديتها من الجزء التاريخي، فإذا صادف ما يبعثه تحرك بقوته، وأخضع المشاعر لمدّه في نوع من الهيام والحنين، وفي نوع من الإحساس العميق بأنه شيء يتصل به اتصالاً ذاتياً، كأنما مرّ عليه منذ بعيد.

وهذا يُبيح لنا أن نستنتج أن الإنسان الفطري - أو بعبارة أشمل، الإنسان الذي لم يُكون له تاريخاً - يفقد هذا الجزء، ولذلك هو لا يتحسس بهذا المثل أو التروع.

وعليه ففقر القصة، أو عدمها، في أدب أمة ما، يوجب إلى ضعف هذا التروع، إلى عدم توافي الجزء التاريخي فيها وأستوائه. وهذا ظاهر لدى عرب الجاهلية الذين لم تكن القصة تستهويهم أستهواء يجيء في درجة شهوات النفس أو الجسد الأخرى؛ بينما نجد القصة بدأت تبرز في أدب العرب الذين استقروا وكوّنوا لهم تاريخاً نوعاً ما، كالحيريين في عهد المناذرة، والشاميين في عهد الفُساسنة، فتولّد لديهم المثل إلى قصص التاريخ. ولعل في الظاهرة الآتية ما يقطع كل ريب في صحة هذا الرأي، وهي أن القصة المركزة لا تكون إلا حيث يكون للأمة تاريخ مُنوع.

فالعرب عادوا، بعد التاريخ، إلى تذوق القصة، لأنه توافرت فيهم لذة

الاستماع التي يتبعها الجزء التاريخي في النفس، وقد قويت هذه اللذة إدراكاً مع التاريخ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل.

ونحن نلُحس، في عصرنا الحالي، ميلاً أشد إلى القصة، حتى كادت تتمييز بأسم الأدب وتستبد به عما سواها، ولقد قال بعض الناقدين: إن الأدب هو القصة في القرن العشرين.

وأما الشعور بكلية الحياة، والشعور بأن التاريخ والقصة يعبران عن معانٍ مشتركة، هما اللذان يُعَلَّل بهما، عادةً، الميّل إلى القصة، فقد تولّد، بلا ريب، بعد التاريخ. فإن هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الإنسان بها بين نفسه وبين الماضين، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها. فتغلب الميّل إلى التاريخ والقصة، بهذا الشعور التجريدي الكلي، تغلب بالسبب المنفعل دون السبب الفاعل الحقيقي.

وهذا الرأي، الذي نُعطيه من بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها، حتى وصلت إلى درجة أن تصبغ الأدب وتسيطر عليه بصبغتها، حقيقي جداً... وأنا أشعر بحاجة إلى الزيادة من إيضاحه، لأنه يصحح جملة الأوهام، وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع.

لا ريب في أن الإنسان، الذي أسلمه التاريخ إلى العصور، يمتاز بحاسة تاريخية خاصة، تفضله عن الإنسان الذي أسلمته الطبيعة الأولى، والذي أنبت من يد الله. وهذه الحاسة تزداد عملاً في الإنسان بازدياد عمل التاريخ فيه، وتنبه العصور في أعماقه. والميّل إلى التاريخ أو القصص وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها، وهو - أي الميّل - يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري. ومن الخطأ الظن بأن ميّل الإنسان إلى القصص فطري أو عفوي، بل هو نتيجة تلبد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومدّه بإيحائها. وهذه الحاسة

التاريخية الحية تتطلب غذاءها، وتكون في بعض من الشعوب نهمّة، ونهمّة إلى حد كبير، ولكن هذا النهم ليس متروكاً للعفو والطبيعة العرقية، بل هو خاضع لسنّة نسويّة خالصة، ما دامت الأمة قد اتصّلت بالتاريخ واتخذت خطواتها فيه.

وهذا الرأي ينتهي بنا إلى تفسير: لماذا كان أدب اليونان فقيراً من القصة في جاهليّتهم؟

ولماذا أثروا بالقصة بعد التاريخ؟

ولماذا كان أدب العرب كأدب اليونان فقيراً منها في الجاهليّة، ثمّ أثرى بها بعد التاريخ، حتّى بلغت قمّتها في ألف ليلة؟

ولماذا بلغ نهم الحاسّة التاريخية، بعد ذلك، في الجمهور العربيّ إلى درجة لم يثبت أمامها نحو من الأدب والفنّ، كما تشهد بهذا قصّة حبّ عليّ بن آدم، والبخلاء للجاحظ، ورسالة الغفران للمعرّي، والتّوابع والزّوابع لابن شهيد، وحيّ ابن يقطان لابن طفيل، والمقامات للحريري، وأحاديث ابن دريد الأربعون، ومصارع العشاق لابن السّراج، وأعطت عصور النّهم قصص عنتره، وأبي زيد الهلاليّ، والملّك سيف؟

ولماذا زاد الميل إلى القصة، في الأدب الأوروبيّ الحديث، عنه في القرون الوسطى؟

ونحن إنّما نحضّر نظراً في الأدب، دون أن نلتمس أنحاء أخرى، لأنّ الأدب أكثر استجابة إلى رغبات الجمهور وتطلّع المحيط، وهو، إلى ذلك، يتلوّن بمختلف الألوان، ويحفظ بتلوّنه تراوَح العوايل التي أثّرت فيه.

فعدم وجود أدب القصة، في أدب العرب الجاهليّ، معناه عدم ميل الجمهور إليها، أو ضعف هذا الميل عنده، التّابع لضعف الجزء التاريخيّ في مزاج النّفس

وَوَحَدَتْهَا.

فَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْآدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصٍ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ آفَقَتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضٌ؛ نَاهِيكَ أَنَّهُ تَعْلِيلٌ غَارِقٌ بـ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسَّقْوِ»^(١) عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ يَكُونُ فِي مَنْطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَعْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ^(٢) رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يُبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ اجْتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَرْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَجْمَعُهُمْ يَتَذَوَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الَّذِي نُقَرَّرُهُ يَكْشِفُ، عَدَا الْخَطَأِ الْمَذْكُورِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّزْوِيَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأُسْلُوبِ لِلْأَطْفَالِ بِتَغْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَّةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمُشْتَرَكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُتِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيِ إِلَى إِخْضَاعِ الْأُسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتِ الْحَاسَّةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكُمًا وَاقْتِيَادًا.

كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

(١) يَعْْنِي بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبِيئَةُ وَالتَّغْذِيَةُ وَالتَّزْوِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْقَوَائِلُ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَزْعُهُ الْخَاصَّةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْخَاصَّةُ. وَيَعْْنِي بِالسَّقْوِ عَقْلِيَّةَ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْحَلُّ فِي تَفْهَمِ الْأَفْرَادِ وَتَعْقُلِهِمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ قَفْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَعْلِيلِ الْقَصِّ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالتَّأَثُّرِ الْأَدَبِيِّ وَالذَّمِّيِّ، وَتَعْلِيلِ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالْمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْحَلِيطِ، وَتَعْلِيلِ الْقُوَّةِ وَالضَّغْفِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعِدَّةِ لَهَا، فِي مَزْعِيهِمْ، بِتَعَالِيلَ شَتَّى لَا تَسْتَنِدُ إِلَى تَعْلِيلٍ يَقُومُ عَلَى مُؤَثِّرٍ وَاحِدٍ.

العناصر، التي تلزم لتذوق القصة، تتفاوت بتفاوت الحاسة المذكورة. والقصة، في نظري، لا فن لها ولا عناصر قاعدية إلا نسبية فقط، فهي محدودة بالزمان والمكان والكائن. والمحاكاة أو الاختداء وهم وبُعْد عن فهم ما ثبت في جوهر النفس المتحول، الذي يمسح الفن بهاويله، ويمدُّ الأدب بالحياة والروح.

فالداعية الحفية فينا إلى التاريخ والقصص التي نحس بها ظامئة على الدوام، متطلعة على الدوام، هي وليدة ما استحال في جوهر النفس من أشياء الماضي المتبدد، وتمدد في بنائه كهلاميات عاملة حية. وإذا ثبت أن فينا جانباً تاريخياً، فلا منقلب لنا عن أن نتفهم وقائع الماضي كتاريخ، وأن نتصل بالمشاعر التي سيطرت فيه كعرض وقصص، وبذلك يظل التاريخ مادة حية شاعرة.

وآستواء الحياة في الحاضر إنما يقوم على دوافع الماضي وجواذب المستقبل، فلا جرم إن كانت بنا حاجة إلى التاريخ التعليلي من حيث نتصل بالمؤثرات الحقيقية، وداعية إلى التاريخ الوصفي، من حيث نرى الصور المختلفة التي طفت على سطح الحياة المحتجبة.

ونحن، هنا، نحاول عرض ما اتصل بالنبوة بشيء من القصص الواقعي، الذي لا بد أن ينبه فينا كامن الحس بما يثبت من الإحياء الصامت، ويهيئ جوهر النفس لما سماه تولستوي «عدوى الشعور»، وهو ذو أثر بعيد، فعال في تكوين الشخصية الممتازة.

وقصة عصر النبوة لا تدعنا نخرج بتأمل سلبى تختلط فيه الدهشة بالإعجاب فقط، بل تزودنا بما يدعونه «الاشتراك في الوعي» أي، بتأمل إيجابي، يجعل فينا اشتراكاً في الصفة الشعرية.

وكذلك تستحيل النفس الإنسانية استحالة أخرى بما أسميه «عدوى التاريخ». فعلينا لذلك أن نعرف كيف نستثمر التاريخ مثل قوة تنصب في شراييننا وعروقنا، وكيف نحول تياره المبعثر في اللجج الباهت ليزيد حياتنا حركة، وحاضرنا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع الثبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُرنا في كُلِّ جانبٍ مِنْ جَوَانِبِ الحياة ألوانا وألوانا.

فَيَكُونُ جُزْءٌ مِنْ تاريخه عقيدة، والجزء الآخر جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلود له، وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنَجْرِبَ إيماننا في الجهاد، وجهادنا في الإيمان.

وأية شخصية هي أخفَلُ مِنْ شخصيتنا التي نُديرُ الحديثَ عليها، بمَعْنَوِيَّاتِها وَفَعَالِيَّاتِها، وأَيُّها أخطى بآثارها، فلم يَكُنْ لنا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّأها وَنَسْتَفِيدَ مِنْها في الذُّكْرَى، كما آسْتَفَدْنَا مِنْها في الحياة.

ولستُ أَرْعُمُ لِنَفْسِي شيئاً من الفضل، وإنْ جَهِدْتُ في تَفْهَمِ المُسْلِمِ المُحَمَّدِيِّ زَمَناً غيرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كُلاًّما أَوَغَلْتُ فِيها رَأَيْتُنِي أَخُوجُ ما أَكُونُ إلى آئِتِداءِ دَرَسِها مَرَّةً أُخْرى بِمعنى جديد. وكذلك سَتَظَلُّ يَنْبوعاً يَرِدُّهُ الصَّادِي، وهو يَجِدُّ في كُلِّ رَشْفَةٍ معنى وَلَذَّةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لا يَحورُ مَعْنَاهَا وَلَذَّتُها وَنَكْهَتُها في مَذْهَبٍ إِحْساسِيهِ وشُعورِهِ.

يوم المدينة

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدَثِ الْمَجِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ
مَقْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمِ الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِمِ الطَّافِحَةُ
بِكِبْرِيَاءِ الذَّاتِيَّةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْجِدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمُنْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ
يَبْدُرُ^(١).

غَدَتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بِلَدِّ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَبِثَتْ زَمَناً وَهِيَ بِلَدُّ
الْعَقِيدَةِ، وَفَازَتْ بِتَجَرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَهْـبَى سَطْرِ فِي مَعْجِدِ الْعَرَبِ وَمَعْجِدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَسْجِلاً لِهَزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرِ آخَرَ، بَلْ كَانَ
تَسْجِلاً لظَفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحَرَّرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، إِنْسَانِيَّةِ
الْأَغْلَالِ وَالْقُبُورِ، وَإِنْسَانِيَّةِ الْاسْتِعْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

(١) الْمَعْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

مِنْ شَتَّى الْعُبودِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ والاجتماعِيَّةِ، ويومَ تَجْدِيدِ الإنسانِ وإنشائه إنشاءً آخراً.
غَدَتِ المدينةُ، في أُبْهَاتِها وأَمْجَادِها الحَفِيلَةِ، بَلَدًا جَدِيدًا، فلمْ تُعَدْ «يَثْرِبَ
الْقَدِيمَةَ» الَّتِي كَانَتْ، كغَيْرِها، وَكُرًّا مِنْ أَوْكَارِ الْفِكْرِ الْبَالِي والعقلِيَّةِ الْجَامِدَةِ، الَّتِي لَا
لَوْنَ لَهَا سِوَى ذَلِكَ اللَّوْنِ الْقَاتِمِ، وَكَانَ يَشِيْعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ تُعَدْ أَلْبَتَّةَ، بَعْدَ
الْيَوْمِ، مَرْكَزًا لِلنَّظَامِ الاجتماعيِّ الْمُتَأَخَّرِ الْمُوروثِ مِنْ شَرَائِعِ الْغَابِ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ
الْبَرْبَرِيَّةُ، وَكَانَ يَشِيْعُ بِشَتَّى مَظَاهِرِهِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. فَالشَّعْبُ ضَحِيَّةُ
الطَّبَقَاتِ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا ضَحَايَا فَرْدٍ مُسْتَبَدٍّ يُلَاشِي كِيَانَ الْأُمَّةِ فِي كِيَانِهِ، وَيُحَوِّلُ
تَيَّارَ النُّشَاطِ فِي الشَّعْبِ إِلَى مَا يُغْذِي أَطْمَاعَهُ وَيُشْبِعُ مُيُولَهُ وَرَغْبَاتِهِ.

غَدَتِ المدينةُ، مِنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، مَرْكَزَ الْفِكْرِ النَّاهِضِ الْمُشْعِ، وَالنَّظَامِ
الإِصْلَاحِيِّ فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ حُقُولِ الاجْتِمَاعِ، وَمَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الْحَيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي
بَدَأَتْ تَنْزِعُ الْأَغْلَالَ السَّابِغَةَ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ أَمْتَدَّتْ
وَأَنْطَلَقَتْ، كَمَا يَمْتَدُّ وَيَنْطَلِقُ خَيْطُ النُّورِ سَرِيعًا سَرِيعًا، حَتَّى أَنْتَضَمَتْ مُعْظَمَ الْعَالَمِ
الْقَدِيمِ.

لَبِثَتِ الْمَدِينَةُ أَيَّامًا مَدِيدَةً وَهِيَ غَارِقَةٌ بِيَهْجَاتِهَا، مُنْتَشِيشَةٌ بِمَا أُحْرَزَتْ مِنْ نَجَاحٍ،
فَقَدْ حَمَلَتْ شُعْلَةَ الإِصْلَاحِ، وَغَدَتْ رَسُولَ الْمَدَائِنِ وَالْأَمْصَارِ، وَهِيَ لَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ
رِسَالَتِهَا إِلَى الْعَالَمِ مَهْمَا كَلَّفَهَا تَبْلِيغُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ دَامِيَةٍ وَوُثْبَاتٍ
حُمْرَاءَ.

إِخْتَضَنَتِ الْمَدِينَةُ عَقِيدَةً خَالِدَةً وَنِظَامًا إِصْلَاحِيًّا خَالِدًا، ثُمَّ أَلْفَتْ حِزْبًا
خَلَاقًا، فَدَوْلَةً مُحَرَّرَةً. وَكَانَ مِنْ حَظِّ بِلَادِ الْعَرَبِ أَنَّهَا شَهِدَتْ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَجَرِبَةَ
نِظَامِ مُحَمَّدٍ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَقَدْ نَجَحَتْ فِي حُدُودِهَا وَنَجَحَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا، وَفِيهَا
الْقُدْرَةُ عَلَى النُّجَاحِ دَائِمًا.

كَانَ فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ كُلُّهُ الْإِعْجَابُ، مُنْذُ تَسَنَّى لِفِتَّةٍ قَلِيلَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحَطَّمْ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَّزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورَةُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَإِنَّمَا كَانَتْ صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُي بَغْلَبَةُ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافِّيَتُهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسِنُ بِهِ رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ جُهْدَهُ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي يَسْتَخِفُّ الْمَكَافِيحَ الظَّافِرَ وَالْأَمَلَ الْوَاجِدَ.

وَكَانَ يَمُزُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأْمُلٍ، فِي أَكْثَرِ تَطَوُّفِهِمَا، وَأَخِيَانَا يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيفِ الْهَامِسِ، وَهُمَا: مُخَيَّرِقُ^(٢) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِقُ: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرَوْعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أُخْرَزَهُ مُحَمَّدٌ وَجِزْبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشَبُ أَنْ يَتَخَطَّى حُدُودَهُ الضَّيِّقَةَ، وَيَشْمَلَ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيمِ، وَتَعَالِيمِهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَذَةِ، حَتَّى لَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةٍ وَتَبْشِيرِ.

قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِقُ - تُحِسُّ بِمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطِقُ عَنْ لِسَانِي، فَإِنِّي دَهْشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَزَّوَعْتُ كَارْتِيَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِيًّا إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمِ جَلَلٍ، وَكُلُّ مَا يَتَدَوَّلِي يُنْذِرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِقُ النَّصْرِيُّ الْإِسْرَائِيلِيُّ. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْقَيْطُونِ. وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَادُرِيُّ أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْصُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نُصْرَتَهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ بِمُقْتَضَى الْمَعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمَ السَّبْتِ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ فَجَرَحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أَمْوَالِي إِلَى مُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِآبْنِ حُجْرٍ الْعَسْفَلَانِيِّ، ج ٦،

ومحمد واثق كأشد ما يكون، فقد أوجد مادة حيّة، وصحّحها تصحيحاً معنويّاً، وولّد فيها قوًى لا حدّ لها، وغذاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكون بينهم وحدة في الصّفة العقليّة والشّعوريّة، كما غرس في قلوبهم طبيعة الإيمان الصّحيح الذي يزدري هبة العاصفات، وحرّر أفئدتهم من الأساطير والأوهام، وبلور عليهم الفكر، وعوّدهم النّظام، وألزمهم الطّاعة وكلمة التقوى، فكانوا أحقّ بها وأهلها. وليس يخطئني ظني في أنّه لن تقوم لشرعيّته شريعة، ولن يثبت لقومه قوم.

قال مخيريق: هيّجت، واثم الله، في نفسي حديثاً طالما كنت أذوده عن لساني زياداً، حتّى لا يجري به، ولا أراني إلّا مفضياً به إليك:

نظرت في شرائع العالم ونظمه، على اختلاف ألوانها، وقلّبتها على شتى وجوهها، فانتهيئت إلى أنّها تتناصر على سحق قوًى الأفراد والجماعات واستغلالهم استغلالاً أنانياً صارماً. وهذه الشرائع والنظم متعاونة فيما بينها، من أجل هذه الغاية التي لا تتفق بحالٍ والحرية الدّائنة للبشر، فسبيلها القضاء على الكيفيات والقابليات التي هي عنوان امتياز الإنسان، ليحولوا دون أن يتمّ النّشوء دورته، وبذلك يستسلم لهم القطيع.

ولقد بات المجموع البشري، من تأثير هذه الأدوار، في رويّة جدّ مريضّة، وأنكفات الجماعات تهوي في أتون التنازع السّاحق، حتّى لكأنّ البشريّة في دور احتضار، لا تلبث معه طويلاً أن تنقلب هامدة لا حراك فيها.

فلم يعد في الأديان ما يزوي ظمأ النفوس، بل على العكس، غدت الأديان مادة الظّمأ، كطالِب الرّي بالحنظل، فإنّه لا يزوي، ولكنّه يزيد شعوراً بالحاجة إلى الرّي. فالأديان الدّاوية الكسيفة، والهزّطات المستطيرة، والأوضاع الاجتماعيّة الفاسدة، والنظم الاقتصاديّة التي أذكّت نضال الطبقات بشريّة المفضعة، والتّداعي

الأخلاقي، ويقظة الإباحية الطامسة، كل ذلك أعد العالم، بقصد، ودون قصد، إلى انتظار كلمة البناء العالمي. ولا أظن محمداً إلا ذلك البناء العالمي الأعظم، ولا أظن دولته الصغيرة، في حدود المدينة، إلا نواة تلك الدولة العالمية العائمة التي ستصهر في بوتقتها الفوارق المليئة، وتستغلي على الأجناس والشيع، فالإسلام عقيدة ودولة وأنتمائية.

عرف محمد سلسلة الأرباب المترابطة في نسق، وعرف أن البشرية لن تتحرر من هذه العبوديات المركبة المتداخلة، التي تؤلف خطراً على الفكر البشري، وبوارز الامتياز الإنساني، وتغل النشاط الحيوي بما تزرخ به ككابوس ضاغط وجاثوم مروع إلا بعمل عنيف، وعرف أن حجر الأساس في بناية العبوديات الشامخة هي الطبقة الروحية التي تسوق الجموع طائعة بما تسيطر به على مناطق اللاوعي ومراكز اللا شعور. فأعمل مغولة الأقدس في بناية العبوديات الراسخة، التي شهدت، من نوع تلك العواصف، شيئاً كثيراً، فمزقت رباها المتناوحة المزمجرة، وبقيت في محلها شامخة راسخة. لكن محمداً عرف سير ثباتها فسدد ضربته الأولى الماضية إلى هذه الطبقة وربوبيتها^(٣)، وتحداها في نوع من الشخيرة والاستفزاز المثير، وما هو إلا أن تزلزل حجر الأساس، وخرت صروح الربوبيات، التي سخرت بالزمن مذرورة، متناثرة في حالتي تبغث وتراكم.

ثم وقف محمد فوق أطلالها شامخاً، يعلن حرية الإنسان^(٤) وحقوقه في

(٣) قال تعالى: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قال تعالى: «فَحَشَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وقال: «فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وقال «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِضَاطِرٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وقال: «رَبُّنَا إِنَّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال^(٥) الذاتي، ويُعْلِنُ حُرِّيَّةَ^(٦) العمل والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأَ^(٧) المسؤولية الشخصية في الحقوق والجزاء ونظريَّةَ الجزاء للحقِّ العام^(٨)، وينزِعُ أَغْلَالَ الفكر. فمحمَّد حاربَ الرُّبوبيَّةَ في شخصِ الأوثان الجامدة، وحاربَ الرُّبوبيَّةَ في شخصِ الأوثان الاجتماعية الحيَّة، وبذلك حرَّرَ الفكرَ وحرَّرَ المُجتمَعَ.

والمُدْهِشُ - يا آبنَ سَلامٍ - في مَنهَجِ محمَّدٍ الإصلاحِي أنَّه قامَ على الرُّزْلَةِ الفكرية، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ^(٩) من وراثاتها إلى آغْتِنَاقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صَالِحٍ، مَهْمَا بَدَأَ نَائِباً والمبادئ السَّائِدَةَ، وَيَقْسَحَ للأفراد والجماعات سَبِيلَ التَّفكيرِ المنطقيِّ الهاديءِ الخالي من شوائبِ الأفكارِ الأولى ونزغاتها. وكذلك لم يَعْمِدْ إلى تَصْحيحِ الأوضاعِ القائمةِ وتغيُّيرِها فقط، كَمَا عَمَدَ المُصْلِحُونَ مِن قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إلى تَصْحيحِ فِكْرَةِ الحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيَضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ والانتِكَاسُ اللَّاشعوريَّين، وكانا آفَةً كُلِّ إِصْلَاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ المُصْلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أولئك كانوا يُصَحِّحُونَ الأوضاعَ ويُشيعونها في المُجتمع، وروحيَّةُ الجماعة لم تَزَلْ غارقةً في الأوحالِ والأمراضِ، ولم تَزَلْ تالِفَةً أَشَدَّ ما يَكُونُ التَّلَفُ. فلا تَلَبَّثُ

(٥) قال تعالى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَّبِعُنِي أَنْ يَلَاظَ أَنَّ القانونَ العامَّ يَخُضَعُ للقانونِ الأدبيِّ.

(٦) قال تعالى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قال تعالى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وقال: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قال تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وفي هذه الآية تحريرٌ للعقل من الوراثة، ودعوةٌ إلى تَقْدِيرِها على ضَوْءِ المنطقيِّ والفكرِ المجرَّد، وبذلك قضى القرآنُ على الوراثة كَأَسَاسٍ لِلْفِكْرِ وَحَكَمَ الْعَقْلَ بِهَا، فَلَمْ يَشْجِبِ الْقَدِيمَ الْمَوْرُوثَ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلِ الْقَدِيمُ الَّذِي يَصْطَلِحُ بالمنطقيِّ في سُنَّةِ النُّشُوءِ، وجاءَ تحريره للعقلِ من حيثِ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كَأَسَاسَ لِلْفِكْرِ.

الأوضاع أن تفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاوده الحمى، ويكون المصلح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح النظم والأوضاع، وبذلك ضمين سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنتطق في جسم العالم المتداعي، كما تنطلق العصاره، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا ابن سلام - بداءة دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن.

قال ابن سلام: أراك - يا مخيريق - تتكلم بكلام من استهوته رسالة محمد، وما أبرئتك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأجزها الحس. ولقد شاءت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو، وإن لم يكن له جلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرني روحية ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية^(١٠) تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمد، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتركيز فلسفتها علي وتركيزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يغد لي مغدل عن أن تكون مقدمة

(١٠) قال تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» (يوسف ١٢: ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مخيرق - أن محمداً عالَجَ قضايا الدين والعقل والحياة والاجتماع، وأعطى حلولاً هي ما ظلت الإنسانية تائهة عنها وعبثاً تنشدها. ولعل أعظم ما يستوقفني ويغريني حله لمعضلة الأديان، فهو لم ينقضها بل صَحَّحها من الطفيليات العالقة عليها، فإن في كل دين قضايا الحق الأولى، وقد تناولها كل قبيل بنوع عقليته، وما ثبت فيها، فلَوَّنها بلونه، وما زال يُلْبِسُها، ويُضِيفُ إليها، ويَحْمِلُ عليها، حتى آخَتَتْ قضايا الحق وراء أستار صفيقة، وغدت كاللِّبَابِ تحجبه قُشُورٌ قاسية. والذي يثبت في عقل الجماعة مظاهر الأشياء دون حقائقها المحجوبة، فوقف إيمان الجموع عند حدِّ المظاهر، وعَمِلَ التاريخُ عَمَلَهُ في هذا الإيمان فتَحَجَّرَ عليها، برغم أن هذه المظاهر والآشكال ليست سوى انعكاس من وراثات القبيل.

ولكن محمداً استطاع، بإعجاب، أن يكشف قضايا الحق الأولى، وأن يُبَصِّرَ مكانها في كل دين، رُغم كلِّ الأستار الصفيقة، فأعلن للناس، على اختلافهم، وحدة الأديان، وأن قضايا الحق الأولى واحدة في كل دين، وهي لا تتغيَّرُ إلا إذا تسنى لناموس الطبيعة أن يتغيَّرَ، وأعلن أن ما يتوهَّمه الناس لباباً هو قُشُورٌ فقط، وبضربة حطَّمتها، وأعطى تحديده الدقيق للدين الجديد. فكان عَمَلُهُ وجهاده فقط في تجريد قضايا الحق بما ران عليها وعلق بها، أو ردَّ الناس إلى حقائق دياناتهم التي أفسدها النضال الطبقي والقومي، وأفسد كل مجتمع من ورائها، رُغم أن الأديان ما جاءت إلا لِمَخْرِ هذا النضال.

وكما قلت - يا مخيرق - ليس من الممكن للمُصلِح، إذا أراد البناء المكين، أن يتَّجِهَ إلى العقل الملوَّث المُتَحَرِّف، والفكر الغارق بالأوهام، ويَحْمِلُهُ رسالته، بل لا بُدَّ من مهاجمة هذا العقل، وهذا الفكر، حتى إذا تطهَّرا آتَّجَهَ إليهما من جديد وذَهَبَ يَتَنِي، وبعبارة أصح، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وكذلك فعَلَ مُحَمَّدٌ، وكان له ميزة على

المُصلِحين، وَيَتَّبِعِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ مُغَامِرًا يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُصْلِحًا دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوْلَهُمَا أَنَانِي بَلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلَقُ الْعَاصِفَةُ كَعِمْلَاقٍ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةً فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فَضَاءِ الْهَائِوَةِ طُيُورًا تَحُومُ فِي الْمُنْحَدَرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْلَاءِ مِسْحًا جَاحِظًا مُتَقَلِّصًا؛ وَثَانِيَهُمَا غَيْرِي فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَصْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقُوى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالْبِنَاءِ لِيَقِفَ، وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النُّفُوسِ، فَإِنَّهَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَتَّصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفًا لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةُ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْدِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعًا.

بَلَّغْنِي، وَأَنَا يَمَّا بَلَّغْنِي فِي عَجَبٍ، إِخَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يَنْعَتُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْتَبْسَالِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَدْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فَمِنْ كُلِّ وَجْهِ عَلِيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٌّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا جِدُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سِيْمَاءَ نَاطِقَةً بِالصَّلَابَةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغْمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ الْأَسْرِ، حَتَّى لَأَحْسَبُنِي بِتِّ مَأْخُودًا عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّوْنَهُ سِحْرَ

الشخصية.

وأذكر أن حديثه اليوم على كل لسان، وهم يشفعونه بإعجاب طائفي
ممدود: «أليس الذي فعل الأفاعيل بقريش»، هذه عبارتهم التي لا تكاد تسقط من
حديث أحد عنه، حتى غدت تقليدية وطبيعية. قال هذا، وسكت مطرقاً، ويده
تداعب جبهته كالذي يريد أن يتذكر شيئاً قدّر أنه خطير، وعلى فجاءة نقر جبهته
نقرة شاع سرورها في مقلتيه وأساريره.

قال: يا مخيرق سأخبرك خبر فتى قريش، يوم تزمل في فراش محمد، ليلة
الهجرة، إيهاماً عنه... قال مخيرق: أذكر أنني سمعت شيئاً من ذلك... ومضى ابن
سلام في حديثه: إنها مغامرة يظنّها البسطاء دون استيساله في معركة بدر، لكنها
عندي، من وجهة العقيدة، أعظم شأنًا وقد لا يعدلها موقف. فإن الاستيسال قد
تولّد حماسه المشهد، وأصوات الجموع المائجة، وقد تولّد خيلاء الذاتية في موقف
لا مفرّ من الظهور فيه، وكثيراً ما بدلت هذه المشاهد نفسية الجبان، كما لا تدلّ
على أثر العقيدة دائماً.

ولكنّ تلك، هي مغامرة العقيدة المجسّمة، فقد كانت تعريضاً للنفس دون
تذرع بأسباب الدفاع، وبكلّ هُدوء، فليس فيها أنفعال عنيف يُنسي المرء ذاته،
ويُدفعه إلى عدم المبالاة دفْعاً قسرياً، وهي مغامرة، إن كانت تُعبّر عن شيء فإنما تُعبّر
عن نسيان الذات على كلّ حال، بفاعلية العقيدة وحدها، التي طغت على كلّ
المشاعر واستبدت بها. إنّ التضحية رهيبة، يا مخيرق، دائماً، ولكنها أرهب ما
تكون في المواقف الهادئة التي لا تُثير الأعصاب بشعور غير عاديّ.

إنّ محمداً عرّف كيف يجعل النفس العربية مؤمنة ذات آفاق في الإيمان،
فكانت بذلك قوية ذات آفاق في القوة. خصوصاً وإيمان محمد يجعل المرء لا يرى
شيئاً في حدود الإيمان، ويرى الإيمان في حدود كلّ شيء، كتلك الفراشة التي

أَسْلَمَهَا الْمِصْبَاحُ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرُهُ مَتَاعِيهِمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يُعَدَّ يَتَّبِعُ مِنْ حُدُودِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ حُدُودِ تَعَالِيهِمْ. وَالْإِعْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحُزٌ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَتِمُّ الْغَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أُدْخِلُ، عُضُوبِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَتِمُّ الْغَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَسَةً، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَتَحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْحَصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْإِعْتِقَادِ، لَكِي تُسَيِّطَرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيَصْلُحُ الْعَقْلُ وَيَسْمُو الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزُ الدُّنْيَا تُصْبِحُ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَتَّبِعُ فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةَ مُؤْمَنَةٍ، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِبٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي قَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أُخْرَجٍ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخِيرِيقُ: لَشَدِّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَاذَةُ تَعَالِيْمُكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبِثَ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَاطَّرَدَ مُعِينًا، يَقُولُ:

يَسْرُنِي أَنَّا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمِيلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَعْمُرُهُمْ لَا مَحَالَةَ؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَخْتَنْصَرٍ... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَخْتَنْصَرٍ كَافِيًا لِبَعْثِ آلامِهِ الْقَوْمِيَّةِ الدَّفِينَةِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا شَرُّدُوا مَرَّاتٍ، وَأَضْطَّهِدُوا كَرَّاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَحَقَّدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَّرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبَثُّوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ التَّبَعَةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نُفُوسَهُمْ صِفَةَ الْغِلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْمُخْلِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَوَّلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اخْتَضَنُوا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَوْا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَاخْتَضَّنُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى^(١١) وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَسْبَابٌ أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً فِيمَا أُعْتِقْتُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُعْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعَنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أُحِسُّ:

أ - الْمَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءَ فَطِيعًا، وَتَخَلَّلَتْ مَغْنَوِيَّتَهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيُنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا دَنِيَّةٌ أحيانًا. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشَعِ وَالشَّرِّهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَاتَتْ خَطَرًا، وَشَكَّلَتْ مُعْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَذَحِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

(١١) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، للدكتور ولفنستون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَرْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَهَذَا عُذْوَانٌ مُنْكَرٌ.
وَالْحَيَاةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْجُهِدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَحْيَا. هَذَا مَنَاطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ
المُصْلِحُونَ مِنْ حَدِّهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى شَكْلِ مَا تَرَى فِي
تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ
طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَتَذَلُّ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْبَرِ فَائِدَةٍ
بِأَقْلٍ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ.
فَقَوْلَدَتْ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَايِنِ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشَكِّلُونَ،
فِي النَّظَرِ الْاجْتِمَاعِيِّ، بَيْعَةً طُفَيْلِيَّةً شَدِيدَةً الْخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طُفَيْلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالْهُوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ
حَيَاتَهَا عَلَى جِسْمٍ حَيٍّ، وَلَدَّ لَهُمْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيْئُ فَأَلْفَوْهُ وَافْتَتَوْا فِي أَشْكَالِهِ
مُسْتَفِيدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْفَوْضَوِيَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْاِمْتِنَاعِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ
الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَشْبَابِ الْاضْطِرَابِ
وَالْفَوْضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلٍ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَثُّ مَبَادِيءَ اجْتِمَاعِيَّةٍ
حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَرْزِينِ الْحُرُوبِ. وَثَبَّتَتْ هَذِهِ الْفَوْضَوِيَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ
الْفَوْضَى وَالثُّورَاتِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعُنَاوَةِ تَأَلَّفَتِ الرُّوحِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آرْتَدَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ
لَا يُخْلِصُ لِأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الصَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تُلَاخِظُ مَعِيَ أَنَّ
بَنِي قُرَيْظَةَ الْمَزَارِعِينَ أَكْثَرُ مَيْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعِ
الْمُرَايِنِ؟

قال مُخَيَّرِقُ: بلى نَعَمْ ما تُلاحظُ... وَمَضَى آبْنُ سَلَامٍ في حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ
أَتَرَدُّ أَلْبَتَّةَ في أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةَ البَغِيضَةَ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي
حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُتَكَرِّرَ في رُوحِيَّتِهِمْ.

قال مُخَيَّرِقُ: أَلَا تُجِيبُنِي إلى أَمْرٍ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقَاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّائِيهِ،
وَأَنْتِشَالِيهِ مِنْ أَوْحَالِ المَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لَا تَلْبَثُ أَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَأَنْتَ
خَبَرُ الْيَهُودِ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنَزَلِي وَمَكَانِي، فَتَنْضَمَّ وَأَنْضَمَّ إلى حِزْبِ
مُحَمَّدٍ، فَتَضَعُضِعَ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تِجَاهَ الحَرَكَةِ التَّحْرِيرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ
نَتْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثَرًا يَكْفُلُ لَنَا عَدَدًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصًا وَنَفْسِيَّةُ الْجَمَاعَةِ
سَرِيعَةُ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةُ الاسْتِثْلَامِ.

قال آبْنُ سَلَامٍ: هَذَا ما فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَدْتُ العَزْمَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ القَدَرَ سَاقَكَ
لِتَشْجِيعِي...

وعلى ذَلِكَ أَفْتَرَقَا... فَمَضَى مُخَيَّرِقُ في الطَّرِيقِ المؤدِّي إلى المَسْجِدِ، مَرَكِّزَ
الدَّعْوَةَ والدَّوْلَةَ... وَتَمَهَّلَ آبْنُ سَلَامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لِدُخُولِهِ صَدَى أَوْسَعَ أَنْتِشَارًا وَأَشَدَّ
وَقَعًا. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شَاخِصًا في إِكْبَارِ لَتَضَمِيمِ مُخَيَّرِقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ،
وَفِي إِعْجَابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الْفِكْرِ النَّابِغِ...

*

الإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحَيَاةٌ وَنِظَامٌ...
وله في الأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ تَفَاعُلَاتٌ على أُنْحَاءٍ أَرْبَعَةٌ:
تَتَفَاعَلُ العَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الأَوْهَامِ العَالِقَةِ بِالفِكْرِ، فَيَعْدُو فِكْرًا جَدِيدًا بِمَنْطِقِ
جَدِيدٍ...

وَيَتَفَاعَلُ العَمَلُ فِيهِ مَعَ الجُهِدِ المُبَدَّدِ، فَيَعْدُو جُهِدًا مُنْتِجًا...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُغَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَعْدُو طَلْقَةً شَامِخَةً...
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَائِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَعْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحاً...
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادٌ،
وَيَسْنُهُمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالِدَوْلَةُ وَالْمَجْتَمَعُ...

* * *

يوم القرآن

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي اسْتَيْقَظَ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِ نَاعِمَةٍ
كَرَّجِعِ الْحَنِينَ، وَمُنْعِشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَقِعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا
بِأَسَابِيْعٍ^(١) فَذَلِكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَاذٌ هَنِئٌ
رَافَةٌ بِأَحْلَامِ الْغَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيْشُ بِذِكْرِ مُحَبِّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِيْبَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا
تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَغَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيْشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا
أَطْمِئْنَانٌ وَرِضَاءٌ، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُعْبِرُ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً
مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيْقَةٍ، وَزَفْرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عَنْدهُ
طَيْفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ، وَيُلْتَمُّ بِهِ أَحْيَانًا، وَغَدًا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا
مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَبْدُو، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًّا تَلْقَاهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٌ،
وَمُتَلَفِّعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيْعُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعْبِرُ عَنْ زَهْوِ الْمَكَافِحِ الْمَيْتِ بِمَجْدِ
الْمَكَافِحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فِي طَيْفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةٌ، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَتَتِ الرُّوَايَاتُ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْعَةِ بَدْرِ وَاقْتِرَانِ عَلِيٍّ بِفَاطِمَةَ.

حرَاءَ، وَمَكَّةَ، ودارِ الإغْدَادِ والدَّعْوَةِ (بَيْتِ الأَرْقَمِ) فَيُحِشُّ بِالْحَنِينِ الْعَمِيقِ.
وَيُتَمَرُّ بِهِ صُورُ الأَوْثَانِ الْمُنْضَدَةِ الَّتِي تُحَدِّثُهَا فِي سُخْرِيَّةٍ، وَهَاجَمَهَا فِي تَحْطِيمِ،
فَيُحْرِقُ الأَرْقَمَ.

وَيُتَمَرُّ بِهِ صُورُ مَا لَاقَى مِنْ عَنَتِ إِجْمَاعِيٍّ، وَهُوَ مَاضٍ فِي كِفَاحِهِ لَا يَحْفِلُ
وَلَا يَتَشَنَّى وَلَا يَتَرَدَّدُ، مُعْتَقِداً الظَّفَرَ رُغْمَ الْجُمُوعِ، وَالنَّجَاحَ رُغْمَ تَأَثُّبِ الْبَاطِلِ
وَسُورَتِهِ. وَكَذَلِكَ الْمُصْلِحُ الْحَقُّ يَنْقَطِعُ الْفِكْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَقَبَاتِ، لِيَقُولَ كَلِمَتَهُ
وَيَسْمَعَ صَدَاَهَا، وَدَائِماً يَكُونُ مُزَلْزَلاً مُزْعِداً.

وَيَتَدَوَّأَبُو طَالِبٍ، مِنْ وَرَائِهِ، يَدْفَعُ عَنْهُ، وَيَشُدُّ أَرْزَهُ، وَيَحْمِي حِمَاهُ، فَيَشْمَلُهُ
رِضاً بِأَنَّهُ أَدَّى رِسَالَتَهُ وَشَهِدَ نَجَاحَهَا فِي الْخَلْقِ وَالْإِنْشَاءِ.

وَيُتَمَرُّ بِهِ خَدِيجَةُ فِي هَالَةِ الْحُبِّ الزَّوْجِيِّ الْأَقْدَسِ، وَفِي صُورَةٍ مِنْ مَقَامِ الْمَرْأَةِ
وَأَثَرِهَا فِي حَرَكَاتِ الْبَعْثِ وَالْإِنْقِلَابِ، فَيَعْرِوهُ حُزْنٌ صَامِتٌ، وَتَقْدِيرٌ خَفِيٌّ، وَإِكْبَارٌ
يُظْهِرُ أَثَرَهُمَا فِي مَرْكَزِ الْمَرْأَةِ مِنَ التَّشْرِيعِ الْخَالِدِ... وَتَزْوِي تِلْكَ الصُّورُ وَتَثْبُتُ هَذِهِ
الْحَقِيقَةُ:

نَجَاحُ الْحَرَكَاتِ الْخَلَاقَةِ بِدَعَائِمِ ثَلَاثٍ: رَجُلٍ الْمَبَادِيءِ الَّذِي يَعْمَلُ بِقَوَاهِ
الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ مُجْتَمِعَةً، وَالْمَرْأَةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِرُوحِيَّتِهَا الْمُسْعَّةِ وَعَوَاطِفِهَا الْوَاعِيَةِ،
وَرَجُلٍ الدِّفَاعِ الَّذِي يَعْمَلُ بِكُلِّ وَسَائِلِهِ بِإِحْلَاصٍ...

وَتَتَنَقَّلُ بِهِ الذُّكْرَى وَلَا تَنْقَطِعُ، إِلَى الْهَجْرَةِ، فَيَمُرُّ بِهِ عَلَيَّ وَتَضْحِيئُهُ الرَّهْبِيَّةُ
فِي التَّزَمُّلِ عَنْهُ، فَيَزْنُو فِي دَهْشَةٍ مُكْبِرَةٍ.

وَيَمُرُّ بِهِ غَارُ أَبِي ثَوْرٍ، وَصَاحِبُهُ الْبَاسِلُ أَبُو بَكْرٍ، وَالطَّرِيقُ الْمُرَوُّعُ، وَهُمَا يَنْهَبَانِ
الأَرْضَ نَهْباً، فَيَشْعُرُ بِأَسَىٍّ، وَيَنْكَمِشُ عَلَى خَاطِرٍ أَنْ يَغْدُو صَانِعُ الْمَجْدِ، طَرِيدَ الْمَهْدِ.
وَيُتَمَرُّ بِهِ يَثْرِبُ وَجُهِودُهُ فِي تَثْبِيَتِ الْعَقِيدَةِ وَاسْتِثْمَارِهَا فِي بِنَاءِ قَوَاعِدِ الدَّوْلَةِ

الجديدة، فيُتَغَرُّ في آيِسَامَةِ عَرِيضَةِ هَادِثَةٍ.

وَتَمُرُّ بِهِ سِلْسِلَةُ الْمَعَارِكِ الَّتِي كَانَ أَهْمُهَا بَدْرٌ، وَيَرَى الْجَمْعَيْنِ وَقَدْ تَصَافَا لِلْقِتَالِ، وَيَرَى أَبْطَالَهُ عَلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَرَى عَلِيًّا، صَاعِقَتُهُ الْمُدْخَرَةُ، تَنْقُضُ فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَيَشْهَدُ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ، فَيَهْزُهُ فِي مَظْهَرِهِ الْوَقُورِ سُرُورٌ بَعِيدُ الْغُورِ... وَتُزَوِّي تِلْكَ الصُّورُ أَيْضًا، وَتَثْبُتُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ:

إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ أَسَدَ مُحَمَّدٍ، وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّأْسِيسِ، وَلَمْ يَنْقُضْ يَدَهُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ، فِي فَتَاهُ عَلِيٍّ، أَسَدَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّشْيِيدِ وَالْإِغْلَاءِ...

قَامَ النَّبِيُّ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَمْرِ أَرْضِي بِهِ ضَمِيرُهُ وَحُبُّهُ مَعًا، وَخَرَجَ وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ أَدَّى حَقًّا. وَمَرَّتْ بِهِ فَاطِمَةُ، وَهِيَ تَخْطُرُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، فَقَبَّلَهَا قُبْلَةً اجْتَمَعَ فِيهَا شُعُورٌ جَدِيدٌ أَحْسَسَتْ مَعْنَاهُ غَايِضًا مُبْهِمًا، وَلَكِنَّهُ اسْتَنْبَهَ فِيهَا شَيْئًا لَمْ تَذَرِ كُنْهَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُبْهِجٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

لَمْ يَفْصِلِ النَّبِيُّ عَنْ حُجْرَاتِهِ بَعِيدًا حِينَ أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ عَلَى فَاطِمَةَ تَزَوُّرُهَا، فَأَنِسَتْ إِلَيْهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ لِقَاءَهَا بِلَهْفَةٍ وَصَبْرٍ نَافِدٍ... وَالْمَرْأَةُ تَتَكَشَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِحَقِيقَتِهَا الْعَارِيَةِ، وَتَظْهَرُ الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِكُلِّ ذَاتِيَّتِهَا، وَلَيْسَتْ تُعْطِي الرَّجُلَ إِلَّا نِصْفَ مَعْنَاهَا، وَيَبْقَى النِّصْفُ الْآخَرُ مَجْهُولًا غَايِضًا وَيَذْهَبُ فِي غُمُوضِهِ أَبَدًا. فَنَحْنُ نَفْهَمُ الْمَرْأَةَ نِصْفَ فَهْمٍ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَشَّفُ لَنَا إِلَّا نِصْفَ أَنْكِشَافٍ، وَلَا يُخْرِجُهَا مِنْ صَدَفَتِهَا لِلْعَرَاءِ إِلَّا الْحُبُّ، وَالْمَرْأَةُ، إِذَا تَفَتَّحَتْ أَنْوُثَتُهَا وَنَضَجَتْ، حَنَّتْ حَنِينًا مُبْهِمًا، فَإِنَّهَا تَجِدُ نِصْفَ مَعْنَاهَا فِي الرَّجُلِ، وَالنِّصْفَ الْآخَرَ فِي الْوَلَدِ، وَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَحُلَّ لُغْزَهَا فَيَأْخُذُهَا هَذَا الْحَنِينُ.

أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ إِقْبَالَ مَنْ فَهِمَتْ شَيْئًا وَتُرِيدُ الْمَزِيدَ، وَقَالَتْ لَهَا: مَرَرْتُ بِالنَّبِيِّ،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تفارقه، حتى لقد خيل إلي أنه عزم على أمر فشاغ سروره على محياته البهي. ولا يتعد بي ظني أنك وقفت عليه، فقد أعلم أنه يستروح فيك روح النبوة، وما هو بغريب، فإنك ولدت له بعد مبعثه، وقد استحالت النبوة في معناه، وغدت له ذاتية، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى.

استوت فاطمة، وقد تألقت في عينيها إشراقة من خلوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يلقاها به النبي من آخفاء وأخفاء إلى محض الحنان الأبوي، وألقت في آيسامة مفترية: إذا فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا ميمونة.

قالت ميمونة: وأنا وإيم الله، ما جلست إليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله، وشملتني سكينته لا أحدداً إلا بما تترك في نفسي من أطمئنان لا ذرغيب. ولا تحسبيني، من هذا الشعور، كما قيل: «تخيّل ثم خال» بل هو واقع نفسي كالرّي على الظمأ، أو كالأمل الندي.

قالت فاطمة: يسرني أنك تحبيني هذا الحب، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي، على ما انتهى إليه حدسك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك، وأنه عراني إحساس غامض حين قبلني أبي في هذا الصباح قبلة جديدة المعنى، وبث في قبليته، إلى جانب الحنان الذي عودني، شعور من يخشى فراقه، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزايله حين مررت به.

وكانت حجرات النبي تُشرف على المسجد فرأنا شبحاً لم تتبيناه جيداً، يدخل مسرعاً ويخرج سريعاً، فأشرأبت ميمونة تنظر، وأطلت من قريب، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم يتبسّط إليه. ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فسأره بشيء لم تتبينه ميمونة أيضاً، فلم يتبسّط إليه، وظهرت عليه حركة

إِعْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِتَهَجُّتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَسَارَهُ طَوِيلًا وَالنَّبِيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَحْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى ثَغْرِهِ آتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقْصُّ عَلَيْهَا مَا رَأَتْ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ ضَمَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَغَمَمْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا ثَبَّتَ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأَتْ مَيْمُونَةً أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جَلِيتِيهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ بَلْبَاقَةً إِلَى وَجْهِ آخِرِ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ الْمُفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْرِفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَا الْاهْتِمَامُ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَضْغَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلْتُ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبَّرَ الْيَهُودَ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأٌ شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمْتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ آبَنَ سَلَامٍ رَمَزَ دِينِي مِنْ رُمُوزِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْلِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصَّدَى الَّذِي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةِ مَوْقِفِهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَدَارَكَ الْيَهُودَ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يَفْضَحَ لِأَيْلِكَ سِرُّ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَعْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُّغَمِ مَا أَحْدَثَهُ آغْتِنَاقُهُ

الإسلام من صدئ عكسي عَنيف، وَوَقِعَ مُزَلْزِل، لَنْ يُؤَثَّرَ فِي سَلْبِيَّةِ الْيَهُودِ إِلَّا أَثَرًا ضَعِيفًا، عَلَّلَهُ آبْنُ سَلَامٍ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ «الْبُهْت».

كَمَا أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ وَحَدَهَا قَامَتْ عَلَى الدِّينِ الْمَوْرُوثِ، وَالْكَنِيسِ الرَّمْزِيِّ فِي هَذَا الشَّكْلِ حَسْبُ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ كَنِيسٌ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَ هَذَا التَّقْلِيدِ الدِّينِيِّ. فَهَمْ لَا يَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ، رُغْمَ الْكَوَارِثِ، بِحُكْمِ صِحَّتِهِ، بَلْ بِحُكْمِ أَنَّهُ قَاعِدَةٌ قَوْمِيَّةٌ تَكْفُلُ وَخَدَتَهُمْ، فَالْيَهُودِيُّ لَا يَرْفُضُ مَبْدَأًا لِأَنَّهُ فَاسِدٌ أَوْ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ لِأَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ وَمِثْلُهُ الْقَوْمِيُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْبَلَهُ بِدُونِ مَنَاقَشَةٍ. وَهُوَ قَدْ يَغْتَقِدُ عَدَمَ صِلَاحِيَّتِهِ كَطَبِّ لِلرَّوْحِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَقْبَلُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ، لِأَنَّهُ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِسَلَامَةِ الْوَحْدَةِ الْيَهُودِيَّةِ. فَالْيَهُودِيُّ لَا يُعْمَلُ عَقْلُهُ فِي مِثْلِهِ، بَلْ لَا يَجِبُ أَنْ يُعْمَلَ عَقْلُهُ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الْمِثْلُ تَحْفَظُ عَلَيْهِ وَخَدَتَهُ الْعَامَّةَ الَّتِي تَتَّصِلُ بِبَقَائِهِ، فَلَوْ فُرِضَ وَاتَّسَعَ الْيَهُودُ كَمَجْمُوعٍ بَشَرِيٍّ يَعِيشُ أَشْتَاتًا عَلَى الْأُمَمِ لِاتِّبَاعِ أَيِّ الْمَبَادِيءِ الَّتِي تَرُوقُ لَهُمْ لَذَابُوا وَغَمَرَتْهُمْ اللَّجَّةُ. فَمُعْتَقِدُهُم الدِّينِيُّ الْمَوْرُوثُ حَفِظَ وَخَدَتَهُمْ وَبَقَاءَهُمْ كَأَمَّةٍ أَوْ كَقَبِيلٍ مِنَ الْبَشَرِ يَمْتَّازُ بِخَصَائِصِهِ، وَحَفِظَ اتِّصَالَ تَارِيخِهِمْ، وَبِذَلِكَ كَانَ لَهُمْ غُنْصُرًا أَوَّلِيًّا كَالْأَرْضِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الْقَوْمِيَّاتِ الْوَطِيدَةِ فِي الزَّمَنِ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: بِهَذَا يُعَلَّلُ آبْنُ سَلَامٍ سَلْبِيَّةَ الْيَهُودِ الصَّلْبِيَّةَ، وَلَيْسَ إِزَاءَ الْإِسْلَامِ خَاصَّةً، بَلْ إِزَاءَ كُلِّ الْمَبَادِيءِ وَكُلِّ الْأَدْيَانِ، حَذَرًا مِنْ تَفْسِيخِ وَخَدَتِهِمْ وَتَبْعَتِهِمْ فِي الْأُمَمِ... قَدْ يُرَى يَهُودِيٌّ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ وَآخَرُ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ ثَانٍ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُؤْمِنَا أَلْبَتَّةَ بِمَا يُرَوِّجَانِ لَهُ، وَإِنَّمَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ غُنْصَرِ الْفَوْضَوِيَّةِ وَمَحَبَّةِ إِشَاعَتِهَا فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ، لِيَتَسَنَّى لَهُمُ الْعَمَلُ وَالتَّجَاحُ.

وَبَيْنَا هِيَ فِي حَدِيثِهَا دَخَلَ النَّبِيُّ فَهَبَّتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ، وَتَبِعَتْهَا مَيْمُونَةُ، وَوَجَدَتْ إِذْ ذَاكَ فُرْصَةً مَكْنَنَتَهَا مِنْ أُذُنِهَا، فَأَنْطَلَقَتْ قُدُمًا وَرَاءَ خَاطِرٍ سَنَحَ لَهَا عِنْدَ

الخُرُوجِ، بَأَنَّ أَنْسَاءَ، خَادِمَ النَّبِيِّ الَّذِي لَا يَكَادُ يُفَارِقُهُ، عِنْدَهُ مِنْ خَبَرِ الْمَسْجِدِ هَذَا الصَّبَاحِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. فَقَصَّدَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ إِحْدَى صُورِجِبَاتِهَا، وَمَا ظَهَرَتْ فِي الْبَابِ حَتَّى اسْتَقْبَلَتْهَا أُمُّ أَنْسٍ بِالْخَبَرِ كَبْشَرَى فَذَّةً، وَكَانَ فِيهَا رَوْتُ لَهَا عَنْ ابْنِهَا: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مُنَاصَحَتِي وَقَدَّمِي فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْتِي... وَأَنْتِي...

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ، فَسَكَتَ عَنْهُ... فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عُمَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: هَلَكْتُ.

قَالَ عُمَرُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: خَطَبْتُ فَاطِمَةَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَعْرَضَ عَنِّي.

قَالَ: مَكَانَكَ حَتَّى آتِيَهُ فَأَطْلُبَ مِثْلَ الَّذِي طَلَبْتُ.

فَأَتَى عُمَرُ النَّبِيَّ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مُنَاصَحَتِي وَقَدَّمِي فِي الْإِسْلَامِ وَأَنْتِي... وَأَنْتِي...

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ، فَسَكَتَ عَنْهُ...

فَرَجَعَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ بِهَا... قُمْ بِنَا إِلَى عَلِيٍّ نَسْتَحِثُّهُ أَنْ يَطْلُبَ مِثْلَ الَّذِي طَلَبْنَا.

فَأَتِيَاهُ وَهُوَ يُعَالِجُ فَسِيلًا لَهُ، فَقَالَا: إِنَّا جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّكَ بِخُطْبَةٍ... فَقَامَ يَجُرُّ رِادَّةً حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مُنَاصَحَتِي وَقَدَّمِي فِي الْإِسْلَامِ وَأَنْتِي...

وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجني فاطمة... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فرسي وبزتي.

قال: أما فرسك فلا بُدَّ لك منها، وأما بزتك فبيعها.

فغادرَ وباعها بأربع مائة وثمانين، وجاءَ بها حتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فقال: أي بلال، آتينا بها طيباً^(٢).

شاع الخبرُ في المدينة سريعاً كما يَشِيْعُ الأريجُ العابقُ في كُلِّ مكانٍ مع النَّسيمِ النَّديِّ، فكانت ميمونة لا تَمُرُّ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الأَنْصارِ إِلَّا وَتَرى المَرْأَةَ تَميلُ إلى المَرْأَةِ، وتقولُ لها في بِشْرٍ ظاهِرٍ:

أما بَلَغِكَ النَّبَأُ؟ عليّ خَطَبَ فاطمة، وباركَ النَّبِيُّ العَقْدَ، وإنَّه لَنِعَمَ الحَدَثُ. ليسَ لهذه السَّيِّدَةِ المُصْطَفَاةِ إِلَّا هذا السَّيِّدُ المُصْطَفَى. وهي رَبيبةُ الوَحْيِ والرَّسالةِ، وهو رَبيبُ الوَحْيِ وبَطْلُ الرَّسالةِ.

وفي آسْتِدَارَتِها صَوَّبَ مَنْزِلُها سَمِعَتْ رَجُلًا يَسْمُرُ إلى آخِرِ في نَاحِيَةِ مِنَ الحَيِّ ويقولُ:

إنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وإنَّما كَرَّمَ البَطُولَةَ الخالِدةَ المُظَفَّرَةَ في شَخْصِ البَطْلِ الخالِدِ المُظَفَّرِ، وإنَّ مِنْ حَقِّ البَطُولَةِ تَكْرِيمَها، وما فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكَرَّمَ البَطُولَةَ بِأَعَزِّ ما عِنْدَهُ وأَقْرَبِ ما هو إلى قَلْبِهِ، فإنَّ فاطمةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوِّراً في إنسانٍ مَلَكِيٍّ أو مَلَكٍ إنسانِيٍّ. وليسَ في هذا مَعْنَاهُ بل مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فإنَّ مُحَمَّدًا، في حَقِيقَتِهِ،

(٢) راجع كتاب: الرِّياضُ النَّصِيرةُ في مناقبِ العشرةِ للمُحِبِّ الطَّبْرِي، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسَالَةٌ وَدَعْوَةٌ وَهُوَ الْمُبْتَدَأُ، وَإِنْ عَلَيَّا، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ وَإِجَابَةٌ وَهُوَ الْحَبَرُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فَاطِمَةَ رَابِطَةُ الْإِسْنَادِ.

وَمَا فَاتَ مَيْمُونَةٌ أَنْ تَسْمَعَ مَا رَدَّ بِهِ الْآخَرُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، كَمَا تَقُولُ: وَأَيْضاً لَقَدْ كَرَّمَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْقِرَانِ بَطُولَةً أُخْرَى هَانِئَةً فِي أَبْدِيَّتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْوَاعِيَةِ، إِنَّهُ كَرَّمَ أَبَا طَالِبٍ التَّصِيرَ الْبَرَّ وَالْمُجَاهِدَ الْأَوَّلَ.

قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: فَهَذَا الْقِرَانُ إِذَا تَكْرِيماً مُزْدَوِجٌ ضَاعَفَ مَعْنَاهُ، وَأَخْلَدَ بِهَذَا الْيَوْمَ تَكْرِيماً الْبَطُولَاتِ، إِنَّهُ لَيَسْتَحْفِلُنِي بِمَعْنَاهُ الْكَبِيرِ... رَنْتُ مَيْمُونَةً فِي الظَّلَامِ وَأَخَذْتُ بَصَرَهَا كَمَنْ رَأَى شَبَحاً، فَإِذَا شَخْصٌ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا، وَإِذْ تَبَيَّنَا هَتَفَا جَمِيعاً: أَهْلًا بِكَ سَلْمَانُ.

وَكَانَ سَمِعَ بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفَ مِنْذُ حِينَ عَلَى الْحَبَرِ، فَقَالَ:

إِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَحْفَلَكَ يَا هَذَا، إِنَّهُ تَكْرِيماً لِأَكْبَرُ مِمَّا كُنَّا نَصْنَعُ، نَحْنُ الْفُرْسُ، فِي جَاهِلِيَّتِنَا، مِنْ إِقَامَةِ تِمْنَالٍ جَامِدٍ تَخْلِيداً لِلْبَطْلِ. فَإِنَّ مُحَمَّدًا مَنَحَ تِمْنَالاً حَيًّا أَسْمَى، تَخْلِيداً لِلْبَطُولَةِ الْحَقِّ، فَكُلُّ مَا فِي عَمَلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَخْلِيدٌ بِمَقْدَارٍ مَا فِي الْحَجَرِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا تَخْلِيدٌ بِمَقْدَارٍ مَا فِي الرُّوحِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَبَدِيَّةَ فِي طَبِيعَتِهَا... وَأَغْرَقَ ثَلَاثُهُمْ فِي تَأْمُلٍ صَابِتٍ طَالَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ مَيْمُونَةٌ لَا تَنْتَظِرُ وَتَلْجُ الْمَنْزِلَ.

أَخَذَهَا اللَّيْلُ بَنُومٍ هَادِيٍّ تَحَلَّلَتْهُ أَحْلَامٌ بِهِجَةً آسْتَيْقَظَتْ مِنْهُ عَلَى لَذَّتِهَا، فَحَفَّتْ إِلَى حُجَرَاتِ النَّبِيِّ بِقَدَمٍ شَاعِرَةٍ تَحْتَ قَصْدٍ غَيْرِ شَاعِرٍ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَتَحَيَّنُهَا أَيْضاً وَتَنْتَظِرُ مِنْهَا شَيْئاً. فَإِنَّ أَبَاهَا اللَّيْلَةَ أَخَذَ بِهَا فِي أَحَادِيثَ شَتَّى كَمَا تَشَاءُ الْأُبُوَّةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْصِحْ لَهَا عَنْ شَيْءٍ يَضَعُ حَدّاً لَتَسْأُلُهَا، بِيَدِ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ، وَمَنْ لَهَا غَيْرُ مَيْمُونَةٍ؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَبَرِ إِسْلَامِ كَعْبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأُمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْتُمُّكَ كَثِيرٌ إِسْلَامٌ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْتُمُّنِي وَلَكِنِّي لَحَظْتُ بِالْأُمْسِ أَنَّكَ جِذْتِ عَنْ حَدِيثٍ بِحَدِيثٍ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَبْنِ عَمِّكَ عَلِيٍّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ مُعْجَبَةٍ اتَّصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبِّينَهُ وَتُعْجَبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّهُ وَيُعْجَبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمَلُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأُحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجَبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ: وَإِنَّكَ سَوْفَ تُحِبِّينَهُ بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَبْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرَ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّهُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَغَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَاقَةٌ مُفَكِّرَةٌ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جِوَارِهِمَا أَدْنَاهَا النَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهَا فِي أَحَادِيثَ بَيْنَ الْحَنَانِ وَالْإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي سُبَاتٍ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالَبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالَبَةً شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُحْدٍ مِنْ مَشَاعِرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بِرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرْضَيْنَ يَا فَاطِمَةُ أَنْ اللَّهُ آخِثَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»^(٣).

وَكَانَ لِكَلِمَةِ النَّبِيِّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرَ هَذِهِ الْأَفَاظُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ آخَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَدْحُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدُورُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزَّهْرَةُ تَكُونُ أَبْهَى وَأَحَبَّ وَأَغْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزَّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَتَلَقَّى عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوءُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوئِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافِ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرَّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسِيفَةً خَائِبَةً وَبَائِرَةً مُتَوَارِيَةً، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ عَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضُمَّ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ حَيَوَانِيَّةٌ مَبْدُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى حَيَوَانِيَّةٍ بَازِلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٌ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُنْتَفِخَةٌ وَيَأْخُذُهَا جَبْرُوتٌ سَرِيعٌ، وَيَنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنْ أَلْصَقَ عَبْدٌ بِرَبِّ، وَلَمْ يَضُمَّ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجْدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَايُنٌ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِيَّةً، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ التَّهَابَةِ مِنْ فَمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَابَةً زَوَاجِ الْمَالِ اسْتِرْقَاقاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرِّيَاضُ التَّضَرُّةُ فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُنِجِبَةِ الطَّبَرِي، ج ٢، ص ١٨٢.

أَفْتِرَاساً فِي شُعُورِ الْقَلْبِ، وَتَكُونُ فِي شُعُورِ الْمُجْتَمَعِ آخِثِلَالاً فِي تَوَازُنِ الْأُسْرَةِ يُصِيبُهَا بِالْفَسَادِ، وَيَتَجَاوَزُ بِأَثَرِهِ إِلَى تَوَازُنِ الْجَمَاعَةِ فَتَخْتَلُّ وَتَضْطَرُّ. وَفِي كَلِمَتَيَّ: زَوَاجٍ وَقِرَانٍ رَائِحَةٌ هَذَا الْمَعْنَى، يَبْدُ أَنْ الْأُولَى قُصِدَ فِيهَا إِلَى الرُّوحِ وَأَحَاسِيسِهَا، وَالثَّانِيَةُ قُصِدَ فِيهَا إِلَى الْوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَآرْتِسَامَاتِهِ. فَزَوَاجُ الْمَالِ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَاهُ، وَإِنَّمَا فِيهِ مَعْنَى الْعَقْدِ الَّذِي هُوَ آخِثِيَالٌ بِقَانُونٍ.

وَالْأُنْثَى إِذَا لَمْ تُنَزَّ فِضَاءَ الرَّجُلِ النَّفْسِيِّ فَمَا تَزِيدُ عَنْ أَنَّهَا جَسَدٌ فَقَطْ. وَالرَّجُلُ إِذَا لَمْ يُنَزَّ فِضَاءَ الْمَرْأَةِ النَّفْسِيِّ فَمَا يَزِيدُ عَنْ أَنَّهُ جَسَدٌ فَقَطْ، وَالزَّوْاجُ فِي حِسِّ الرُّوحِ فَضِيلَةٌ تُكْمِلُ فَضِيلَةً، وَنُورٌ يَمُدُّهُ نُورٌ.

وَكَانَ مَعْنَى آخِثَارِ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِ النَّبِيِّ جَمْعُ كُلِّ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ، وَجَاءَ مَعَهُ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ بِكُلِّ مَا ثَبَتَ فِيهَا، لَنْ تَنْحَرِفَ عَنِ النَّبُوَّةِ الْجَدِيدَةِ بِكُلِّ مَا ثَبَتَ فِيهَا. فَكَانَتْ فَاطِمَةُ مِنْهُمَا بَيْنَ مَصْدَرِ إِشْرَاقِ النُّورِ وَمَجْلَى أَنْعِكَاسِهِ، وَمَوْجَاتُ الشُّعَاعِ تَمُورُ مُتَأَلِّقَةً فِي جَوْ نَفْسِهَا الْمُتَسَامِيَةِ أَبَدًا.

وَمَرَّ فِي نَجْوَى قَلْبِهَا: إِنَّ أَبِي يَقُولُ فِي تَعْبِيرٍ آخَرَ، ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ الْخَلْقِ فِي عَالَمِ الْإِبْدَاعِ الْإِلَهِيِّ بِمَظْهَرَيْنِ: مَظْهَرِ النَّبِيِّ الْكَامِلِ، وَمَظْهَرِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ يَكُونَ حَظِّي هَذَا الْإِنْسَانِ.

«وَأَمَرَ النَّبِيُّ أَنْ يُجَهَّزُوا فَاطِمَةَ فَحَمَلَ لَهَا سَرِيرًا مُشَرَّطًا بِالشُّرُطِ، وَقَالَ لَعَلِّي: إِذَا أَتَيْتُكَ فَلَا تُحَدِّثُ شَيْئًا حَتَّى آتِيكَ... فَجَاءَتْ مَعَ أُمِّ أَيْمَنَ حَتَّى قَعَدَتْ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ وَعَلَيَّ فِي جَانِبٍ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ:

— هَهُنَا أَخِي؟

قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: أَخُوكَ وَقَدْ زَوَّجْتَهُ أَبْنَتَكَ!

قَالَ: نَعَمْ...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا
فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرِقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَعْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَخَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:
- إِنِّي لَمْ آلُ أَنْ أُنِكَحَكَ أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ....

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أَخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتَ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهِ... فَدَعَا لِي دُعَاءَ أَنَّهُ لَا وَثُقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ
يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنَزِلُهُ^(٤).

*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مَوْهُومَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُؤَرِّخُهُ...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هِبَاتِهَا...

فِيَوْمِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أُثْبِتَتِ النُّبُوَّةُ مَعْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأُثْبِتَتِ النُّبُوَّةُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

(٤) راجع كتاب: الرِّيَاضُ النَّصْرَةُ، فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمَحَبِّ الطَّيْرِي، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيوم علي وفاطمة، بداءة حياة النبوة الخالدة في الدماء!...

*

كانت النبوة ستظل ذكرى فقط...

ولكن شاء الله أن تكون حياة أيضاً...

فيوم علي وفاطمة، إبقاء لحياة النبوة على الدهور!...

*

تضع الحقيقة الكبرى خصائص معناها في النواة، لأنها تريد البقاء...

والنواة لا تختلف في خصائصها إلا إذا كان لناموس الوراثة الطبيعي أن

يختلف...

فيوم علي وفاطمة، يوم بروز النواة عن مثل خصائصها في شكل آخر!...

*

تذهب النواة التي هي مخزون الخصائص، تيم دورتها وتغطي أشياءها...

والنبوة فكرة السماء المصلحة في محيط البشر...

فيوم علي وفاطمة، طبع لعقلية النبوة في عقل الناس!...

*

اجتمعت في علي قابليات لا حد لها...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حد لها...

فيوم علي وفاطمة، يوم نظر النبوة إلى نفسها في الميزة!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ (*)

جَمَدَتْ فِي مَاقِي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَزَى لَمْ يَكُنِ الْحُزْنُ كُلُّ مَعْنَاهَا، كَمَا لَمْ تَخُلُ مِنْ بَعْضِ مَعْنَاهُ، فَقَدْ اتَّصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَسْبَابُ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ اسْتَفَاقَ النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ^(١) عَلَى مَشْهَدِ الْبَطُولَةِ الْكَلِمَةِ الْجَرِيحَةِ.

وَجَرَّاحُ الْبَطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي النُّفُوسِ ضَعْفَ الْأَلَمِ بَلْ كِبَرِيَاءَهُ، وَلَا تُلْفُهَا بِذِلَّةِ التَّجَرُّبَةِ وَلَكِنْ بِتَجْدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أُمُورٍ الْحَيَسِ. فَإِنَّ الْأَلَمَ، مَعَ الْإِيمَانِ، ظُهُورٌ لِدَايَةِ الْوُجُودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الْأَلَمُ، مَعَ الْجُحُودِ، ظُهُوراً لِدَايَةِ الْعَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وإِنَّ الْأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدٍّ، وَتَحَدِّي الْقُوَّةِ مُبَالَغَةُ الْقُوَّةِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهَا وَمَعْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَغَةُ الضَّعْفِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ وَمَعْنَاهُ. وَتَزَارُ الْقُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زُبَيْرُ الْقُنْبُلَةِ إِذَا أَنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

(*) أُلْقِيَ هَذَا الْقَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةِ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الْوَسْطِ هَوَلِ مُنَاسَبَةِ حَفْلِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً عَلَيَّ وَعَلَى الدَّكْتُورِ عُمَرَ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أُلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرِيفَ الْحَفْلِ الدَّكْتُورُ جَمِيلُ عَرْدَاتِي أَسْتَاذُ الطَّبِّ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ.

(١) جَبَلٌ فِي الْحِجَازِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَعْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشَتَّى الْمُشْرِكُونَ كَمَعْرَكَةِ ثَارِيَّةٍ بِمَعْرَكَةِ بَذْرِ الْكُبْرَى، وَوَقَعَتِ الْوَارِثَةُ فِي صُغُوفِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَزَكَّوْا الْمَوَاقِعَ السَّنَاتِيَّةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ النَّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ الْمَعْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الظُّفْرِ أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوات الكامنة. وتُرعدُ إزعاد الأسد إذا خائنه الموقف، وهو يُعبّر عن أنه الأسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يُطلقها به. وتلك القوات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما يُحسنان به إحساس المادة الملتهبة بالنار، لا تميلُ بها إلى ضمور القدم بل إلى كبرياء الوجود، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف، وضموت طامس، بل إلى اعتداد رهيب ورّد مضم، ويكون الكسر، أو الجرح، قد أضاف إلى معناها معنىً جديداً، أو سمح لكل طبائعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقض ظمئة، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يئرز ويئدو في أنعس أشكال العبوديات الدليّة^(٢) مهانة وخوراً.

والإيمان قوة تصنع البطولات المستهينة. ويوم أحد يوم أصيبت البطولة فيه، فكان آتداء إحساسها بالألم آتداء شموخها الداهب في السماء والمتحدب مع الآفاق... والدماء الصبيّة لا تلهيهم الأبطال روعة الدّم الراهبة بل رجفة الدّم النابضة، ولا تثر بهم إلا وقد استحالوا قوى مُرعدة مُنقضة في مسافات أشواطها، لا يحول دونها إلا ما قدير له أن لا يكون.

والألم للإيمان كالحركة للحياة، يُمرّيان الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضمور، يحور الإيمان بدون الألم في تلاش، ويأخذهُ همودٌ سحيق. والإيمان قوة، ولكن سرعان ما تتقلل حرارته في أعماق النفس، إذا لم يُركّزها الألم ويُقرّبها من عمليّة الحياة.

وإن حركات التاريخ، برمتيه، تقع بين جواذب الألم ودوافيعه، بل خطى

(٢) العبوديات الدليّة هي عبوديّة الإنسان للإنسان على أشكالها. وأما العبوديّة لله التي جاءت بها الأديان فإنها تحريرٌ لنفس الإنسان من ستنّ العبوديات، وإشعارها بكبرياء الذات.

النُشوءُ للكلِّ الاجتماعيِّ تَنَتَّظُمُ بينَ هذا الدَّفْعِ وهذا الجَذْبِ، وكانتْ أَكْبَرُ الحَرَكَاتِ لا تَزِيدُ، في جَوْهَرِها، عَن أَنَّها إِيمانٌ بِفِكرَةٍ وأَلَمٍ في الإِيمانِ، وأَبْدأُ لا يَشْتَدُّ الإِيمانُ وَيَخْطُو صُغْداً إِلاَّ إِذا قَدَحَ الأَلَمُ زِنادَهُ، وطائِرَ بالشَّرِّ. وفي مُحيطِ المادَّةِ، في مُحيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ التَّامُوسِ، فَإِنَّ الجِسمَ المادِّيَّ الضَّعيفَ يَلِينُ على الأَلَمِ، بينما الجِسمُ القَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْيِجُ حَتَّى يَمَلَأَ الفَضاءَ، مُشيراً إلى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهُنْ.

فإِذا كانَ في يَوْمٍ بَدُرَ بَعْضُ الظُّفْرِ، ففي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الظُّفْرِ لَأَنَّ الإِيمانَ أَحَسَّ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدأُ يَخْطُو في ذاتِيَّةٍ وَاعْتِدَادٍ.

إِنْدَفَعَ النَّاسُ إلى النَّاسِ «يُهَنِّئُ بَعْضُهُم بَعْضاً» بأنَّهَمُ، وَإِنْ خَسِرُوا المَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبِحُوا الإِيمانَ بالمَبادِيءِ، وَرَبِحُوا العَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلامَتُها، وَأَنَّها رِباطٌ تَسَنَّى لَه أَنْ يَجْمَعَ قَلْباً إلى قَلْبٍ وَيَمزُجَ نَفْساً بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ على الضَّغْطِ، مَهْمَا كانَ عُنفوانُهُ، وَمَهْمَا جاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنَّهَم لا تَجْمَعُهُمْ جَمِيعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الأَرْضِ بَما آكُتْظَتْ بِهِ مِنْ أَهْواءٍ، وَآخُتْفَلَتْ بِهِ مِنْ مَطامِعٍ، وَإِنَّمَا تَجْمَعُهُمْ جَمِيعَةٌ مِنْ رَغَباتِ السَّماءِ، وَرَغْبَةُ السَّماءِ في تَطْهيرِ ما على الأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجاسٍ تَمُورُ مَوَرائِها، وَتَسوقُ الجُمُوعَ الإنْسانِيَّةَ بَعْنَفٍ وَقَسِرٍ إلى حَيْثُ لا تَكُونُ إنْسانِيَّتُها، وَتَخْسرُ مَعْناها... وَكانَتْ مَعْرَكَةُ أُحْدِ جَربَةً سَعِيدَةً لاختِبارِ بِنائِهِ مُحَمَّدٍ الجَدِيدَةِ في أَعْماقِ النُّفُوسِ، فَقَدْ ثَبَّتَتْ على العاصِفَةِ الَّتِي تَمزَّقَتْ رِياحُها على صَخَراتِ الإِيمانِ الشَّامِخِ.

ما الشَّهَوَاتُ النُّهْمَةُ؟

ما اللَّذائِدُ الدُّنْيا؟

ما البَلَهْنِيَّةُ والتَّرفُ؟

إنَّها لا شيء في مذهب رَغْبَاتِهِمِ الكبيرة، إنَّها لا تَمُرُّ بأفْعِدَتِهِمِ التي بَلَوَرها السُّمُّو بِمَعْنَاهُ الْقُدْسِي، وحاطها حتى لا تَهْوِي مُسِفَّةً، وتَزْتِطِمُ بالأَوْحَالِ، إنَّها أَوْحَالٌ من سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فهم يَنْظُرُونَ إليها بِتَقَرُّزٍ وَاسْتِعْلَاءٍ.

هم فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وفِكْرَةٌ مِنَ الإِصْلَاحِ والعُمُرَانِ، وصَيَّرَهُمُ الْجِهَادُ فِكْرَةً مِنَ التَّنْظِيمِ، فكانوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُمُ الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيُحَلُّوا فِي عَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ، كما يَحُلُّ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، ويُلْوَدُ الْحَرَارَةَ وَالْحَرَكَةَ وَالْحَيَاةَ.

لم يَكُنْ فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى مَحَلِّ الضَّمَائِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ تَمَلَّؤُوا بِضَرَاوَةِ وَخَشْيَةِ كَالِحِيَّةٍ، وَذَهَبَ كُلُّ حَيٍّ يُكَافِحُ التَّيَّارَ، وَالْمُجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرْسُبُ فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ النَّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرُ دَائِمًا لَتَحَوَّلَ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ جِهَادَ إِيْمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرٌ لِفِكْرَةِ الْإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا، ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزَةِ الْوَاقِعِ، وَهَذَا فِي التَّرْكِيزِ وَحَيِّزَةِ النَّفْسِ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنََّّهُمْ مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، آسَتْهُوَتْهُمْ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَحَاسِيسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ يَنَابِيعٌ، فَهَمَّ لَا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا بِالْغَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْغَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيْمَانٌ بَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْئًا خَالِدًا فِي شُعُورِ النَّفْسِ.

«أَذِّنْ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةً مُنْصَرِفِهِ مِنْ أُحُدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مَنْ حَضَرَ مَعْرَكَةَ الْأَمْسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوْتُنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟...
وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةً نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُرْحًا مِنْهُ،
فكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةٌ، حَتَّى آتَيْنَاهَا إِلَى مَا آتَاهَا إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.
وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَاهَا إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ
بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ»^(٣).

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ
وَالاسْتِخْدَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ آتِدْفَاعًا، فَقَدْ أَحْسَسَتْ الْقُوَّةُ
بِاعْتِدَادِيَّتِهَا، وَغَمَرَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبَرِيَاءِ لِأَنَّهُمْ تَحَدَّوْهَا وَاسْتَارَوْهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا
اسْتَشِيرَتْ، تَنْتَشِرُ طَاقَاتٍ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَسُدَّ الْآفَاقَ وَتَمْلَأَ أَقْطَارَ
الْقَضَاءِ، كَمَا دَدَةُ الْفَحْمِ فِيهَا مَخْزُونٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَغْلُقُ بِهَا شَرَارَةً وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُوجِّجَ
بِالشَّرَرِ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحَدِّيِّ وَانْتِظَارِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِيخَةٌ
بِمَعْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّقَةُ مُتَسَاقِطَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ
شَامِيخَةٌ بِخَيَالِ الْمَعْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَغْتَرُّ بِهِ قَدَمُهُ فَيَتَهَوَّى إِلَى
خَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِالْإِزْتِيَاكِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحِسُّ أَبَدًا
بِفَخَارِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالَ الْإِبْجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالَ
الرَّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُحَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَعْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَعْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَسْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في حفير فينسى الألم، ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيعيد التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حيّ بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يسقط في حفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو ييأس في إحساس أنه مضغّة بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومرّ على مسرح أحد صورّة هذين الرجلين:

«أرسل النبيّ من يتحثّ عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجدّه جريحاً وبه رمق في القتلى.

فقال له: إنّ رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقُلْ له إنّ سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جرى نبياً عن أمّته. وأبلغ قومك عني السلام، وقُلْ لهم: إنّ سعداً يقول: ألا إنّّه لا عُذر لكم عند الله إنّ خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف»^(٤).

كلمات كلّها يقينٌ وأطمئنانٌ ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يُحس أنّها كبيرة خالدة.

«قاتل قُزَمان قتالاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة. فأختمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبليت اليوم يا قُزَمان فأبشّر.

قال: بماذا أبشّر، فوالله إنّ قاتلتُ إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه»^(٥).

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التاريخُ من دونيهما سِتَارَهُ وأَعْلَنَ هذهَ الحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُما دونَ
فِكْرَةِ العَقِيدَةِ فَكَانَ بَطْلاً وَتَلَفَّعَ بالخُلُودِ؛ وَقَضَى ثانيَهُما دونَ فِكْرَةِ الأُخْقَادِ وَنَزَغَاتِ
الأَعْصَابِ فَانْحَلَّ بِأَنْجِلَالِهَا، وَتَلَفَّعَ بِالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ فِي حَمْرَاءِ الأَسَدِ وَقَفَّةَ الأَسَدِ فِي وَثْبَتِهِ الحَمْرَاءِ،
وَتَحَدَّى طَوِيلًا، وَرَجَّعَ الفَضَاءَ دَوِيَّةَ الرَّهِيْبِ، وَصَمَتَ كُلُّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ الصَّدَى
يُعْلِنُ غَلَبَةَ الإنسانِ الجَدِيدِ.

لَقَّتِ المَدِينَةَ أَيَّامٌ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ سَوَادِ الأَسَى أَثَرٌ كَبِيرٌ، وَهِيَ إِلَى أَنَّهَا أَيَّامٌ
تَأْيِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى أَنَّهَا أَيَّامٌ أَحْزَانٍ وَدُمُوعٍ، عَلَى أَنَّ مِنَ الحُزْنِ مَا هُوَ بِهِيْجٌ وَلَيْدٌ
شُعُورٍ بِالْإِعْجَابِ، وَمِنْ الدَّمْعِ مَا هُوَ ضَاحِكٌ وَلَيْدٌ شُعُورٍ بِالْأَمَلِ.

حِينَ شَاعَ الإِيمَانُ، بِمَعْنَاهِ الهِيَامِيُّ فِي النَّاسِ، شَاعَتِ البَطُولَةُ بِمَعْنَاهَا الرَّائِعُ فِي
الرُّجَالِ والنِّسَاءِ جَمِيعًا، وَأَعْطَوْا صُورًا خَالِدَةً تُضَافُ إِلَى أَشْيَاءِ التَّارِيخِ الكَبِيرَةِ.
فَكَانَ لَنَا مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، أَبْطَالٌ فِي شَخْصِ الشُّهَدَاءِ كَحَمْزَةٍ، وَأَبْطَالٌ فِي شَخْصِ
الأَحْيَاءِ كَعَلِيِّ، وَأَبْطَالٌ فِي شَخْصِ النِّسَاءِ كَنُسَيْبَةَ المَازِنِيَّةِ^(٦)، حَتَّى الطِّفْلَةُ^(٧) لَمْ
يَقُتْهَا نَصِيبٌ مِنَ البَطُولَةِ...

فِي ظِلَالِ التَّخِيلِ الَّتِي بَدَتْ وَاجِمَةً فِي إِطْرَاقَةِ الحَالِمِ، كَانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ عَلَى خَدَّيْ حَسَّانٍ بِنِ ثَابِتٍ عِبْرَاتُ الإِعْجَابِ الَّذِي آتَّصَلَ

(٦) كَانَ مِنْ قِصَّتِهَا أَنَّهَا خَرَجَتْ، فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَمَعَهَا سِقَاءٌ تَشْقِي مِنْهُ الجُرْحَى والزَّيْجَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا
مَبَتْ عَلَيْهِمْ أَنَحَازَتْ إِلَى النَّبِيِّ، وَبَاشَرَتْ الْقِتَالَ عَنْهُ تَذُبُّ بِالسَّيْفِ وَتَزْمِي عَنِ الْقَوْسِ، حَتَّى حَصَلَتْ الجِرَاحَةُ
لَهَا، وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ: «مَا آتَفْتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا يَوْمَ أُحُدٍ إِلَّا وَرَأَيْتُهَا تُقَاتِلُ دُونِي، رَاجِعْ: السِّيرَةُ الحَلِيبِيَّةُ،
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قُتِلَ سَمُرَةُ بِنْتُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّه النَّبِيُّ يَوْمَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّهِ، وَأَجَازَ رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، قَالَ لِرَّوْجِ أُمِّهِ: أَجَازَ
النَّبِيُّ رَافِعًا وَأَنَا أَصْرَعُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ: تَصَارَعَا فَصَرَعَهُ، فَأَجَازَهُ وَضَمَّهُ إِلَى الجَيْشِ. رَاجِعْ: السِّيرَةُ الحَلِيبِيَّةُ، ج ٢،
ص ٢٢٠.

بعاطفة مُلتاعةٍ مخزونة، وكانت نفسه مُكتظةً بمشاعرٍ شتى، آكتِظاظَ اليومِ الغابرِ
بالروائعِ الخالدة، ومَرَّتْ به نسماتٌ أجاشت عليه شاعريته، فأطلقها على هيئتها في
كُلِّ مجالٍ.

لقد كان هذا اليومُ مادةَ الملحمةِ العربيّةِ المفقودة، لو تأتّى لشاعرٍ خالِدٍ أن
يَسْتَلْهِمَهُ، ويُبْرِزَ ما قد طفا على سطحه من روائع، ينقلها نقلاً أميناً لا تقلُّ عن روعةٍ
واقعيها. فإنَّ ملحمةً تكونُ مادتها هذا اليومُ تظلُّ، بدونِ ريبٍ، أداةً بعثت في كُلِّ يومٍ
من أيامِ العربِ والمُسلمين، وتتجددُ كلما جدَّدَ العربُ والمُسلمونَ حركاتِ الانبعاثِ
وعزِّمةِ النهوضِ، وكان أبرزَ ما تركتْ معركةُ أُحُدٍ هذه الحقائقُ:

إنَّ نجاحَ الأعصابِ في الكِفاحِ على مقدارِ نجاحِ الإيمانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وإنَّ
قيمةَ الكِفاحِ على مقدارِ قيمةِ الفِكرةِ التي يحتدُّ من أجلِ تركيزِها، وإنَّ الكِفاحَ
الظَّافِرَ لا يكونُ إلا حيثُ تكونُ العقيدةُ الصَّليبةُ، وإذا لم يكنِ الإيمانُ فلا يزيدُ
الكِفاحُ عن أنَّه فورةٌ مُتراجعةٌ، وحركةٌ مُحْتَضِرةٌ، ولا يزيدُ هذا البعثُ عن أنَّه بعثُ
فيه بُرودةُ الموتِ ومغزى الانحلالِ.

وطلَّعَ عليه، وهو في لَذَّةِ إنشائه وإنشاده، الحجاجُ بنُ علاطٍ السَّلَميُّ، وكان
شاعراً مَفْتُوناً الشَّاعريَّةَ بِطُولَةِ عليٍّ يومَ أُحُدٍ، فراح يفتنُّ بألوانها ويتغنَّى بآياتها.
فأوسَّعَ له حَسَنانٌ في مجلسه، وقال:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ، وَأَحْسَبُ مَا يُقَالُ، مِنْ أَنَّ فِي قُلُوبِ الْأَخْلَاءِ
آذَاناً تَتَّصِلُ بِكُلِّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ رَغَبَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَتُحِسُّ بِهَا لَحِينَهَا، حَقِيقِيّاً
جِداً.

فقال السَّلَميُّ في دُعَايَةِ مُفْتَرَّةٍ: ولا سيِّما إذا كان الأمرُ بينَ شاعرينِ
شَيْطَانَاهُمَا الْمَعْيَانِ.

فلم يبدُ على حَسَنانٍ ما كانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعَايَةِ الْعَارِضَةِ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ إِطْرَاقُ

خاشع، حتى لقد أَحَسَّ السَّلَمِيُّ أَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ الْمَجْلِسَ وَالْحَدِيثَ.
فَقَالَ لَهُ: مَا بَكَ؟ أَرَاكَ كَالْمَأْخُوذِ عَنْ نَفْسِهِ!

قَالَ حَسَّانٌ: تَعَاظَمَنِي يَوْمَ أُحْدِ بَتَهَاوِيلِهِ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ شَاعِرِيَّتِي بِبَغْضِ
مَا جَمَعَ، وَأَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ إِلْهَامٌ مِنَ الْإِلْهَامِ، وَلَيْسَ شِعْراً مِنَ الشُّعْرِ. أَمَّا بَلَّغَكَ
نَبَأُ مُخَيَّرِيقٍ؟

قَالَ السَّلَمِيُّ: أَنْبَأْ إِسْلَامِيهِ الَّذِي فَاجَأَ بِهِ مُنْذُ حِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ؟
قَالَ حَسَّانٌ: كَلَّا، وَلَكِنْ نَبَأُ اسْتِشْهَادِهِ الرَّائِعِ الَّذِي جَعَلَ نَفْسِي، وَكُلَّ
نَفْسٍ، تَذْهَبُ فِي الدَّهْشَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ.
قَالَ السَّلَمِيُّ: مَاذَا تَقُولُ؟!

قَالَ حَسَّانٌ: نَعَمْ! إِنَّهُ اسْتَبَسَلَ دُونَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي عَهَدَهَا جَدِيدَةً فِي قَلْبِهِ،
اسْتِشْهَادَ مَنْ يُرِيدُ الْمَوْتَ أَوْ الْحَيَاةَ فِي دُنْيَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ.

قَالَ السَّلَمِيُّ: عَجِيبٌ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ. وَعَجِيبٌ إِيْمَانُكَ الَّذِي يَقْتُلُغُ رَسِيسَ
النَّفْسِ، بَلِ النَّفْسِ، مِنْ أَقْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا حَتَّى لَا يُحِسَّ الْمَرْءُ بِشَيْءٍ وَرَاءَ مَعْنَاهِ.
وَنَهَضَ الرَّجُلَانِ فِي اسْتِغْرَاقِ الشَّاعِرِ حَتَّى أَفْضَا إِلَى الْحَيِّ، وَمَا أَنْتَبَهَا إِلَّا
عَلَى حَدِيثِ النَّاسِ «إِنَّ النَّبِيَّ لَمَّا آتَاهُ إِلَى أَهْلِهِ نَاوَلَ سَيْفَهُ آتِنْتَهُ، فَقَالَ: آغْسِلِي عَنْ
هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ... وَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ، فَقَالَ:
وَهَذَا أَيْضاً فَآغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَ الْيَوْمَ رَسُولَ اللَّهِ... فَقَالَ النَّبِيُّ:
وَصَدَقَ الْيَوْمَ الْقِتَالُ سَهْلُ بْنُ حَنْظَلٍ وَأَبُو دُجَانَةَ».

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَمُرُّ بِهَا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَهِيَ بِمَزَأَى وَمَسْمَعٍ، وَفِي أَحْشَائِهَا^(٨)

(٨) لَا يُظَنُّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَدْخُلُ فِي حَدِّ الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَثْبُتُ عَلَى الْبَحْثِ الْجَدِيدِ،
فَقَدْ قَرَّرَ الْعُلَمَاءُ وَرِاثَةَ الْجَبِينِ لِكُلِّ مَا يَخْتَلِفُ وَيَتَرَاوَحُ عَلَى الْأُمِّ فِي دَوْرِ الْحَمْلِ مِنْ تَأَثُّرَاتٍ وَمَشَاعِرٍ
وَإِحْسَاسَاتٍ.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أَمْشَاجُهَا، فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ عَنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْبَرَ عَنَاصِرِهَا، غُنْصُرُ
التَّضَحِّيَةِ الدَّامِيَةِ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدِّمَاءِ وَقَدْ ضَمَّتْ سِيفاً إِلَى سِيفٍ، أَيْ^(٩) قُوَّةً إِلَى
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السَّيْفَ رَمْزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيْفَ الْعَقِيدَةِ مُصَلَّتٌ فِي
مَدَى سَيْفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَنْتَهُمَا مَعاً يَنْجَحَانِ جَمِيعاً. فَأَحَدُهُمَا سَيْفُ الْمَبَادِيءِ، وَفِعْلُهُ
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سَيْفُ الْعَقِيدَةِ، وَفِعْلُهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ
الظَّافِرَةُ، فَكُلُّ مَنَّهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخَرِ، وَهُمَا جَمِيعاً فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ
خَلْقُهَا أَوْ بَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالْتَّبَيُّ حِينَمَا خَلَقَ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ،
حِينَمَا نُرِيدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

ضَمَّتْ فَاطِمَةُ سِيفاً إِلَى سَيْفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضَحِّيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِصْلَاحِ النَّبِيِّ سَيْفَهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ
يَتَّبَعِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَنَحْنُ نُجِلُّ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَنُجِلُّ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَآسِيسَاتِهِ
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالاً غَيْرَ مَحْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءِ
جِسْمِهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَاداً وَتَضَحِّيَةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُنْقِذُ الْمُجْتَمَعَ، بَلْ
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئاً نَبِيلاً إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى أَمْتِيَارٍ مُلْهِمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

(٩) إِنَّ السَّيْفَ فِي كَلَامِنَا رَمْزِيٌّ بَحْثٌ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسَيْفُ النَّبِيِّ رَمْزٌ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسَيْفُ عَلِيٍّ رَمْزٌ
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السَّيْفِ، الْآلَةِ الْمَحْدَدَةِ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدَبِيَّةَ. هَذَا التَّنْبِيهُ لِكِي
لَا يَتَوَهَّمُ السُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السَّيْفُ، وَإِنَّا نُهَيِّبُ بِالنَّاسِ إِلَى نَهْضَةِ السَّيْفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك»...
والوزر في الآية بمعنى الثقل، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة.
وكان وضع الثقل عنه إعلاناً بأن إنسانية محمد أخذت طريق نجاحها،
وقامت على قاعدتها، ونفت مرارة الدواء ألم الداء المصمت الجهد...
بعد حين، تراءى أحد للنبي من بعيد، فأثار فيه ذكريات غدبة بأشائها
الكبيرة، وأطياها اللامعة الرائعة...

وكانت هذه الذكريات قد استحالت إلى حنين فحُب، جعله رمزاً من
رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشعراء...
فقال النبي يُكرِّمُهُ «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، يُحِبُّنَا لَأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ
اسْتِيسَالِنَا وَتَبَاتِنَا، وَنُحِبُّهُ لَأَنَّهُ رَمَزَ هَذَا الاسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّبَاتِ...
وكان النبي «دشن» بهذا المقال في أحد تمثال الإيمان الشامخ...

*

كان يوم أحد يوم الشهداء...
والشهيد، في سبيل أمة، ذكرى حية في ضميرها، ومادة هامة في كبرياء
مجدها...
فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة، ولذلك أحبه النبي، ونحن نُحِبُّهُ وَلَا
نُنْسِي عِظَتَهُ النَّاطِقَةَ فِي الضَّمِيرِ!...
إستحال يوم أحد إلى ذكرى من الروائع...
وآستحالت الذكرى إلى حُب وهيام بالأمجاد، ما دام على الأرض عرب أو
مُسْلِمُونَ...

وأبرز الغيب، بعد ذلك، روحاً جديدةً، جمعت طائفة هذه المعاني وسماها
النبي حسيناً...

ودار الزمن دورة قصيرة، وثار الحسين وصوت الحق يدوي في صوته
المرسل...

وانطلق الناس يقول بعضهم لبعض:
تحرك اليوم أحد مرة أخرى، وثار بركان الإصلاح يُزلزل بالحيم!...

* * *

يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَكُنَّ يُلِمُّنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتِ
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ أَخَذَتْ
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَدُو مِنْ حَرَكَاتٍ شَاءَهَا الظُّرْفُ وَالْبِشْرُ، وَشَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَذَرِ، حَتَّى لَيْخَيْلٌ لِلنَّظِيرِ أَنَّهُنَّ دُمِيَ مُجَنِّحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيِّمُونَةُ أَحْتُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَخُذَهَا تُرَى غَادِيَّةٌ رَائِحَةٌ، وَمَرَّ خَاطِرُ
أَنكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَاءَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتْظُ بِالْمُجَنِّحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي
صُورِهَا مَلَائِكُ فِي فَرْحَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعَدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ أَنْفَصَلَتْ فَوْقَ
حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى
خُيُوطِ النَّوْرِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا
أَحَسَّتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلُمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحِسِّ
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَغَرْدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوءَةً نَاعِمَةً:

فَقَدْ أَسْلَمْتُ فَاطِمَةً وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أدري. أَحَسْبُنِي
في مَعْرِضِ الْعَجَائِبِ. أَحَسْبُنِي فِي غُرْسِ الْأَمْلاكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَّى،
وهو يَعِيشُ فِي أَقْلَهَا تَطَرِيَةً، أو يَجْعَلُهَا وَاقِعَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَقْلَ تَطَرِيَةً وَبَهْجَاتٍ.
هُنَاكَ فِي غَيْرِ وَاقِعِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتِ
مَعَانِيهَا لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِنَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْعُ
الوَاقِعَ الْجَامِدُ، وَيَبْقَى كُلُّ النَّفْسِ ظَامِئًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لِأَلْمُسَةِ. نَعَمْ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ
الآنَ، وَالآنَ فَقَطْ، سِرَّ النُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهُيَامِ فِي الْفِكْرِ
وَالْفَنِّ والأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلَيْتَنِي أَظَلُّ حَالِمَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي
كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِخَةِ، وَضَاعَ وَقَعُ خُطَاهَا فِي
الرَّزْنِ الضَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَخَفَقَةِ الضُّوءِ، وَبَهِيًّا كَقَطْرَةِ النَّدى وَقَدْ تَحَاضَّتْهَا أَكْمَامُ الزَّهْرِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي جَوْ أَحْلَامٍ ذَابَتْ فِيهِ النَّسَوَاتُ، وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِدهُ أَيْدِي
النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزُبَقَةِ الْغُورِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيهَا
الشَّمْسُ ذِكْرَهَا السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءَ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ
الْجَمَالَ أَخْتَصِرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمُفْرَقَ جُمِعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ،
هَالَةً مُشِعَّةً، فِيهَا جَلَالُ النُّبُوَّةِ وَجَمَالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ
أَطْلَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِهِم، وَغَمَرَتِ الأَثِيرَ مَوْجَةُ بِشْرِ ظَاهِرَةٍ خَفَقَ لَهَا
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَذِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الجُمُوعِ كَمَا تَبْرُزُ المَنَارَةُ وَسَطَ الضُّبَابِ، هَادِيَةً
بُشَاعَتِهَا المُسْتَطِيلَةَ فِي آنِبَاقٍ وَتَدْفُيقٍ، وَأَخَذَ وَلِيدُهُ السَّنِّي يَدَيْنِ كَانَتْ حَرَكَاتُ
أَنَامِلِهِمَا تُعَبِّرُ عَنْ فَرْطِ الشُّرُورِ، وَحَنَا عَلَيْهِ حُنُوءُ المُرْضِعِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةَ
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وِغَامٍ عَلَى مَيِّمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتِ اليَوْمَ فِي حَسَاسِيَّةٍ جِدًّا نَافِذَةً. وَشَعَرَتْ حِيَالُ
هَذَا المَشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بَنَزَعَاتِهِمْ هُمْ ضَبَابُ الحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطْبِقًا دَاكِئًا،
حَتَّى لَتَبْدُو الحَيَاةَ نَفْسَهَا كُرَّةً مِنَ الضُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْصَارِ هَادِرَةً بِمَا
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فُتُبْخُرُ مَا آسَتَوَى فِيهَا وَتَرَكَبَ
عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَغْدُو مُزْدَهِيَّةً مُتَأَلِّقَةً، وَيَحْشَعُ الإِنْسَانُ
عِنْدَهَا فِي مِخْرَابِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَفَضَ غُبَارَ البَيْدَاءِ، وَآسْتَعْلَى
عَلَى السَّرَابِ.

أَف... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الحَيَاةَ ضَبَابٌ مُنْتَشِرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الوجودِ، وَالإِنْسَانُ
يَطْفُو وَيَرُشُّبُ مُغَمَّضَ العَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي
تَعْمُرُنَا بِشُعَاعِهَا، إِنَّ صُورَةَ الحَيَاةِ فِي خَيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خَيَالِ
الأَعْمَى مَلِئَةٌ بِالرَّمَادِ أَوْ الضُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الحَيَاةُ كَمَا تَنعَكِسُ فِي مَرَاثِيهِمِ
الْمُتَحَجِّبَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ التَّبَوُّةِ، وَفِيهَا المَعْنَى الأَتَمَّ المُشْرِقُ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ، لَمْ تَسْطِعْ
فِي سَمَاوَةِ فُضَائِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، أَجِدُ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ العَارِيَّةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ التَّبَوُّةِ وَشُعَاعَتِهَا
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ
نَمِيرٌ وَتَمَدُّ فَوَازٍ فِي صُلْبِ الإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا المُنْصَبَّةِ إِلَى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجدُ الظَّماءُ ما يُبْرِدُ حرارةَ عُقولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، يجدونَ التَّبَوُّعَ الَّذِي
حَجَبَهُمْ عَنْهُ سَرَابُ الْفِكْرِ الْمَدْحُول... .

قالَ قَائِلٌ فِي الظُّلَامِ - وَالنَّاسُ يَخْرُجُ أَحَدُهُمْ فِي إِثْرِ الْآخَرِ - إِيَّاهُ أَبُو رَافِعٍ...
وَرَبَّتْ عَلَى كَيْفِهِ: أَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ الْيَوْمِ، النَّبِيُّ يُسِرُّ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ
شَيْئاً!...

قالَ أَبُو رَافِعٍ: نَعَمْ. إِنَّهُ «أَذَّنَ فِي أُذُنِهِ كَمَا يُؤَذَّنُ لِلصَّلَاةِ».

قالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَتَرَى أَنَّ لَهُ نَفْساً مُدْرِكَةً تَعِي مَا يُقَالُ لَهَا وَمَا تُخَاطَبُ

بِهِ؟

قالَ أَبُو رَافِعٍ: نَعَمْ. وَمَاذَا تَظُنُّ أَنْتَ؟ لَعَلَّكَ أَنْصَرَفْتَ بِظَنِّكَ إِلَى أَنَّ نَفْسَ
الْوَلِيدِ خَلَاءٌ مِنَ الْقُوَى، إِنْ كَانَ ذَاكَ فَبَعْدَ مَا تَظُنُّ. إِنَّهَا وَاعِيَةٌ كَأَنَّكُمْ مَا تَكُونُ نَفْسٌ
مِنَ الْوَعْيِ، وَلَكِنَّهَا غَائِمَةٌ بِمَا فِي التَّرَكِيبِ الْعُضُويِّ مِنَ الْوَهْنِ وَضَعْفِ الْحَسَاسِيَّةِ.

وَالنَّبِيُّ تَوَجَّهَ إِلَى هَذَا الْوَعْيِ وَهُوَ فِي أَكْثَامِهِ لِيَضَعَ فِيهِ شَيْئاً خَالِداً، لِيَضَعَ فِيهِ
كَلِمَةَ اللَّهِ، فَلَا يَحُولُ عَنْهَا وَلَا يَزُولُ مَهْمَا أَضْطَرَّتْ عَلَيْهِ بَوَاعِثُ الشَّبَابِ،
وَأَضْطَرَمَّتْ فِيهِ نَزَوَاتُهُ، لِأَنَّهَا سَوْفَ تَأْسِرُهُ بِحَنِينِ الرَّجْعِ الْبَعِيدِ.

إِنَّهُ وَضَعَ، فِي آخِرِ مَرْحَلَةِ التَّخَلُّقِ وَأَوَّلِ مَرْحَلَةِ التَّفْتِيحِ وَالْإزْدِهَارِ، عَبَقَ الْمُثَلِّ
الْإِلَهِيَّةِ، عَبَقَ الْحَقِيقَةِ الْمُطْلَقَةِ، الَّذِي يَنْفُخُ وَلَا يَنْقَطِعُ، الَّذِي يَفِيضُ وَلَا يَغِيضُ... تَمُرُّ
بِهِ الْأَهْوِيَّةُ الْهَادِرَةُ الْهَابَّةُ فَلَا تُغَيِّرُ فِيهِ وَإِنَّمَا يُغَيِّرُ فِيهَا، بِمَا يُحْمَلُهَا مِنْ أَرْجِحِ الْفَوَاحِ،
فَتَغْدُو وَقَدْ فَقَدَتْ مَا تُنْذِرُ بِهِ بِمَا تُبَشِّرُ، إِنَّهَا حَمَلَتْ رُوحَ الزَّهْرَةِ فِي الْحَقْلِ...

إِنَّ النَّبِيَّ، لَنَا الْيَوْمَ، زَهْرَةُ الْحَقْلِ، وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ فِي أَحْشَاءِ الزَّمَنِ بِزَهْرَةِ حَقْلِ
الْمُسْتَقْبَلِ، فَعَسَى أَنْ يَتْرُكَهَا الْإِنْسَانُ تُضْمَخُ فُضَاءَ الْغُورِ فِي عَيْنِ الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ،
وَلَا تَلْتَفُّ عَلَيْهَا أَفْعَى الشَّهَوَاتِ فَتَقْضُمُهَا، إِنِّي لَحَذِرٌ، إِنِّي... تَلْعَثُ، وَوَضَعَ يَدَهُ

على قلبه مخافة الشقوط، وأغمض عينيهِ في خيالٍ رهيب.

وكان أبو رافع مولىً للنبي، فلم يُطق ما مرَّ بخياله، وتحامل على صاحبه مدةً ظلَّ فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبتِهِ أصواتٌ مُتَقَطِّعةٌ للذئاب.

وشمل الرجل تياراً أبي رافع فاشتغرك في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطواتٍ تُعبِّرُ عن أنها ذاهلةٌ لا تقصدُ إلى شيءٍ ولا تتصلُّ بما تنتهي إليه. وما استفاقا إلا على صوتِ الإنسان في الغلس يُنادي بكلمةِ الله الأزواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوتُ بسكون الليل فعبر عن أنه قال كلمته، واستحال صدىً فيه شروء السكون.

خفَّ الناس من كلِّ مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيثُ يمتزجون بالجهول، إلى حيثُ يصححون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيثُ يجددون عقودهم مع الله على الخير والحب والمثل، بجعلها مبدأً لعملٍ وواقع حياة... مدَّ الرجل خطاه وهبَّ يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاةٍ منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصل صلاةً بصلاة^(١).

(١) لا ريب في أن الصلاة عقد (كونترا)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادلي. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتكشف لنا سرُّ تكرار الصلاة اليومية، على الشكل المعروف في الإسلام، وجعلها لياليةً ونهاريةً. وهذا السرُّ هو تجديد العقد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تمرَّ بالمزء ساعات فتورٍ واسترخاءٍ يُجلُّ فيها بأحكام العقد، فيظلُّ بذلك دائماً طرماً في عقدٍ جديد. وكما هو معروف على البحث أن الضمير والوجدان والعقائد تتولد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أصحُّ طريقة وأسلوب، وأصحُّ شكل وصيغة لما يُسميه ساندرسون، أحد علماء النفس التطبيقي، متعبدة الرؤيا، هذا المتعبد الذي يتأمل فيه المرء منفرداً، ويخشع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنه لا صلاح للفرد، وبالتالي للجماعة، إلا بمتعبدة الرؤيا، أو ساعة التأمل اليومية، وقد صيغتها الإسلام على شكل مذهب من التكرار في صخب النهار وفي هدوء الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار ينتزع الإنسان أنزعاً ليغرقه في التأمل والإشراق ولو للخطاب.

قال أبو رافع: نعم. ولكن رُوِيَكَ، فإن النبي رأى جماعةً تراكضُ إلى الصلاة، فقال: «لِيَأْتِ أَحَدُكُمْ الصَّلَاةَ هَوْنًا». وهو يُشيرُ بهذا إلى أن الصلاة لا تكونُ واعيةً إلا إذا تَلَبَّستُ فِكْرَ فاعِلِها ونَفْسَه، فهي ليستُ عَمَلًا خالصًا بل فِكْرًا في العَمَلِ، وبذلك يكونُ لها عَمَلٌ في الفِكْرِ، والإعْجالُ يُضِيعُ على الفِكْرِ أَطْرَادَهُ وأنسِجامَهُ. والنبيُّ يُريدُنا أن نَبْدَأَها صَلَاةً بالفِكْرِ، صَلَاةً بالروحِ، وإلا فهي صَلَاةٌ شاردةٌ غَيْرُ واعيةٍ، لروحٍ أَكْثَرَ إِمْعَانًا في الشرودِ.

قال الرجلُ: إنَّ حَدِيثَكَ مَلَكَ عَلَيَّ نَفْسِي مُنْذُ اللَّيْلِ، وَلَقَدْ مَارَجْتَنِي حَسْرَةً حِينَ قَطَعَ الْوُجُومُ عَلَيْكَ الْحَدِيثَ.

قال أبو رافع: لَعَلَّ صَلَاةَ الْحَدِيثِ، الَّذِي أَنْقَطَعَ بَيْنَنَا، تَجَرُّ الشُّجُونِ إِلَى اسْتِدْرَاكِهَا يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ.

قال الرجلُ: ولكنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَسْرَ الْحَدِيثِ وَمَدَّ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ نَفْسِي لَا تَجْتَمِعُ كَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا. وَأَجِدُنِي أَشَدَّ مَا أَكُونُ أَنْصِرَافًا إِلَى مَغْزَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ، وَمَغْزَى الْأَذَانِ الذَّاهِبِ كُلَّ يَوْمٍ، مَرَاتٍ فَوْقَ ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَصَخْبِهَا، الْأَذَانِ الْقَارِعِ فِي دُنْيَا الْأَبَاطِيلِ.

قال أبو رافع: إنَّني لَمْ أَزَلْ أَحْشَعُ تَحْتَ ذِكْرِي الرِّثَائِ الْهَامِسَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا النَّبِيُّ فِي أُذُنِ وَلِيدِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَمَدَّدُ فِي فُضَاءِ تِلْكَ الرُّوحِ، وَأَوَّلَ شَيْءٍ تَتَمَوَّجُ بِهِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ. وَبِذَلِكَ يَبْقَى فُضَاؤُهَا خَلِيًّا مِنَ الضَّبَابِ، فَلَا تَمُرُّ بِهِ حُلُكَةٌ قَائِمَةٌ، وَلَا تَجُثُّ فِيهِ ظَلَامِيَّةٌ أَوْ دُجْنَةٌ، فَيَتَكَوَّرُ فُضَاءُ الرُّوحِ تَكَوَّرَ الْفَلَكَ عَلَى الشَّمْسِ.

والأَذَانُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ إِلَى الرُّوحِ لَا تَكُونُ فِيهِ أَلْفَاظُ الْأَذَانِ بَلْ رُوحَانِيَّتُهُ، لِأَنَّهَا تَسْمُو، بِمَحَلِّهَا وَمُسْتَوَاهَا، عَنِ الْأَلْفَاظِ وَمَذَاهِبِهَا فِي التَّعْبِيرِ، هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الَّتِي

تُولَّفُ كائناً آلياً لا حِسَّ فيه، وآسَتَانِي بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى إِكْمَالِ آيَةِ الْحَيَاةِ وَحَرَكَاتِهَا الرَّتِيْبَةِ. وَلِذَا ظَلَّ كَائِنُنَا الدَّاخِلِيُّ الْمَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بِالْمَعَانِي الْمُطْلَقَةِ عَنِ الْأَدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَسْتَحْجِزْ، فَتَنْجِهُ إِلَى إِحْسَاسِ الرُّوحِ قُدْماً فَتَمَوَّجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الْأَدَاءُ الْآلِي (الْأَلْفَاظُ) يَمُرُّ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَتَجَرَّدَ^(٢) وَيَسْتَحِيلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إِحْسَاسِ الرُّوحِ.

فَهَذِهِ الرُّوحُ الْجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلْهَا آيَةُ الْحَيَاةِ الْمُخْتَرَعَةُ بَعْدُ بِأَشْيَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَزَالُ غَضَّةً، لَمْ تَتَحَجَّزْ أَطْرَافُهَا، تَمَوَّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوَّجَتْ، وَأَتَّسَعَتْ أَوَّلَ مَا أَتَّسَعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَمَهْمَا مَرَّ بِهَا مِنَ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَازِلَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا رَمَتْ بِالزَّبَدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا حَبَابَ الْمُثُلِ الْمُتَرَاكِبِ، فَإِنْسَانِيَّةُ هَذَا الْوَلِيدِ السَّعِيدِ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ النَّبُوءَةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرِي الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأَخْشَعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً غَنِيماً وَعَمِيقاً، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أُطَوِّعُ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهْشٌ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُولِي مُذَكِّراً الْحَيَاةَ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبَلِ مُثُلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وَعَلَا ضَجِيجُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَضَمَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُوتِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوَجَّدُ أَلْفَاظُ فِي اللُّغَةِ لَمْ تَسْتَحْجِزْ بِمَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا الشُّعُورُ، حَتَّى لَتُصِلَ بِمَا وَرَاءَ الْقَوَى الْوَاعِيَةِ، وَتُحَرِّكُهَا رَأْساً بِدَوْنِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَالْأَلْفَاظِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْحُبِّ. وَهُنَاكَ أَلْفَاظُ تَتَّصِلُ بِمَوَاطِنِ الْحَيَاةِ وَتُؤَثِّرُ مُتَخَطِّئَةً الْفِكْرَ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْغَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَتُسَمِّيهَا لُغَةً حَيَوِيَّةً. وَمَا بَقِيَ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تُؤَثِّرُ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتُسَمِّيهَا لُغَةً آيَةً مُسْتَحْجِرَةً.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

*

فِي حَقْلِ الْبَشْرِيةِ الشَّائِكِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...
عَمِلَتْ فِيهَا النَّوَامِيسُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا، فَنَوَّرَتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمْلَأُ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لِيُخَيَّلَ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

*

قَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاحِمةٌ لَمَاعَةٌ الْأَدِيمِ...
وَكَانَتْ تَفُحُّ فَحِيحاً لَاهِباً، وَيُؤْجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...
وَالْتَفَّتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقَدِ الْقَضَاءِ...
وَفِي هَذَاةِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُبَاتٍ قَضَمَتْهَا...
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكاً مُلْهِباً، وَغَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى رَمَزٍ
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ الثُّبُوءِ فِي آفِتْنَانِهَا وَسُمُوءِهَا...
وَالثُّبُوءُ شُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلِكِنَّهَا اجْتَمَعَتْ فِي الذُّكْرَى الْخَالِدَةِ...
فَقَدْ غَرَسَتْهَا ثُبُوءُ صَنَاعٍ، وَالثُّبُوءُ لَا تَحُورُ!...

*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَيَّةُ أَسْرَارَهَا...
فَلَبِثْتُ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيحِ!...

*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمِيلَادِ وَهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تَقَاطَرَتْ فِيهِ زَرَافَاتُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ، أُشْبِوْعٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كَأَنَّمَا تَنْفَسَتْ فِي جَوْهِ السَّعَادَةِ، وَطَفَرَتْ مِنْ أَعْمَاقِ
الْحُلُمِ لَتَمُوجٍ فِي وَاقِعِيَّةِ الْجُمُوعِ وَدُنْيَا الْحَيَاةِ.

كَانَ الْبَصَرُ يَذْهَبُ مَذَاهِبُهُ ثُمَّ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى أَوْزَاعٍ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ،
فَقَدْ حَفَلَ النَّبِيُّ بِسَابِعِ أَيَّامٍ وَلِيدِهِ وَعَقَّ عَنْهُ.

إِفْتِدَاهُ بِكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ فِي أَشَايَةِ الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ مَغْزَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمِثَالِيَّةَ
السَّامِيَّةَ، أَوَّلُ مَا تَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ إِهْرَاقُ النَّزَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَنَزَعَاتِ ضَرَاوَتِهَا، مُجْتَمِعَةً
فِي حَيَوَانٍ يُهْرَاقُ. فَإِذَا كَانَ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِدَاءِ مَعْنَى الْجَسَدِ وَتَوْكِيدُ
أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَرْمٌ، فَإِنَّ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِدَاءِ مَعْنَى الرُّوحِ الْمُتَسَامِيَّةِ إِلَى
الْعَلَاءِ، وَكَانَ وَحْيٌ وَإِشَارَةٌ لَشَيْءٍ آخَرَ مُتَرْتَّبٍ تَرْتَّبُ النَّتَائِجُ عَلَى الْمُقَدَّمَاتِ: الْحَيَوَانُ
يُقْدَى بِهِ الْإِنْسَانُ الشَّاعِرُ بِمَغْنَاهُ، لِيَتَعَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَقْدِي فِكْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَكَيْفَ يُضَحِّي بِسَبِيلِ مِثَالِيَّاتِهَا.. وَلِذَا لَمْ يَجِدِ^(١) الْمُكَافِحُونَ الْمُسْتَبْسِلُونَ، إِلَى

(١) كَانَ مِنْ عَادَةِ الْجُنُودِ فِي الْقَدِيمِ نَحْرُ حَيَوَانٍ تَحْتَ الْعَلَمِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنَ الْجُنْدِ، وَيَقِيْتُ هَذِهِ الْعَادَةَ حَتَّى
رَمَنَ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ بِأَسَا خِذْيَوِيٍّ بِضَرٍّ.

زَمَنٍ قَرِيبٍ، رَمْزاً لَصِدْقِ الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلآرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَعَمَتُهُ جُمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَحِيَّةَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،
كَيْ يَمْلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ
شُعُورَهُ، وَفِي آلامِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَرَّجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمُهَذَّبَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ النَّبِيلَةِ،
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاضُّلُ الْإِنْسَانِيُّ
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلَدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأُنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ آسَطَاعَ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذِيبَ «أَنَا»
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كِبَرِيَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَعُتُوُّهَا،
وَأَمَّا فِيهَا نُبُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُهَا، وَأَشْتِرَاكِتُهَا وَتَعَاوُنُهَا.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرِي هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ آسَتَوَى رَجُلًا، رَمَزَهَا
الْإِنْسَانِيَّ وَمَعْنَاهَا النَّبِيلَ. فَلَمْ يُبَالِ تَحْتَ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَغْزَاهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّادِجَةِ، وَفِيهَا إِثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا قَنَاعَةٌ دُونَ
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغَبَاتٌ^(٢) قَاصِرَةٌ.

(٢) نَقِي بِالرَّغَبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَنْفَعِلُ بِبَاعِيَةِ الْغَرِيَّةِ كَالْجُوعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ
حَاجَتَهُ، وَعَفَّ عَنِ الْبَاقِي، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَرَكَتَهَا فَتَحْمِلُهُ عَلَى
أَدْخَالِ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغَبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا
رَغَبَاتُ الْإِنْسَانِ سَرَّهُةٌ مُسْتَحْوَذَةٌ. وَالتَّنَاحُرُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَوِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ
بِبَاعِيَةِ الْغَرِيَّةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّنَاحُرَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَدْخَالِهَا سَرَّهُاً وَآحْتِيَازاً، فَكَانَ الْحَيَوَانُ
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَئَاءِ الْجُمُوعِ وَبِهَاءِ الْحَفْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آتَنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟»

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!..

تَهَامَسَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: سَمَّاهُ النَّبِيُّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمِيَّتِهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ أَسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شُدُودٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِثْمِ كَاسٍ، وَالنَّبِيُّ نَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِيُقِيمَ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفِيمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدَاوَانُ طَمَعًا وَعُتُوًّا وَآضْطِهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الضَّارِيَّةِ الَّتِي تَسْتَضِيقُ، عَلَى رَحَايَةِ الْوُجُودِ، بِغَيْرِ ذَاتِهَا فَتَسْتَجِيبُ إِلَى الْعُدَاوَانِ وَتُنَازِعُ الْأَمْنِينَ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نُكَافِحُ هَذَا الْعُدَاوَانَ لِنُخْلَصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَذْرَانِ الضَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النِّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانٌ.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلَمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاعِ الْعَاتِي، وَلِيَرُدَّ ذُنُوبَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنُوبِ بِتَمْزِيقِ

أَقْنَعَتْهُمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأَلْغَى مَشْرُوعِيَّتَهَا، وَأَعْلَنَ حُرْمَةَ الْإِنْسَانِ أَيَّامًا كَانَ، وَرَوَّى التَّارِيخَ نُبْلَ الْجِهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ مُحْسِنًا، بَعْدَ تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِعْلَانًا بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ. وَفِي تَهَامُسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنَّه أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِذَا نَا بِخِتَانِهِ. وَكَانَ مَغْزَى الْخِتَانِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةٌ تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا وَآلَتَوَائِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَاتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْغَرَائِزِ لِسُمُورِ الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَنَبَالَتِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا، يَمْلِكُ الْبَشَرِيُّ إِنْسَانِيَّةً صَحِيحَةً تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

*

بَعْدَ حِينٍ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَزِمِي بَعِثَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَرْخَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونَ كِلَلَهَا فَلَا تَرُخَرْحُ إِلَّا بِفُتُورٍ...

ضَجَعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَرْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِبْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطْلِ النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرِّضَاعِ مَعْنَى الثَّدِيِّ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّبُوءِ طِبَاعُهَا، وَمِنْ الْبُطُولَةِ تَضَحِيَّاتُهَا...

*

ضَجَعَةٌ كَأَنَّهَا ضَجَعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ ضَجَعَةُ النُّجُومِ فِي الْأَفْقِ

المسحور!...

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةَ الْخِشْفِ عَلَى ثَدْيِ الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...
وَأَزْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبَطُولَةٍ تُغَذِّيها نُبُوَّةٌ!...
إِبْهَامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بِمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَسْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...
فَلَمَّا آسَتْوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بَطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ^(٣) كَانَتْ جُمُوعُ السُّمَارِ تَنْتَظِمُ حَلَقَاتٍ حَلَقَاتٍ كَمَا
شَاءَ الْهَوَى فِي عَقْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السُّمَرِ مُحَبَّباً إِلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَغْقِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ عَرَاها تَطْيِيرٌ وَتَشَاوُؤٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَفِرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنُجُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمَرَحِ لِتَنْسِيَ هُمُومَهَا الْمُشْتَعِلَةَ وَضَنَاهَا
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثْوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآسِرَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسِيَ ذَاتِيَّتَهَا، بِمَا فِيهَا
مِنْ غُنْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمُزْهِقَيْنِ، لِتَعْبَثَ، لِتَلْهُوَ هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ
رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْخَشِنُ، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ شَاعِرَةً بِالْخُشُونَةِ فَيَشِيْعُ فِيهَا التَّجَهُُّمُ
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرَحٍ كَادَ يَكُونُ مُجَوَّناً دُونَ قَيْدٍ،

(٣) إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِكُلِّ مَسِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِعُهَا عَقِيقاً. وَفِي بِلَادِ الْعَرَبِ أَرْتَعَةُ أَعِيقَةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ
الَّذِي هُوَ بَنَاجِيَةُ الْمَدِينَةِ فِيهِ غُبُونٌ وَنَخِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُرُورٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِيَاقُوتَ، ج ٦،
ص ١٩٨.

وعلى يُشِير كاذَ يَكُونُ أَنْطِلَاقاً مِنْ كُلِّ قَيْدٍ، فَشَاعَتْ فِيهِمْ سَمَاحَةٌ مُشْرِقَةٌ،
وَأَنْطَبَعَتْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ بَسَمَاتٌ مُشِيعَةٌ تَمُدُّهَا نُعُومَةٌ فِي الطَّبَعِ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَظْهَرَ فِي
دُعَابَةٍ مُنْطَلِقَةٍ عَارِضَةٍ، وَهِيَ إِنْ جَدَّتْ تَكُونُ مُتَكَلِّفَةً فِي الْجِدِّ، كَمَا تَكُونُ تِلْكَ
الطَّبِيعَةُ مُتَكَلِّفَةً فِي الْمَرْحِ.

وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ الْحَيَاةُ إِذَا كَانَتْ لَا تَمْنَحُنَا قَلْباً سَعِيداً لَمْ تَتَحَجَّرْ فِيهِ السَّعَادَةُ،
وَالْجِدُّ لَا يَصِلُ الْمَرْءَ بِالسَّعَادَةِ، لِأَنَّهَا أَنْطِلَاقٌ، وَهُوَ جُمُودٌ يُحَجِّرُهَا كَمَا يُحَجِّرُ كُلُّ
شَيْءٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ، فَيُضِيعُ فِيهِ حَيَوِيَّتَهُ وَيَعْرِضُهُ مِنْ رُوحِهِ... هَكَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ، فِي
مَجْمَعِ وادي العَقِيقِ، نُعَيْمَانُ^(٤)، طُرْفَةً أَهْلِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي لَوْلَا مَا دَخَلَهُ مِنْ غُنْصُرِ
الْمَادَّةِ الْحَيَّةِ لَكَانَ رُوحَ النَّادِرَةِ الْمُبْدَعَةِ.

لَيْلَةٌ كَانَتْ مِنْ هِبَاتِ الْقَمَرِ، وَهُوَ يَدْنُو فِيهَا كَثِيراً، وَيَشِيعُ كَثِيراً حَتَّى لِيَخِيلُ
أَنَّهُ يَتَحَدَّى الشَّمْسَ فِي بَهَاءٍ وَطَرَاوَةٍ يُشْعِرَانِ بِالْجَمَالِ. وَدَعَاهَا الْعَرَبُ «أُضْحِيَانَةً»،
كَأَنَّمَا جُمِعَ فِيهَا الضُّحَى أَوْ جُمِعَتْ فِيهِ، وَالضُّحَى إِغْرَاءٌ بِالْقِظَّةِ، بِيَدِ أَنْ ضُحِيَ
الشَّمْسُ إِغْرَاءً بِحَيَاةِ التَّكَالِيفِ وَالذُّكْرِ وَالْقِظَّةِ عَلَى الْجَسَدِ وَالْوَاقِعِ الْقُطُوبِ،
وَضُحِيَ الْقَمَرُ إِغْرَاءً بِحَيَاةٍ وَرَاءَ الْحَيَاةِ، كُلُّهَا حُرِّيَّةٌ وَأَنْطِلَاقٌ، وَكُلُّهَا نِسْيَانٌ وَوِلَادَةٌ
مِنْ جَدِيدٍ فِي اللَّحْظَاتِ.

إِنَّ الذُّكْرَ، وَفِيهَا غُنْصُرُ الثَّبَاتِ وَالْجُمُودِ، تَجْعَلُ الْحَيَاةَ ضَرْبَةً لَازِبٍ فِي
مَرَارَتِهَا وَسَامَتِهَا وَمَلَالِهَا، وَالنِّسْيَانُ سَيْلٌ مِنَ التَّجَدُّدِ وَالصَّيْرُورَةِ، يَجْعَلُ الْحَيَّ فِي
كُلِّ الْآنَاتِ مَوْلُوداً جَدِيداً يَنْقَلِبُ فِي أَشْبَابِ الطُّفُولَةِ النَّاعِمَةِ الْهَانِئَةِ. فَمَدَارُ الشَّمْسِ
دُنْيَا مِنَ الْعَمَلِ وَالْوَعْيِ الْجَهْدِ، وَمَدَارُ الْقَمَرِ دُنْيَا مِنَ النَّشْوَةِ وَاللَّوْعِي الْحَالِمِ... كَذَا

(٤) هُوَ نُعَيْمَانُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ رِفَاعَةَ مِنْ بَنِي النَّجَارِ. تُؤْفَى فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ. كَانَتْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ رُوحُ الْفُكَاهَةِ
وَالنَّادِرَةِ، وَكَانَ يُدَاعِبُ النَّبِيَّ. ذَكَرَهُ الرَّبِيزِيُّ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ: الْفُكَاهَةِ وَالْمَزَاحِ، وَذَكَرَهُ أَبُو الْحَوَازِيِّ فِي
كِتَابِ: الظُّرَافِ وَالْمُتَمَاجِنِينَ، وَتَرَجَّمَ لَهُ بِتَوْشِيعِ أَبِي حُجْرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ فِي كِتَابِ: الْإِصَابَةِ، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكان يُسَمِّي لِيَالِي القَمَرِ ضُحَى الأُحلامِ، لأنها صَحَوَاتٌ في أَعْمَقِ سُكْرِ، وَلَحَظَاتٌ شِعْرِيَّةٌ تَفِرُّ من عَتَبَاتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي أَذْناها القَمَرُ المَسْحورُ من آفاقِها المِطْلَّةِ القَرِيْبَةِ.

قالَ رَجُلٌ من الحُضُورِ: لو شاءَ نُعَيْمانُ حَدَّثنا حَدِيثَ هَداياهِ^(٥) الَّتِي سَتَبَقِي رَمَزَ خُلُودِهِ، وإنْ كانَتْ تُطْفِئُ في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَعْنَى، التَّطْفِيلَ في النِّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وعلى أَيِّ حالٍ فإنَّها سَخاءٌ مُضْحِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحْكُهُ الأُسْخِياءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُقَهِّقَةٌ، انْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتَرامى الأُصداءُ في مَطارِحِ الخُلطاءِ.

قالَ نُعَيْمانُ: أَمَّا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البُخْلَاءِ، وَمَعْنَاهُ أَنْكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وأنا يَسْرُنِي أَنْ أَكونَ، كما تَقولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وإِنِّي لا أراكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَارْتَفَعَتِ الأَصْواتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرْتَ؟ قالَ نُعَيْمانُ: زَعَمُوا أَنَّ فَراشَةَ مُلَوَّنَةً تُخالُ كَأَنَّها زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طائِرَةٌ، مَسَّها نَصَبُ التَّزْنِيقِ وَلَغَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أمانِي الفَرَّاشِ، وهي قاصِدةٌ إلى الحَقُولِ. فَحَطَّتْ مُغْتَبِطَةً على زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّياحِ في غُضارَةِ وَتَمَلُّوْ حَتَّى لَتَحَسَبُ أَنَّها تَفِيضُ غُضارَةً ومائِيَّةً، فدارَتْ عليها الفَراشَةُ دَوْرابِ يائِسَةٍ كَظامِيٍّ سَقَطَ على آلٍ حَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنَاحَيْها وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قالَتِ الزَّهْرَةُ: إذا عُدَّتِ بَعْدَ حِينٍ فَسَأَسْقِيكَ مِنْ ماءٍ ثِمَارِي الوَفِيرِ.

قالَتِ الفَراشَةُ: إذا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَناتِ السَّرابِ، فَإِنَّ ماءَكَ، وَأَنْتِ

(٥) ذَكَرَ خَتَرها آئِنُ حُجَرٍ في: الإِصابة، قالَ: كانَ لا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طُوفَةً إِلَّا اشْتَرى بِها ثَمَّ جاءَ بِها إلى النَّبِيِّ، فَيَقولُ ها أَهْدَيْتُهُ لَكَ. فإذا جاءَ صابِغُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمانَ بِمَعْنِيهِ أَحْضَرَهُ إلى النَّبِيِّ وقالَ: أَعطِ هذا ثَمَنَ متاعِهِ، فَيَقولُ النَّبِيُّ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لي؟ فَيَقولُ: إِنَّه واللهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فَيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ لصابِغِهِ بالثَّمَنِ، وَذَكَرَها آئِنُ الحَوْزِي في كِتاب: الطَّرافِ والمُتَماجِنين، وغيرِ واجِدٍ مِنَ المُولِّفينَ في التَّوَادِرِ.

ثَمَرَةٌ، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٌ، فَزَهْرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَثَمَرِكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنَّ الزُّورَ إِذَا آسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْبَرَ.

وَهَدَايَايَ الَّتِي كُنْتُ أَسْوَقُهَا إِلَى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ عَنْ مَكَانِ التَّدْيِ وَالسَّمَاخَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَأْخُذُنَا بِاللَّوَانِ مِنْهُ، وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوَتِهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّبْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَحَدَ الْحُضُورِ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدُهُ الْحُسَيْنَ يَدْلَعُ لَهُ لِسَانَهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغَيْثَتُهُ بُنْ بَذْرِ حَاضِرٍ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ لِي الْوَلَدَ وَمَا قَبْلَتْهُ قَطَّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يُزَحِّمُ لَا يُزَحِّمُ».

قَالَ أَبُو الدُّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدَّ مُحْسِنٍ يَا نَعِيمَانُ بِقَوْلِكَ «وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لَيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطُلْ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ الْجَمْعَ، فَنَقَلَهُمْ مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرْجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَيْقَظَ نَفْسِي عَلَى السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُقٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ وَتَنَاعُمٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمُثَلِّ^(٦) تُعَبِّرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِمَّتِهَا، وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الْأَزَلِيَّةُ الَّتِي أَنْبَشَقَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَيْ قِصَّةُ الْمُثَلِّ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجْمَلُ الْحَيَرُ رَأْسُ الْمُثَلِّ.

الأخلاقية والطبيعية، وننقذ إلى أغوار المطلق إلا من طريقها، وعلى أضواؤها الملتزمة، على أن الخير الذي اعتبرت قصته المثل رأساً ليس في حقيقته إلا امتداد الرحمة، وظاهرة من تحركها، والجمال تجسّد للرحمة بأكثر مما هو تجسّد للخير، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونية والأخلاقية فهما مطلقاً، ونضع اليد على مقياس القيمة الحق.

وميزة الإسلام أنه جعل الرحمة دعامة وقام عليها، ولعلّه الدين الوحيد الذي تهذى بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركيز القانون والاجتماع، وجعلها نظرية فلسفية الأولى. فقد سمى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رحماناً، وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رحمتي كل شيء». وفي مقام آخر قال: «كتب ربكم على نفسه الرحمة». وحين تحدّث عن المجتمع العام قال: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودة ورحمة». وقال النبي يصف نفسه: «أنا الرحمة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «من لا يرحم لا يرحم» ففلسفة الإسلام قامت على قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثها في قانونه وأناطيمه، ودخل بها إلى الهيكل المستعرق الخاشع، والمجتمع الصاحب الداوي، وكسر بها شرة الأنانيات الضارية، وحدّ بها من مدّ الرغبات النهمّة.

وبالرحمة عالج الإسلام طبيعة الإنسان المعقّدة، ليبلغ بها مبلغ المثل الأعلى الذي عبّر عنه بقوله: «رحماء بينهم»، وليحقّق بها مبدأ التآخي العام «إنما المؤمنون أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأن تدلّ على روح الإسلام الشائعة في كل أوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه؛ كالمحبة التي هي

الرَّمْزُ الجامع للمسيحية من أقطارها وخواشيها، وفَرْقُ ما بَيْنَهُمَا أَنَّ في طَبِيعَةِ الرَّحْمَةِ تَوَازُنَ القانونِ، وفي طَبِيعَةِ الثَّانِيَةِ خَيَالِيَّةَ التَّجْرِيدِ.

وعلى أساسِ مِنَ الرَّحْمَةِ يُقِيمُ النَّبِيُّ التَّزْيِيَةَ، وَيَضَعُ مَنَاهِجَ الرِّبَاةِ^(٧) السَّمْحَةِ الَّتِي تَأْذَنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بِالتَّمَاءِ في تَقْدِيرِ مَوْزُونٍ، دُونَ مَا كَبِتَ يورثُ آتِيكَاساً وَآلَتِوَاءَ في الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. وَلِذَا ذَهَبَ وَلِيدُهُ بِخَنَائِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يُغَادِيهِ بِشَايِبِ حُبِّهِ التَّمِيرِ.

قَالَ شَدَّادُ بْنُ الْهَادِي: لِلَّهِ دَرْكُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهِمَا أَذْكَرُهُ الْآنَ شَاهِدًا عَلَى مَا تَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آتَنِي آرْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ».

فَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَقْتُ النَّبِيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْتَ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وِرْكَيْهِ، فَقَالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَأَسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حَدِيثَهُ فَقَالَ: إِنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْعُضُويَّاتِ - وَمَظْهَرُهَا الرِّقَّةُ وَالْحَدَبُ - هِيَ سِرُّ كِيَانِ الْمَوْجُودِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَبَقَائِهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِرَحْمَةِ الْكَبِيرِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هُوَّةٌ بَيْنَ الطُّورَيْنِ، تَذْهَبُ مُتْسِعَةً كُلَّمَا ذَهَبَتِ الْأَيَّامُ مُتَمَدِّدَةً، وَتَمْتَلِئُ وَتَطْفَحُ بِالْأَحْقَادِ، فَتَخْبُو النَّشَوَاتُ الْمُغْرِیَّةُ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَعُدْ

(٧) مِنْ وَضَعْنَا الْحَدِيدَ بِمَعْنَى تَزْيِيَةِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَت.

يَجِدُ حَاضِرَهُ اللَّادِ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرَ لَمْ يَعُدْ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وَجُودِهِ
كَحُلْمِ الْخَمْرَةِ فِي الْعُتُقُودِ.

فَمِثْلُ نَظَرَةِ عُيَيْنَةِ بِنِ بَدْرِ إِلَى الطُّفْلِ تُورِثُ الْبُغْضَ الْخَفِيِّ، وَتُذَكِّي الصَّرَاعَ
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فَلَا تَتَجَاذَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وَبِذَلِكَ يَنْدَثِرُ حُبُّ الذَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَتْ
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَايِبَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُوْثُّ، فِي السَّبَابِ الْمُسْتَوِيِّ، الرَّحْمَةَ عَلَى شَتَى أَطْوَارِهَا:
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَسْتَمِيلُنَا بِالْحَنِينِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّحِدُ فِي بَقَاءٍ طَوِيلٍ، وَمَحَالٌّ أَنْ يَقُومَ
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَنْحُنُ وَآبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارَ كَائِنٍ كُرُويٍّ وَاحِدٍ، يَدُورُ وَبُرِينَا
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَةً هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفَدَتْ
جَمَدَتِ الْكُرَةُ وَذَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُجْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِيعُ
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِغْرَاءٍ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نُعَيْمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا غَرَوْ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أبا
الدَّرْدَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الضَّرْسُ... فَضَحِكُوا
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَاتِبِينَ إِلَى الرَّوَاكِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِخُ»...

*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُتَبَدِّلَةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...

وما إنِ آسَتَوَتْ عَلَى قَوَاعِدِهَا، حَتَّى وَجَدَ فِيهَا الظُّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِثَ لِبْنَاتُهَا مِنْ كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آتَقَى فِيهَا الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالمِثَالِيَّةِ
فَتَطِيرَ بِهَا اللَّيْنَاتُ وَتَذْهَبَ فِي سُرُودٍ...
وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ نَامُوسَ تَمَاسِكِهَا وَتَجَادُ بِهَا...

*

فِي هَيَاكِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كَانَ مُحْسِنٌ يَحْبُو...
وَهُوَ يَتَسَامَى فِي مُنْبَثَقِ إِشْرَاقَاتِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا تَتَسَامَى اللَّالِيَةُ فِي
رَقَارِقِ النُّمِيرِ الْعَذْبِ...

فَكَانَ كَائِنًا كَالْأَلَمَاسِ، صَقَلَتْهُ الْأَضْوَاءُ وَأَنْطَبَعَتْ فِيهِ...
وَعَدَا، بَعْدَ حِينٍ، مِشْكَاءَ مُتَأَلِّقَةٍ، تَمِيسُ فِي فِضَاءِ الْهَيْكَلِ السَّعِيدِ...
وَتَهَبُ الْحَائِرِينَ طُمَأْنِينَةً النُّفُوسِ، وَأَحْلَامَ السُّعْدَاءِ!...

* * *

يوم الدولة

أَصْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرِّحَى رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرِّحَى، وَفِيهَا أَنْيْلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرْسُمَ دَوَائِرَهَا وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوِنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَذَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرِّحَى فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَاَنْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقَعُ مِقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِخَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمَقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخُطَّ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَتَشَرَّعَ فِي مَدَى خُطُوطِهَا حَيَوَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفْقَاتِهَا، وَلَا تَخْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَتُ أَلْوَانُ أَخْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَّأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقَوَى، وَالْمَمْدُودِ الرِّغْبَاتِ. فَنَظَّمَ طَائِفَةً مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيٌّ فِكْرَةَ وَزَعِيمَ دَوْلَةٍ.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ النُّبُوَّةِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَدَّ أَيْضاً. وَدَائِماً تَظَلُّ الْفِكْرَةُ فِي إِحْسَاسِ التَّارِيخِ هَزِيلَةً، إِذَا لَمْ تُرَافِقْهَا الدَّوْلَةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُعَيَّرَةً، وَالْفِكْرَةُ لَا تَكُونُ قَابِلَةً لِتَقْوَمَ عَلَى أُسَاسِهَا الدَّوْلَةُ دَائِماً، وَإِنَّمَا هِيَ فَقَطُ الْفِكْرَةُ الَّتِي آجَتَمَعَتْ^(١) فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ وَقَابِلِيَّاتِهِ الرَّائِكَةِ، وَانْبَعَثَتْ فِيهَا عَلَى شَكْلِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ فِي آعْتِبَارِ الزَّمَنِ أَنَّهَا مِنْهُ، وَمَصِيرُ الْأَفْكَارِ الْأُخْرَى أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ إِلَى نَأْمَاتٍ خَافِتَةٍ فِي أُذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمِعِ التَّارِيخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفِكْرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا قُوَى تَارِيخِيَّةٌ كُبْرَى وَتَنْجَحُ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلْقِ تَارِيخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونَ فِيهَا عَنَاصِرُ الثَّوْرَةِ كَامِلَةً، الثَّوْرَةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ.

وَلَأَنَّ تَعَالِيمَ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي آجَتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى التَّارِيخِ كَانَتْ لَا تَتَّصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلَّا وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِبُهُ وَتُحْرِقُ عَلَيْهِ زُيُوفَهُ وَتُغَيِّرُهُ تَغْيِيراً تَاماً، حَتَّى كَأَنَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. بِذَلِكَ لَبَّحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وَفِيهَا الْقُوَى لِتَنْجَحَ كُلَّمَا حُرِّكَتْ وَانْبَعَثَتْ.

وَكَانَتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إِلَى الْمُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي التَّارِيخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٌ عَامَةٌ لِلدُّخُولِ فِي النِّظَامِ الْجَدِيدِ، وَجَهَتْ عَلَى شَكْلِ كِتَابٍ رَسْمِيٍّ. كَمَا كَانَتْ إِعْلَاناً بِوِلَادَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ، الَّتِي فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ عَنْهَا: أَنَّهَا كُلَّمَا وُلِدَتْ حَقّاً يَتَغَيَّرُ وَجْهُ التَّارِيخِ.

(١) وَمَعْنَى آجَتِمَاعِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ فِي الْفِكْرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى كُلِّ الصَّرُورَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةِ، سَوَاءً فِي الْأَخْلَاقِ وَالْحَيَاةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي دَوْلَةِ فَارِسَ ثُمَّ تَخَلَّفَتْ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الرُّومَانِ، وَدَوْلِ الْأَرَضِ إِذْ ذَاكَ، وَجَدَتْ سَبِيلَ ظُهُورِهَا وَقَابِلِيَّةَ أَنْبِعَاثِهَا فِي الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَأَنْتَبَهَتْ فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ فِي الْأُمَمِ حَبِئْزاً، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ فِي كُلِّ دَوْرٍ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ الْإِمْتِدَادِ وَالْحَيَاةِ وَالسَّيْطَرَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِأَنْبِعَاثِ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةِ فِيهَا الَّتِي تَخَلَّفَتْ فِي أَوْضَاعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

في هذه الفترة كنت تُحسُّ في كُلِّ نَحْوٍ من أُنْحَاءِ المَدِينَةِ بِحَرَكَةِ نَشَاطٍ غَرِيبَةٍ، وَتَسْمَعُ هَمَسَاتٍ مُسْتَطِيلَةً مُتَّصِلَةً الِهَمَمَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ إِلَّا حَدِيثَ الكُتُبِ، وَمَاذَا سَيَكُونُ رَجْعُهَا وَرَدُّ المُلُوكِ عَلَيْهَا؟ وَكَانَ، فِي الطَّرِيقِ الآخِذِ إِلَى العَوَالِي، جَمَاعَةٌ آتَتْحَتْ بِنَفْسِهَا نَاحِيَةً ظَلِيلَةً تَكَاثَفَتْهَا أَوْرَاقُ الأَغْصَانِ الوَارِفَةِ. فَقَالَ قَائِلٌ: أَمَا تَرَوْنَ أَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ خَطِرَةٌ، قَدْ تَوَلَّبُ عَلَيْنَا جَمَاعَاتِ الأُمَمِ، وَهِيَ تُحِيطُ بِجَزِيرَتِنَا إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالمِغْصَمِ، فَإِنَّ نَفْسِي تَتَنَاشَأُ بِالمَخَافِ، وَتَتَقَسَّمُهَا شَعَاعاً.

قَالَ المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ: لَا يَنْتَفِخُ سَحْرُكَ^(٢) بِالأَوْهَامِ، وَلَا تُرْعَ، وَسَرُّ عَنْ نَفْسِكَ المَخَافِ. إِنَّ لَنَا مِنْ قُوَانَا الجَمِيعَةِ مَا يَجْعَلُنَا كُتْلَةً مِنَ الصُّلْبِ، مِنْ وَرَائِهَا الإِيمَانُ يَشُدُّنَا، وَمِنْ وَرَاءِ الإِيمَانِ اللّهُ وَاهِبُ القُوى والقَدَرِ، فَلَسْنَا نَزْهَبُ عَاتِيًا مِنَ البَشَرِ. وَإِنَّ النَفْسَ الَّتِي رَأَتْ وُجُودَهَا فِي اللّهِ، تَتَطَاوَلُ بِهَا القُوى، وَتَتَقَاصَرُ فِي مَدَى آغْتِبَارِهَا أَيْةُ قُوى أُخْرَى، فَتَقْدِيفُ، وَهِيَ قِلَّةٌ رَاغِدَةٌ، مِنْ مَصْدَرِ القُوةِ الكُبْرَى. وَحَظُّ الإِنْسَانِ مِنَ الحَيَاةِ، كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ يَنْبُوعُ المَطْلَقِ، وَلَيْسَ كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ الوجودِ الَّتِي لَا تَعْكِسُ إِلَّا نِسْبِيَّةً وَظِلَالاً خَادِعَةً مُخْتَلِطَةً. وَإِنَّ الوجودَ كَائِنٌ بَسِيطٌ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حَقَائِقَ بَسِيطَةً، وَأَمَّا حَقَائِقُ الوجودِ العُظْمَى فَهِيَ مِنْ هِبَاتِ الإِنْسَانِ عَلَى الوجودِ. وَالإِنْسَانُ لَيْسَ كَائِنًا مُنْفَصِلًا مِنَ الوجودِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَدَاةُ خَلْقٍ وَتَكْمِيلٍ فِيهِ... فَالحَيَاةُ وَأَشْيَاؤها، وَالوجودُ المَعْنَوِيُّ وَفِكْرَتُهُ، بِدْعَةٌ هَذَا الإِنْسَانِ العَجِيبِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَظَلَّ الوجودُ بَسِيطًا سَادِجًا خُلُوعًا مِنَ الإِغْرَاءِ.

وَالإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبْرِيَاءَ الوجودِ، وَيُحِسُّ بِنَشْوََةِ وُجُودِهِ فِي حُدُودِ هَذِهِ الكِبْرِيَاءِ، بَلْ لَا يُحِسُّ بِالوجودِ بَعِيدًا، لَيْسَ كَائِنًا طَبِيعِيًّا، وَإِلَّا فَهُوَ،

(٢) تَفْسِيرٌ كِمَائِيٌّ اسْتَعْمَلَهُ العَرَبُ فِي الحَاثِلِيَّةِ وَفِي الإِسْلَامِ تَمَعَى: لَا يَمْلَأُ الرُّغْمُ وَالهَلَعُ أَحْشَاءَكَ وَرِثْيَكَ.

ككائنٍ طبيعيٍّ، شيءٌ تافهٌ مثلُ أيِّ كائنٍ آخرَ يَنمو ويَذوي يَينَ فتراتٍ مِنَ الزَّمنِ.

والإيمانُ باللهِ الَّذي دَعا إليه الإسلامُ، في حَقِيقَتِهِ، إيمانٌ بالإنسانِ، وهَدْمٌ للإيمانِ بالوجودِ الصَّامِتِ الَّذي هو وثَنِيَّةٌ تُحوِّلُ يَينَ الإنسانِ والإيمانِ بِنَفْسِهِ ومَعْرِفَتِهَا، وإلى هذا يَرمُزُ قولُ النَّبيِّ الأعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فالإنسانُ كائنٌ إلهيٌّ إذا فَهِمَ نَفْسَهُ، وكُلَّمَا رَسَبَ إلى الطَّبِيعَةِ، وآمَنَ بِقُواها، فَقَدْ رَسَبَ وتَلَاشَى في عِمارِ الوجودِ الصَّامِتِ، وعادَ كَحَفَنَةِ هَامِدَةٍ مِنَ الرَّمالِ. والنَّبيُّ بَشَرٌ بالإنسانِ «ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وحارَبَ الوثَنِيَّةَ لِأَنَّها كُفِّرَ بِهِ، وآزَتَدادُ إلى تَأْلِيهِ مَظاهِرِ الوجودِ الخادِغَةِ، وجاءَ بِتَوْحِيدِ الآلِهةِ لِأَنَّها كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ تَلَاشَى الإنسانُ في ساحتِها.

وما آنكَسَفَ قَمَرُ الإنسانِ في أُمَّةٍ، وآزَتَدَّتْ بِعبادَتِها إلى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ دونَ الإنسانِ، إلَّا هَوَتْ مُضْمِجِلَةً، وكانَ ذلكَ أوَّلَ عَلائِمِ آخِطِضارِها، فإنَّ الإنسانَ، وخَدَهُ، هو الحَقِيقَةُ الكُبْرَى في الحِياةِ والوجودِ حينَ خَلَقَهُ اللهُ على صَورَتِهِ.

والقُوَّةُ - يا هذا - كَيفِيَّةٌ لا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كما هي في مِرْآةِ الوجودِ، بل كما هي في وِجْدانِ الإنسانِ، والظَّفَرُ دائِماً يَكونُ بِخِيالِ القُوَّةِ ومُبالَغاتِها في النَّفْسِ «كَمَ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ». فَواللهِ لو قَذَفَ بِنَا النَّبيِّ إلى بَرَكِ العِبادِ وإلى كُلِّ مَدائِنِ كِشْرَى وقَيسَرَ ما وَنَّينا ولا نَكَلَّنا؛ ونَحْنُ لا بُدَّ ظافِرونَ.

قالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: عَهْدُنا بِكَ أَنْكَ بَطَلٌ، فَها أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضاً...

قالَ المِقْدادُ: إِنَّ البُطُولَةَ مَعْرِفَةُ الإنسانِ نَفْسَهُ، فإذا بَرَزَتْ في العَمَلِ قِيلَ عَنيها بُطُولَةٌ، وإذا بَرَزَتْ في الفِكرِ قِيلَ عَنيها حِكْمَةٌ. فَالبُطُولَةُ حِكْمَةٌ صامِتَةٌ، وَلَنْ يَكونَ المَرْءُ بَطَلاً إلَّا إذا سَبَقَ وعَرَفَ نَفْسَهُ، أي كانَ حَكِيماً، والنَّبيُّ سَبَقَ وعَرَفَنا بأنْفُسِنا،

فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَبْطَالًا.

وَتَيْنَا هُمْ عَلَى تَبْشِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدُّ يُغَذُّ الْخُطَى غَدًّا،
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَخَفُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بَلَهَجَةِ الْمُنتَظِرِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّايِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسَهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ
حِمَاقَتُهُ أَنَّهُ مَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَخِفًّا حَانِقًا، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِمًا عَدَا
عَلَيْهِ آثَنُهُ فَقَتَلَهُ، وَقَامَ مَقَامَهُ، وَسَمَلَ النَّاسَ كَافَّتَهُمْ نَوْعٌ، بَلْ أَنْوَاعٌ، مِنَ الدُّهُولِ
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَتَرَكْتُهُمْ وَهُمْ يَمُوجُونَ كَالْآذِيِّ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...
فَتَعَلَّقُوا بِمُسَائِلَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِيئَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى
بَعْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمِقْدَادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،
حَلَّ مَحَلَّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمَثَلُ الْعُلْيَا وَالْمَعْنَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَنْبُغُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسِيْطِرُ عَلَيْهِ نَوْعٌ حَادٌّ
مِنَ التَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَنِ الْمَجْدِ، وَنَوْعٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جِدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَاهِلُ الْإِنْسَانِ
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، زُوَيْدٌ أَنْ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَفُّوا، بَعْضُهُمْ فِي إِثْرِ بَعْضٍ، وَوَافَوْا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ
النَّاسُ يَمُوجُونَ مَوْجًا، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضًا الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِقْدَارَ اخْتِرَامِ
قَيْصَرَ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يَنْقُلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُصَلَّاهُ، وَخَفَّ
النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفًا.

قَالَ قَائِلٌ لآخر، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخِفُنِي شُعُورٌ
عَنيفٌ أَنَا مَعَهُ جِدٌّ مُغْتَبِطٌ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِمَّةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى
مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظَلُّ لَنَا تَذَكَارَانِ
خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهِجْرَةِ وَهُوَ تَذَكَارُ نَجَاحِ النَّبُوَّةِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذَكَارُ
نَجَاحِ الدَّوْلَةِ. «وَجَاءَ مُحْسِنٌ يَشْتَدُّ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ
عُنُقَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَأُهِلَّتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ
عَبَّرَهَا، حِينَ آتَجَّهَ النَّبِيُّ لِدَكِّ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ
بِالْإِنْسَانِ إِلَى دَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى أَنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ
أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَأَنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَدْبٍ، وَبَرَزَ
النَّبِيُّ كَالنَّسْرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمَزُ فِكْرَةٍ وَتَفْقُوقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ
جِهَاتِهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَايِهِمَا،
وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فَهَوَتْ
مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجْعُ صِدَاهَا فِي الْغُورِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْمًا فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ،
وَعَرَا النَّاسَ جَلَالُ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ آسْتِغْرَاقٍ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى
لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْنَنَا وَالشُّرُكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحَشِدَتْ قُرَيْشٌ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تَروني فاعِلاً بِكُمْ؟

قالوا: أَخْ كَرِيمٌ وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ!

فَقَالَ، وَقَدْ جَمَعَ ثُبُلَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَطْرَافِهِ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، الَّذِي كَانَ إِعْلَانًا
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ حُرِّيَّتِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَزْبُ النَّبِيِّ عُتُورًا وَأَضْطُّهَادًا وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصًا وَتَحْرِيرًا لِكَيْ يَتَنَفَّسَ الْإِنْسَانُ بِمِلءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...
وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْقَفِيرَ، وَكَسَرَ قُيُودَهُ...

وَرَاحَ الْفَرَّاشُ يَطِيرُ فِي الْحَقُولِ تَتَحَاضُّهُ أَيْدِي الزَّهْرَاتِ.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَتْ بِبَهْجَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ وَفِي كُلِّ
يَتِيمٍ صَدَى فَرْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاوِجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعَوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ
مِرَاحَ الظَّفَرِ وَفَخَارِهِ.

قَالَ يَغْلَى بُنُ مَرَّةً: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاجِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنْ
الْأَسْبَاطِ».

*

نُحِبُّ النُّبُوَّةَ لِأَنَّهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...
فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ آسْتِمْرَارُ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ...

*

ضَمَّهُ إِلَيْهِ مَلْتاً بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...
وَحَنَا طَوِيلاً عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعاً...
وَوَظَلَ أَبَداً رَمَزَ مَجْدٍ شَامِخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنَفُسِ أَزْهَارِ السُّحْرِ وَعَبَقِي
الْخُلْدِ!...

*

الْحُبُّ شُعُورٌ إِلَى شُعُورٍ، وَخَفَقَةُ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...
وَالشُّعُورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...
خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ مُشِيراً إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...
لِيَقِفَ شَاعِراً بِوُجُودِهِ عَلَى حُطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقُيُودِ...
فَهَذَا صَوْتُ مَنْ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

كَلِمَةٌ صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذْنًا بِأَنَّ مَوْكِبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَبَدًا
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَغْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا!...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَبِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ!...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُيُودُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَازَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُيُودُ السَّجْنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّغْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الْأُرَمَ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَغْلَنَ التُّكَرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُحْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنْبِهِ ثَوْرَةَ الْبُرْكَانِ...

* * *

دموع

كثيراً ما كان النبي يرى، في أخريات أيامه، بين ذويه وأبنائه يؤانسهم، ويطمئن في نشوة خفيفة إلى أشياء لهوهم البريء ومرحهم الحلو، ويعاطيهم أسباب هذا اللهو وهذا المرح، ويمد لهم فيهما، فقد حقق حلم المجد وأدى غاية الرسالة القسوى، فهو يشعر بالاطمئنان والرضا، ويحس بتراحم شرور عميق.

وكان يأنس كثيراً إلى هذا الجو الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة براءتها، هائلة بسذاجتها، منتشبة بطراوتها... وهي، رغم قسوتها أحياناً، تجد وقعها اللذيذ، فإن البراءة جمال على شتى صورها وألوانها.

والطفولة، وخذها، أثبت حقائق الحياة، وما وراءها سُخريات وأشباه سُخريات تبدو خسنة، وكلما أوغلنا في مدى الحياة تزيد خشونة وتوغراً. وحين نذكرُنا لذاتها عرضاً فإنما تكون في شكل من أشكال الرجعة إلى الطفولة، وفي إنضاء زيوف ثقيلة من أثواب التكلف المزهقة... والتكلف رياءً وأناية على كل وجوهه، ولذلك أنصرف جهد النبي إلى أن يضع في كل الحياة براءة الطفولة.

ونحن لا نستطيع الرجعة إلى الطفولة وبغتها من جديد على أية صورها، كما نعجز دائماً عن خلق جوها المثرف، فنطلبها في الطفل بشوقي ملح، وفي نوع من الحنين الأسير، ليغمرنا بروحياتها التي تظل فينا أملاً منشوداً، ورغبة حادة.

وَالنَّبِيُّ كَانَ يَجِدُ طُفُولَةَ حَيَاتِهِ اللَّادَةَ فِي أَبْنَائِهِ كَمَا كَانَتْ وَعَلَى مَا كَانَتْ،
فَيَأْخُذُهُمْ بِصُنُوفِ اللَّعَابِ فِي حَنَانٍ وَآفِتْرَارٍ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
يَضْطَرِعَانِ وَهُوَ يُحَمِّسُهُمَا، أَوْ يَلْعَبَانِ بِالْمَدَاحِي^(١) وَهُوَ يُعَبُّ الْهَنَاءَةَ عَبًّا، وَيَتَمَلَّأُ
مِنْهَا، وَيَتَذَوِّقُ «حُلُوءَ الْبَنِينَ» الَّتِي هِيَ النَّشْوَةُ الْكُبْرَى فِي ظِلَالِ الْعُمْرِ. فَإِنَّ لَدَاذَةَ
الْحَيَاةِ تَقُومُ فِي نَشْوَتَيْنِ: نَشْوَةٍ بِالطُّفُولَةِ، وَنَشْوَةٍ بِذِكْرَاهَا فِي الطُّفْلِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ
فُصُولِ الْحَيَاةِ هَجِيرٌ كَهَجِيرِ الظُّلُمَةِ، وَلَذِئْجٌ كَلَذِجِ اللَّهَبِ، وَخُرْقَةٌ تَنْتَهِي بِمَرَارَتِهَا.
وَالطُّفْلُ طَائِرٌ يَرِفُ بَيْنَ أَيْدِينَا لِيَتَلَحَّقَ بِهِ إِلَى جَوْ حَقَائِقِهِ وَأَحْلَامِنَا، وَكَأَنَّ
الْحَيَاةَ تَضَعُ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَّةَ السَّعِيدَةَ، بِكُلِّ فُتُونِهَا، بَيْنَ يَدَيِ الطُّفْلِ، فَيَغْرُقُ فِي
خُصَامِهَا زَمَنًا، وَلَكِنَّهَا تَنَائِي وَهُوَ فِي قِمَّةِ شُعُورِهِ بِاللَّذَّةِ الْمُطْلَقَةِ، فَيَخْبُو وَرَاءَهَا فِي
لَهْفَاتٍ، ثُمَّ يَغْدُو فِي لَهْفَاتٍ، وَهِيَ تَنَائِي وَتَنَائِي حَتَّى تَحُورَ فِي كَوْنٍ مِنَ الضَّبَابِ
يَحُولُ الْأُفُقُ دُونَهَا، وَيَنْقَطِعُ بِالْحَيِّ الْمَسِيرُ فَيَسْتَعْرِقُ حَالِمًا، هَائِمًا، فَقَدْ سَقَطَ فِي
السَّرَابِ، تَطَوَّفَ بِهِ وَتَنَازَعَهُ أَحْلَامُ الْمَاءِ.

وَإِذَا يَضْطَرِعَانِ، كَانَ النَّبِيُّ يُهَيِّجُ حَرَكَاتِ طُفُولَتَيْهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي هِيَ رَمْزُ
عَبَثٍ فِي جِدٍّ، وَجِدٍّ فِي عَبَثٍ، تَنْتَظِمُهَا بَرَاءَةٌ مَارِحَةٌ.
فَيَقُولُ: «إِيهَا حَسَنُ».

قَالَتْ فَاطِمَةُ: أَتَسْتَنْهَضُ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ؟!

قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ يَقُولُ: «إِيهَا حُسَيْنُ!».

وَجِبْرِيلُ رَمْزٌ مِنَ الْمُطْلَقِ، وَأَسْمٌ مِنَ الْمِثَالِ، وَفِي لَحْظَةِ اسْتِعْرَاقٍ وَاسْتِعْلَاءٍ
طَافَتْ بِنَفْسِ النَّبِيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ بَرَزَتْ مُجَسِّمَةً وَمُكَبَّرَةً، وَهِيَ تُشَارِكُهُ نَشْوَتُهُ

(١) المَدَاحِي: أَخْجَارٌ، كَانُوا يَخْفِرُونَ خَفِيرَةً وَيَذْحُونَ فِيهَا بِتِلْكَ الْأَخْجَارِ، فَإِنْ وَقَعَ الْحَجَرُ فِيهَا فَقَدْ غَلَبَ
صَاحِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ غُلِبَ، وَالذُّخْوُ زُمِّي اللَّاعِبِ بِالْحَجَرِ وَالْجَوْزِ وَغَيْرِهِ. أَيْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْغُولِ الْيَوْمَ.

وَبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ حِيَالَ مَرَحٍ سِبْطِيَّةٍ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوْهٍ، فَهُوَ رَمْزُ رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ رَمْزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ التَّمْثِيلِيِّ رَمْزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِيهَا حُسَيْنُ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوَيْنَا آخِذاً نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يُدْخِرُهَا الْأَفُقُّ عَلَى الرَّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكَلُ أَبَدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَةً تَطَالِعُ الْمَجْهُولَ.

وَكَانَ الرَّايكِبُ أَبَا ذُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينَ الَّذِي ضَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْلِيلاً تَنَاثَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَبَقِيَتْ أَشْوَائِكُهُ الْقَاسِيَةُ تَأْبِرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذُّكْرِى، وَخَلَجَاتِ الْحَيْنِ، وَرَجْفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوُّدَاتِ الطَّيْفِ^(٢).

وَالصَّخْرَاءُ يَنْبُوغُ ذِكْرِيَّاتٍ سَيِّمًا لِنَفْسٍ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكَسَّرَتْ أَصْدَاءُ الْأَسَى فِي أَذُنَيْهِ، فَهُوَ يُحِسُّ بَوَاقِرَهَا فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ فِيهَا صِدْقُ الْحِسِّ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَعَشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ. عَرَّتُهُ، وَالْمَطِيَّةُ تَتَهَادَى بِهِ، هِرَّةٌ شَجِي، وَتَأَوَّدَتْ فِي أُعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ نَاطِرِيهِ طُيُوفُ رَامِزَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلِيًّا، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيئاً، وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دَيْجُورُهَا، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرُهَا قَبْلَ أَنْ آتَبْدَأَ الْمَسِيرَ، فَهُوَ مَعَ السَّحْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلٍ أَنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التَّخِيلِ وَمَعْقِدِ الْإِطَامِ

(٢) عَيْنِيَّةُ أَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفْجِيعِ وَمِنْهَا الْبَيْتُ الذَّاهِبُ مَثَلًا:

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

قُبِضَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَعُيُونُنَا تَذْرِي الدُّمُوعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ
قال: فَأُصْحِيْتُ مِنْ مَنَامِي فِرْعَاءَ، فَتَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الذَّابِحِ، فَأَوَّلُهُ ذَبْحاً
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَحَثَّتُ رَاحِلَتِي وَسِرْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئاً أَزْجُرُ بِهِ، فَعَرَضَ لِي
شَيْهَمٌ، قَدْ قَبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْهَمُ يَقْضُمُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،
فَزَجَرْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْهَمٌ، شَيْءٌ هَمٌّ. وَآلِئِوَاءُ الصَّلِّ: تَلَوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذْرَكْنِي حَيْرَةً مُتَلَطِّئَةً عَرَضَ لِي فِيهَا شَبَحُ إِنْسَانٍ مُجِدٌّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاحِلَتُهُ
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ الْإِنْقِطَاعُ بَلْ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،
يَخْطُو خُطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!

«فَمَدَدْتُ الْخُطَى مَدّاً عَنيفاً حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ
كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهَمُّ فِي ذُهُولٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.
فَقُلْتُ: مَا الْخَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!

فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِياً، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجِئاً،
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟

قِيلَ: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ^(٣).

وفيما أنا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠.

الصُّحراءِ فَتَبَيَّنَتْهُ، فإذا هو مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَرَّتْهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ صَامِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَ وَانْفَجَرَتْ مَعَهُ بِدُمُوعٍ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوْعَةً، وَالْأَسَى لَذْعًا، وَكَانَ
نَشِيجُهُ مَرِيرًا كَمَنْ ثَكَلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مِيتَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَاخِجَةٍ، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا
هُنَيَّاهُتَ وَفَتَنَاتُ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دَرَاكًا حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَتَمَاسَكُ، فَأَخَذَتْهُ إِلَيَّ
وَهُوَ نِضْوٌ يَتَشَنُّجُ، وَشِلْوٌ يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايٍ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمَرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَزُودَ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ
يَزُغِبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيَخْرُجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُحِضَّةِ الْقَاتِلَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَادُ يَرَى
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَزْمَةُ نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرَى تَبْعَثُ نَفْسَهُ أَشَدَّ آلْتِياعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنَاقِ، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَّ بِالْإِزْتِياعِ
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسَ شُعُورًا
سَلْبِيًّا مُبْهَمًا لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْإِزْتِياعِ وَبُرْحَاءُ الْأُحْزَانِ، فَإِنَّ
الْمَشَاعِرَ، عَلَى اخْتِلَافِهَا، نِشْبِيَّةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا بَلَغَتْ غَايَتَهَا
هُبُوطًا، أَوْ آرْتِفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابِيَ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَفْرِقَ فِي لَحَظَاتِ
الْمَرَاةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ غَدَتْ
لَاغُضُوبِيَّةٌ دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ حَقِيقَةً رُوحَ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَاذٌ بِإِحْسَاسٍ وَجِدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِيُوَاجِهَ أَشَدَّ أَنْوَاعِ
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاحِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيُفْضِلُ كَثِيرًا، خَيْرَةً

الأسى اللاشاعرة، والغفوة في الألم على أن يظل في يقظة الآلام.

وقف دون البيت طويلاً ثم قرع الباب، وما أشدها وأمرها مصادفة، فقد
«برزت إليه فاطمة» تجول في مآقيها غصارة حب خالد، وتعلقت في أهدابها
الواسعة دمة كبيرة، ليتها سقطت!...

وفي ناحية من البيت رأى الحسين، وليد النبي المحب، منكشاً على نفسه،
يدير لحاظه فلا يرى إلا دموعاً، فغرق في الدموع، وكان بين حين وآخر يناجي
نفسه، ويطارحها في حديث خفيض مسموع.

أبتاه!.. أين هو؟ لم أعد أراه! أليس لي أن أراه بعد اليوم؟ بالأمس القريب
كان يلاعيني، كيف نأى؟ لم يعد لي، بعد الآن، حنان ذلك القلب الكبير!!
فيزيد الفجعة ويحرك النسيج، ومعاذ حال أمم هذا المشهد مستغرق، إنه
لم يعد يحس بشيء، إنه غدا خلا من كل شعور...

*

مات محمد البشري ليخلد محمد النبي...
فاستعبر الحسين لأوليها بالعاطفة والحنين...
وافتدى ثانيهما بالدم القاني الصبيب...
حينما حاول مس جلال الخلود، غواة محققون...

*

بعد أشهر معدودات رزية أمه الزهراء وملاكه الآخر...
الذي كان يشع عليه بالأمل الهاني والسعادة الحائلة...
فجمدت في عينه دموع وفي قلبه دموع...
جعلته، في حياته كلها، ينظر إلى الأفق البعيد...

يَوَدُّ لو يَذوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِعِ من كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْراءِ...

*

مِرَارَةٌ قَاتِلَةٌ على قَلْبِ غَضٍّ، هَبِطَتْ فَجْأَةً فَانْتَقَلَتْ به من حالٍ إلى حالٍ...
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَتَنَظَرَ إلى الحَيَاةِ من فَوْقِ كُوءِ الرِّغْبَاتِ فَرَأَى حِمَاءُتُهَا...
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطَّهَوْرَ، فَتَمَدَّدَتْ وَأَنْتَفَخَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصُّرَاعَ...
فَتَقَرَّزَهَا وَاسْتَعْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فِيهَا دَفَقَاتٍ مِنَ النِّبْوَعِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ
مُطَهِّرُهَا...

ولم يَزَلْ يَسْتَعْلَى حَتَّى لم يَعُدْ يُرى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى في التَّخْلِيْقِ بِإِسْعاةٍ
وَأَغْتِمَاضَاتٍ...

* * *

مِن أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي

مع خليفة

في قِمة المَجدِ العَرَبِيِّ، حينَما كَانَتِ الرّايَةُ الإسلاميَّةُ تُنَسَّجُ وتُنظَّمُ خُيوطُها
مِنْ مَمَالِكِ العَالَمِ القَدِيمِ، وتَتَهَادى مُتَطَاوِلَةً في الفَضاءِ، كَأَنَّهَا تُوشَّحُ الآفاقَ، وتُطِلُّ
على عَالَمِ يَمُورُ بالخُلُودِ، وتَحْتَضِرُ جَدَاوِلَ الأَبَدِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ يُبَارِكُ هَذَا المَجدَ ويقولُ كَلِمَتَهُ بِلِسَانِ التَّارِيخِ، وَيُودِّعُ عَالَمًا يَدْفَعُهُ بِمَنَكِبَتِهِ،
وَيَسْتَقْبِلُ عَالَمًا بِكِلْتَا يَدَيْهِ.

عَالَمٌ مِنْ طَوْبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّهَا طَوْبَى مُتَحَيِّزَةٍ تَحَيَّرَ الوَاقِعُ، وَمُتَأَلِّقَةٍ تَأَلَّقَ
الشُّعَاعُ، وَهِيَ، إِلَى هَذَا، مِلْءُ السَّمْعِ والبَصَرِ، وَمَرَادُ الأَمَانِي... عَالَمٌ أَنْطَبَعَ على
آفَاقِهِ وَجْهُ مُحَمَّدٍ فِي هَالَةِ القُرْآنِ، والقُرْآنُ هُوَ اللُّوحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الحَقِيقَةُ الخَالِدَةُ أَنْ
تَبْرَزَ فِيهَا كَامِلَةً، قَدْ نَضَّتْ عَنْهَا شَتَّى الأَثْوَابِ.

جَلَسَ على أُرَيْكَةِ هَذَا العَالَمِ الجَدِيدِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الخُلُودِ، وَلَمْ
تَكُنْ هَذِهِ الأُرَيْكَةُ، أَوْ العَرْشُ، إِلَّا مِنْبَرُ المَسْجِدِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ،
وَيَهْتِفُ بِلِسَانِ السَّمَاءِ، يَهْدِي التَّائِيهِينَ، والأَثِيرَ، مِنْ وَرَائِهِ، يُرَدِّدُ النِّدَاءَ أَبْعَدَ مَا
يَتَنَاهَى، فَمَحَا كَوْنًا وَأَثَبَتْ كَوْنًا، وَظَلَّ يَمْتَالِ الحَقِيقَةُ البَاقِيَّةُ بَيْنَ الكَوْنَيْنِ، وَصَوْتُ
اللَّهِ فِي وَغْيِ العَالَمِينَ مُتَجَاوِبًا بِصَدَى الأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهابٌ واستِصْناعٌ عَظَمَاتٍ مُزَيَّفَاتٍ، وإنما كان المُنْبِرُ فيه هو العَرْشُ، والمُنْبِرُ رَمَزٌ يُشِيرُ إلى الكُورَةِ الَّتِي شَعَّ مِنْهَا الْهُدَى، وَأَنْبَثَقَ مِنْهَا الضِّيَاءُ. وكان المَسْجِدُ فيه هو البلاطُ، والمَسْجِدُ رَمَزٌ يُشِيرُ إلى التَّلَاشِي فِي الرُّوحِ، والفَنَاءِ فِي الإِشْرَاقِ، والنَّشُوءِ الوَاعِيَةِ فِي التَّأَمُّلِ وَالْأَسْتِغْرَاقِ.

وَقَفَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، وَكَأَنَّمَا زُورِيَ الْعَالَمُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَتَنَازَحَ فِي مُحَدُودِ مَوْضِعِهِ، وَالنَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ يُصْغَوْنَ، وَالْكُونُ مِنْ وَرَائِهِ يَسْمَعُ وَيَخْشَعُ... وَمِنْ أَقْصَى الْمَسْجِدِ جَاءَ يَخْطُرُ بَيْنَ الصُّفُوفِ الْحُسَيْنِ، وَلِيدُ النَّبِيِّ، حَتَّى بَلَغَ مِرْقَاةَ الْمُنْبِرِ فَمَا تَهَيَّبَهَا، بَلْ صَعِدَ رَابِطَ الْجَأْشِ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ عُمَرُ، فَشَارَكَهُ مَوْضِعَهُ.

وَكَانَ مَنَظَرًا بَدَا غَرِيبًا، أُعْطِيَ النَّاسَ لَحْظَةً أَنْتَبَاهٍ شَرَعُوا مَعَهَا يُتْلَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَتَهَاَمَسُونَ، لَحَظَاتٌ ذِكْرَى أَنْتَقَلَتْ بِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ زَمَنٍ يَعْيشُونَ فِيهِ إِلَى زَمَنٍ يَحْتَوُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ ظَلَّ شَائِعًا حَيًّا فِي الْخَطَرَاتِ الْحُلُوءَةِ، يَوْمَ كَانَ الْحُسَيْنُ يَتَّخِذُ مَوْضِعَهُ إِلَى جَنْبِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ، فِي هَذَا الشَّكْلِ وَهَذِهِ الصُّورَةِ.

ذِكْرَى سَعِيدَةٌ جَرَتْ وَرَاءَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّاشَعُورِ، وَتَمَدَّدَتْ فِي تَأَمُّلٍ طَوِيلٍ، وَكَانَ اسْتِغْرَاقًا كُلُّهُ السَّكِينَةُ وَالْاطْمِئْنَانُ، وَإِنْ بَدَا كَالْوُجُومِ الرَّانِي.

شَخَصَ النَّاسُ إِلَى الْغُلَامِ يَنْتَظِرُونَ مَا سَيَجِيءُ بِهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ، وَكَانَ الْغُلَامُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ اسْتِغْرَاقًا، وَأَكْثَرَ نَفُودًا فِي الذِّكْرَى، فَرَاخَ يُمَلِّئُ نَاطِرِيهِ وَيُمْتِعُهُمَا مِنْ أَسْتَيْقَظَتْ نَفْسُهُ عَلَى أَنَّهُ جَدُّهُ.

هُوَ شَدِيدُ الْحَنِينِ، وَشَدِيدُ الْهَوَى إِلَى أَنْ يَرَى جَدَّهُ وَقَدْ فَصَلَ عَنْهُ زَمَنٌ كَانَ طَوِيلًا فِي حِسِّ الْقَلْبِ، وَكَانَ خَيَالًا شَدِيدَ الْأَسْرِ لَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيهِ جَدُّهُ وَجَمَ مُلْتَاعًا، فَقَدْ أَنَهَارَ مَا أَجْتَمَعَ فِي خَيَالِهِ مِنْ لَذَازَاتٍ دُفْعَةً، كَمَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا

يَشْتَهِي، وهو في أدق فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّذْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خَيَالٌ بُهِتَتْ بِهِ لَذَّةٌ، وَطَفَا فِيهِ خَيَالٌ آسَتَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لَعْمَرٍ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّي الصَّارِمِ: «إِنْزِلْ عَنِ مِثْبَرِ أَبِي وَأَذْهَبْ إِلَى مِثْبَرِ أَبِيكَ»... فَاشْتَمَلَهُ عُمَرُ وَحَنَّا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ دِيْمُقْرَاطِيَّةِ الْحَقِّ وَالْاعْتِرَافِ الْفَكِيهِ الْجَمِيلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْبَرٌ... وَمَالَ عُمَرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرْقُبِ وَالْامْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَحَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطِلُّ مِنْ نَافِذَةٍ مُقْلَتِيهِ الْبَطْلُ...»

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أُعْجِبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أُخِذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَرَأَى لِزَامًا عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى تَصْرِيفِ الْمَقْدَرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغْشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَحْدَاثٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّ لَهَا عُمَرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيْبًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصَّصَا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزُورَانِهِ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَانْقَلَبَ ابْنُ عُمَرَ، وَانْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بَعِيداً حِينَ صَادَفَ عُمَرَ، فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، الْحُسَيْنَ، فَقَالَ لَهُ:
«لَمْ أَرَكَ»... فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حِيلَ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ آبْنِهِ وَالْدُّخُولِ، وَكَيْفَ رَجَعَ
مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمَرُ، بِشَكْلِ الْجِدِّ، إِشْعَاراً بِالْفَرْقِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي
فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ آبْنِ عُمَرَ. إِنَّمَا أَتَيْتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»...
وَصَمَتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،
وَأُذُنِ الْأَبَدِ...

جهاد الشباب

حينَ كَانَ الفَتْحُ الإسلامي يَضَعُ إحدى قَائِمَتَيْهِ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ، والأُخْرَى
عِنْدَ بَابِ الغَرْبِ - يَفْرَعُ عَلَيْهِ هُجُوعُهُ وَيَنْقُضُ عَنْ جَفْنِي الغَرْبِ الباقياتِ من رَقْدَةِ
الأيامِ، والهباءِ التي اسْتَحَالَتْ إلى ظَلامٍ كَثِيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وَبَيْنَ يَدَيِ
حَيَاتِهِ، كَأَنَّمَا لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةٍ مِنْ صَحْوَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقًا،
وَذَهَبَ غَرْبًا، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ حَجَرَ الأساسِ فِي قَاعِدَتَيِ قَوْسِ النُّصْرِ مُبَارِكًا.
كَانَ حُسَيْنٌ يُنَاهِزُ الثَّانِيَةَ والعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ، حينَمَا ذَهَبَ جُنْدِيًّا يُلَوِّحُ بِشُعْلَةٍ
البَغْتِ والإِضْلَاحِ فِي الحَمَلَةِ إِلَى الغَرْبِ.

وكانَ جَوًّا حَمَاسِيًّا ذَلِكَ الجَوُّ الَّذِي صَبَغَ المَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ نَائٍ
مُجْهُولٍ، تُحِيطُ بِهِ الصَّخْرَاءُ، وَتَغْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ - والصَّخْرَاءُ مُحِيطٌ زَاجِرٌ
تَقُومُ فِيهِ الرَّمَالُ مَقَامَ المَاءِ - إِلَى عَاصِمَةِ مَرْكَزِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيهَا الحَرَارَةُ وَتُوزَّعُهَا، إِلَى
قَلْبِ عَالَمٍ تَخْفُقُ فِيهِ الحَيَاةُ، وَيَنْبِضُ بِالخَلَجَاتِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ.

فِي هَذَا الجَوِّ الحَمَاسِيِّ كَانَ التَّسَابُقُ عَلَى الجِهَادِ قَدْ اتَّخَذَ شَكْلَ مُبَارَاةٍ بَيْنَ
الشَّبَابِ والكُهُولِ، وَمَنْ دُونَ الشَّبَابِ وَمَنْ فَوْقَ الكُهُولِ.

هِيَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَهَا رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وَفِي غُرُوبِهَا عُصَارَاتٌ مِنْ
حَيَوَاتٍ فَائِضَةٍ، تُجْرِيهَا فِي جِسْمِ العَالَمِ المُمَدَّدِ المَحْتَضِرِ، وَتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوبِهَا،

فَتَمَشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشَى الرُّوحُ الَّتِي تَمَشُّهُ بِتَيَّارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَرْهُوَّةٍ، هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُشِيرُ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْغَلَمَةُ يَتَقَاذَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعَلِيَّةُ يَتَحَايُونَ بِالْعِمَارِ^(١) وَالْمَسْرَةِ^(٢). فَقَدْ تَرَكَوا لِأَعْصَابِهِمُ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّعْبِيرِ عَنِ آزْدِهَائِهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِنْتِصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرْقَةٍ، وَأَنْكِفَاءِ الْبَرْبَرِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَنْتَى ذَهَبْتَ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي جُمُوعٍ، مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَمُرُّ بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ غَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لَحْظَةً أَنْتَبَاهٍ وَشُكُونٍ أَلْقَتْهُمْ فِي ضُمُوتٍ مُتَسَائِلٍ نَاطِقٍ، وَمَا حَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى أَلْتَفَوْا عَلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمِعْصَمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاسْتَوَى عَلَى الرِّكَابِ مُنْتَصِيباً، وَخَاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهْوَرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُشْتَعِلِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أَيُّهَا الْأَنْصَارُ! أَيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفْسِحُوا لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي! فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ... وَقَفَ الرَّجُلُ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ: «إِنَّ مُجَرِّيرَ الْمَمْلَكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَخَشَدَ الْجُنْدِ مِنْ أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ، لِلْإِحْدَاقِ وَالْإِيقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالرَّيْحَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُخَيَّا بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا الْعِمَارَ.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّيَاحِينَ يُخَيَّا بِهَا، وَيُقَالُ سَرَّةٌ أَيْ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وبات الخطب على قاب قوسين أو أدنى. وإن عتبة بن نافع، قائدنا المظفر، قد بات في ضائقة من الأمر، ولكنه مستبسل أشد استبسال. يكافح كفاح المستميت في الدفاع والهجوم ومداورة الخصوم، وهذا يؤم له ما بعده.

فإلى الجهاد أيها المؤمنون! إلى القيام بالتزامات العقد بينكم وبين الله، على تجديد العالم، وأخذه بالمبادئ الإنسانية الفضلى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم». إن إخوانكم، من قبل، رؤوا الرمال الراهية إلى أفريقية بدمائهم الصبيية، وهم أسخياء، وبنوا من جماعيتهم معاقل الصخراء. وها هي دماؤهم اليوم تناديكم وتستصرخكم بصوتها الرجاف الرعود، من وراء الرجم وتستندبكم إلى التضحية.

فإلى الكفاح! إلى النصر!

وما هو حتى اختلط صوته بأصوات الجموع، وذاب في دويها العميق: بل إلى الشهادة! إلى الموت!... وبقيت الأصداء يرددها الفضاء، ويطوف بها الأثير في كبرياء وخيلاء.

وتدقق الناس على التطوع، وكان في «مقدمتهم الحسن والحسين وعبد الله ابن عباس وعليه لا تحصى» وخفوا راجلين:

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبح لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تضاهاي خيل، خلال ذاك رغاء

ولم يكن طويلاً حتى هبطوا مصاف القتال، فأخذوا مواضعهم، ودارت رحي الحرب أمداً ليس بالقصير ضاق الخناق فيه على البزير، فأنكفؤا متمزقين

يَتِيهُونَ بَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَبَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ «أَنْتَظِمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الذَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»
بِإِذْنِ نَفْسِهِ، مُضْحِياً حُزْبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ
ظِلَالِهَا الدَّامِيَةِ وَبُنُودِهَا الْحَمْرَاءِ.

كَانَتْ الْأَنْبَاءُ عَنْ تَضَحُّيَةِ الشَّبَابِ وَاسْتَيْسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً
وَبُشْراً. وَكَانَتْ حَدِيثَ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأَنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْعَطَفَاتِ
الطُّرُقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَيْئَةٍ تَجِدُ فِي هَذَا التَّنَوُّعِ مِنَ اللَّهْوِ تَسْلِيَةً
رَائِعَةً، وَتُحِشُّ بَظْماً إِلَى الصَّخَبِ، يَمُدُّهُ الْفُضُولُ أَخِيَاناً فَتَمَلُّاً جَوْ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا
اللَّوْنِ مِنَ الْأَنْعِمَاسِ فِي الضَّجِيجِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، بَيْنَهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ،
يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَفْتُّحُ
بَرَاعِمِ الصُّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبَعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفَيْئَةُ الشَّبَابِ هُمْ أَشْعَةُ
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةٍ تَأَلَّقُهَا، فَإِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرَ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةٌ كِمِثْلِ الرَّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرَّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمُّعُ فِي
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ خَنَايَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التِّيَّارَاتُ،
فَتَتَدَفَّقُ جَيَّاشَةً هَادِرَةً.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تِيَّارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَ الْخَزَانُ مَمْلُوءاً بِالثُّقُوبِ
وَالشُّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَتْ قُوَاهَا، وَغَاضَتْ بَيْنَ الْوَهَادِ
وَالْحُزُونِ مُتَرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ
يُمَدُّهَا شُعُورٌ بِالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَحِشٌّ مُزْهَفٌ بِالتَّبَعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْواً،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخُوخَةٌ فَانِيَةٌ.

وَشَبَابُنَا الَّذِينَ آتَبَعْتُهُمُ الْمَبَادِيءَ آتَبَعَانَا، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَيَّارَاتُ الْقُوَى، أَنْطِلَاقًا يَنْتَهِي بِالسَّيْلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَغْمُرُ حَتَّى الرَّبِّي، لِيُنْكَشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَدْنَى مَا بَدَلْنَاهُ أَنْفُسُنَا - وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّالُ كِفَاحٍ - لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ شَبَابُهُمُ الْغَضُّ وَجِهَادُهُمُ الْمُظْفَرُّ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْتِبَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضْجِيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةَ رَعْنَاءِ وَزَنَانِيَّةٍ^(٣) حَقْوِدٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةُ (أَرِسْتَقْرَاطِيَّةُ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيَّةً فِي بَوْتَقَةِ الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ النَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْفُلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةٍ الدَّمَاءِ وَالْثَّرَاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضْجِيَاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سِبْطُ النَّبِيِّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَيِّ جُنْدِيٍّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِدًا أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رَوْحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيُغْدُوَ كَائِنًا حَيًّا رَائِعًا، وَإِلَّا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْبِإٍ مَجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ رَمَزًا مِنْ رُمُوزِ التَّارِيخِ...

فَأَطْرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفَّوْا إِلَى رَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرْدُّدُونَ قَوْلَهُ:

«وَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْبِإٍ مَجْدٍ فَقَطْ...».

* * *

(٣) الرُّمَانِيَّةُ تُرَادِفُ الْأَنَانِيَّةَ تَمَامًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَامَى، وَالزَّنَانِيَّةُ: الْأَنَانِيَّةُ كَذَلِكَ.

في الثورة

مِنَ المَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ والعِرَاقِ واليَمَنِ والشَّامِ، خَيِّمَ جَوْ مُكْفَهَرٍ
يُنْذِرُ بِشَيْءٍ. وَكَانَتْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطًا بَعْدَ خَيْطٍ،
وَتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدِّمِ الْحَائِقِ، أَوْ لَوْنُ الشَّفَقِ الَّذِي أُطْبِقَ بِهِ
لَيْلٌ بِهِيم.

وَكَانَ الهمسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْأَسَى الْغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ أَشْتِعَالًا بِالذُّكْرِى والتَّزْدَادِ. فَقَدِ
أَسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحَبَّبٍ بَلْ كَرِهَهُ بَغِيضٌ، أَسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا نِضَالًا هَادِرًا وَتَنَاحُرًا رَهِيْبًا، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا شَعْبًا يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ الْمَسَاوَاةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةُ مُعْدِمَةٍ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوَرٌ بِمَا أَبْدَتْ مِنْ
قُوَّةٍ وَقَدَمَتْ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحْرِزُ كُلُّ قُوَى النَّشَاطِ
وَتَدْخِرُ مَقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطًا دَرَجٌ عَلَى الشَّخَرِيَّةِ وَالْعَمَلِ فِي
الْأَرْضِ، فَيَظَلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيًّا وَبَطْنِيًّا فِي إِعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطًا فُرُوسِيًّا،
وَالْفُرُوسِيَّةُ أَعْتِدَادِيَّةٌ وَشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الْفُتُوحُ إِحْسَاسًا بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلًا تَنَافُريًّا مَعَ الْوَضْعِ الْجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْقَدَحَتْ وَقَذَفَتْ بِالشَّرْرِ

إلى مكان قصبي.

والشعور بالذات قاعده الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولد فيها السادة من أي نوع كان، وتظل أبداً تواقفة إلى الإصلاح آخذة بأسبابه متقلبة في مدى أطواره.

ركدت الفتوح فنضبت أهم موارد الدولة، وكان العمل السياسي قد اتجه، فيما سبق هذه الحقبة، إلى جعل العرب مادة حرب فقط، فلم ينالوا نصيباً في الأرض. ولكن الجندي لن يبقى جندياً أبداً خصوصاً والدولة العربية قد أخذت الأمم بحرب إصلاحيّة عالميّة، فكانت حاجتها إلى الجنود كبيرة غير مقتصدة، فشملت العرب عامة، وسرعان ما وفق العرب إلى غايتهم، وسرعان ما أدوا رسالتهم، فركدت حرارة الفتح إلى درجة الهمود، وعجزت الدولة بعد ذلك عن كفايتهم، فإذا هم طبقة فقيرة غاية في الفقر والخصاصة والعدم، وإذا بجانبهم طبقة أخرى ثرية غاية في الثراء، وهي لم تجهد أي جهد ولم تبل أي بلاء، وإنما امتصت وتملأت.

كبر على هؤلاء أن يستسيغوا وضعيّة نايّة بغیضة على هذا الشكل، لا سيما والإسلام في تشريعہ جعل للمحارب نصيباً في المغنم كافة، وبذلك مكنه من أن يتحول رجلاً مدنيّاً، دون أن يكون كلاً على الدولة والخزينة العامة. ولم يقرر الإسلام الجنديّة نظاماً دائماً، لأنه لا يزومي إلى أن يجعل من حكومته دولة حرب، بل سنّ الجنديّة، عند الضرورة، من المدنيين أنفسهم، وبهذا ضمن شيئين خطيرين:

١ - جعل مسؤولية الدفاع عامة، لكي يشعر بها الشعب شعوراً شاملاً بدون تفاوت.

٢ - الحد من طغيان الجنود وروحيتهم، حتى لا يدفعوا الدولة كل حين إلى

مَضَائِقِ حُرُوبٍ جَدِيدَةٍ، فَالْإِسْلَامُ وَضَعَ فِي نِظَامِهِ مَا يَحُولُ بَيْنَ الدُّوَلَةِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وَبَيْنَ حَزْبِ الْأَطْمَاعِ.

وَكَانَتْ الْهُوَّةُ تَتَسَيَّعُ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ اتِّسَاعاً عَظِيماً، وَعَلَى شَكْلِ مُخِيفٍ، كَمَا أَخَذَ الْوَضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ حَتَّى اسْتَفْحَلَ شَرُّهُ، وَبَاتَ يُنْذِرُ بِخَطْبٍ خَطِيرٍ وَأَنْكَفَاءٍ أَنْقِلَابِيٍّ كَبِيرٍ الْأَثَرِ. وَزَادَ فِي يَقْظَةِ الْخَطْبِ تَنَاخُرُ الْأَحْزَابِ الْكَثِيرَةِ^(١)، فَهَنَّاكَ أَحْزَابٌ رَأْسِيَّةٌ أَهْمُهَا:

حِزْبُ الْأُمَوِيِّينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ الْمُتَسَيِّينَ إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ، وَآبَتُهُ مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ ابْنُ الْحَكَمِ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

وَالْحِزْبُ الشُّعُوبِيُّ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَجُفَيْتَةُ النَّجْرَانِيُّ، وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ، وَهَذَا الْحِزْبُ كَانَ صَنِيعَةً لِلْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ، وَمُنْقِذاً لِأَغْرَاضِهِ الدَّمَوِيَّةِ وَمَارِيهِ الْإِزْهَابِيَّةِ.

وَحِزْبُ الْمُحَافِظِينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَالْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

وَحِزْبُ الشُّعْبِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَالْأَشْثَرُ النَّخَعِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذِيقَةَ، وَكَانَ هَذَا الْحِزْبُ يَسْتَنِيْمُ إِلَى سِيَاسَةِ حِزْبِ الْمُحَافِظِينَ، وَطَابَعَهُ أَنَّهُ ثَوْرِيٌّ غَنِيْفٌ.

وَحِزْبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَآبَتُهُ قَيْسٌ، وَالْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ، وَكَانَ أَهْمُ أَهْدَافِ هَذَا الْحِزْبِ مُنَافَسَةُ الْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ وَتَحْطِيمُ مُحَاوَلَاتِهِ.

وَالِى جَانِبِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ كَانَتْ تَقُومُ أَحْزَابٌ أُخْرَى ثَانَوِيَّةٌ أَهْمُهَا:

(١) رَاجِعْ تَفْصِيلَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ: تَارِيخِ الْحَسَنِ: نَقْدٌ وَتَحْلِيلٌ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ الْعِرْفَانِ، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وَحِزْبُ أُنْبَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُنْشَقُّ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ.

وما إن استحوذ الحِزْبُ الْأُمَوِيُّ عَلَى شُؤْنِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْفَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبْهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنَ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَعْبِئَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيَاظَاتُهَا وَقِيَمُهَا، الَّتِي تَهْبِئُهَا حُقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِئِهَا تَفَاتٍ لِنَفْسِهَا مِنَ الْاِعْتِبَارَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُخَوِّلُهَا آتِيَهَابَ كُلِّ غُثٍّ، يَغْرُمُ بِسَبِيلِ حَيَازَتِهِ سَوَادَ الْجُمْهُورِ.

وَكُلَّمَا وَجَدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا حُقُوقٌ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجَدَ لَدَيْهَا شُرُوعَ أَنْوَاعِ التَّطَقُّلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْثَقِلُ هَذِهِ الْاِعْتِبَارَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَنْتَقِضُ الْاِنْسِجَامُ وَالتَّوَازُنُ الْاجْتِمَاعِيَّانِ، وَيَنْسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُرْهًا، فِي مَآزِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمَظْهَرُهُ الْكَالِخُ الرَّهِيْبُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلِكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٍ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوَلَ الْكُرَّةُ، فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانٍ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَبْنَائِكُمْ وَرَاثَةً»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَادَ الْعِرَاقِ بُشْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاجِشَةُ تَصِيرُ وَتَجْتَمِعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَرْوَانُ يَسْتَبِدُّ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذْهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ ذَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدٍّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا سَوَاءً فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ فَوْضَى دُونَ مَا شَكُّ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه الفوضى دون ما ريب، والفساد يُبيح الثورة، فتدافعت
الجموع في تياراتها.

كان الرائد الطواف بين مصر والحجاز والعراق، والذي يجوب متردداً بين
هذه الأقاليم يلتمس، ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقا وثورة، كان يرى
بؤساً في غير حد وشقاء مخيفاً، وفقراً متغولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس
يتوزع هنا وهناك، ليجمع ويأْتلف خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمن
قريب، رمز الفخار العربي والإسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق
أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبدخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثروة،
دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار عدا
عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار،
وزيد بن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس... إلخ. وأيضاً
رأوا أن هذا البدخ المترف جرّ وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سنّ
نهجه النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كوّنت هذه الغضارة واللدانة، في
بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوعها في المجتمع،
فقابلها بكثير من الاستنكار، ولكن لم تقدم، مع ذلك، جماعة من الأنصار،
فتولدت في الوسط دعوة إلى هذا الجديد المائع المثير، ودعاة إلى التجديد الرخو.

بيد أن الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها،
وانتشرت مؤمنة بأفكاره، وصلاحيته كطب للبشرية اللاهثة المحتضرة، فهم
جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا بدع إن استنكرت
الكثرة خطة هذا الجديد، ولا بدع إن تحدوا أنصاره وأتهموهم بالمروق، ولا بدع
إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً، ثم امتد حمياً.

وصادف، في هذه الفترة اللاهية، تطواف رجل نعرف أن اسمه عبد الله بن سبأ، وكان على ما يظهر، إن صح أنه وجد، صاحب نفس حساسة شاعرة، وصاحب فكرة منظمّة إصلاحيّة، من ورائيهما روح ثائرة. فاتّصل بكلّ وسط إسلامي إذ ذاك، واستلهم الحياة العامّة التي انعكست صورتها وألوانها في نفسه، فاستعر ضميره، واتّقدت جوانحه، فلم يكن بُدّ من أن يلتهب، ولم يكن مناص من أن يهتف بالإصلاح وضرورة تغيير الوضع البائس اليائس، وكان عنيفاً في طبيعته، وزادته الحالة العامّة عنفاً، فقد تفاعلت الصفة الحيويّة الشائعة في المجتمع بطبيعته تفاعلاً جعله يثور، وجعله يُبشّر بمبادئ الإصلاح الثوريّة. ولم يكن المجتمع حينذاك في حاجة إلى أكثر من التنادي به واستصراخه، فقد كان بحالة من التوتّر والتفاعل إلى درجة القدح بالأوار.

وهو، إلى هذا، قد اجتمع بأقطاب الحركة الثوريّة في مصر والشام والعراق، وتأثر بهم، ولا سيّما أبو ذر الغفاري الذي ركّز^(٢) أفكار عبد الله بن سبأ، وهذا وجد فيه تنوعاً دينياً ومعنوياً خصباً، يُمكنه أن يستمدّ من أخباره عن النبي، ما يجعله سنداً لأفكاره، فإنّ أبا ذر كان يحدث، من قبل ورود آبن سبأ إلى الشام،

(٢) يُطلّق البسطاء من المؤرّخين، تبعاً لتقديرات آسثيرافيتي مرسلة إرسالاً، أن عبد الله بن سبأ - تلك الشخصية التي هي شبه تاريخيّة، أي خرافيّة، من شدة غموضها إلى حدّ يُبيح لنا إنكارها مرّة - قسّ مجتمعاً بأسره، وهذا منقوض على ضوء البسيكولوجيّة الاجتماعيّة؛ وقتنّ أبا ذر الذي سائر النشوء الدينيّ الجديد في كلّ أطواره. ويتبيّن لنا درجة ما فيها من سخف حينما نعرف أنهم بشخصيّة شبه تاريخيّة يريدون تغيير مخرى حادثة تاريخيّة هامة، ولا شك في أنها طريقة ميتافيزيقيّة يراؤ بها تغليل المعلوم بالمجهول، وما يدرينا فلعلّ عبد الله بن سبأ عنتر اجتماعيّ مثل عنتر الفروسيّ؟ وأنا إذا كنت أستطيع أن أقرّ بهذا الشيء المدعّو عبد الله بن سبأ، فإنّما أستطيع الإفرازه على أنه تلميذ المدرّسة الغفاريّة، ويؤكد هذا أنه من أنصار عليّ بن أبي طالب في الحايب السياسيّ والدينيّ من أفكاره، ومعلوم أنّ أبا ذر من أنصار عليّ، فلو قرّضنا أنه جاء بأفكار مزديكيّة فلماذا لم يختره إلا مناصرة عليّ، وكان أزوج لدعوته لو ناصر ذكرى أبي بكر وعمر. والسبب في نظرنا الذي أذى إلى نشوء مدرّسة أبي ذر ودعوته إنما هو ذلك التورط والتهاكك على مشلك الثراء المتطوّف الذي أحدثت بأشبابه الأقلّيّة الأمويّة وأغوائها، وتروّزها ذلك البروز الأرستقراطيّ واستيغابها الإقطاعي، فكان في ذلك ما أغرى أبا ذر على فهم الشريعة ذلك الفهم.

بأحاديثه المُنسَدة إلى النبي، وكُلُّها تَحْمِلُ عُنَاوِرَ الْأَفْكَارِ الَّتِي أَنْطَلَقَ ابْنُ سَبَأٍ يُرَوِّجُ لها. والذي لَدَيْنَا مِنْ وَثَائِقِ التَّارِيخِ يَشْهَدُ أَنَّ إِعْلَانَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَقَعَ قَبْلَ أَوَّلِ الْتِقَاءِ بَيْنَهُمَا، كَمَا يَشْهَدُ أَيْضاً أَنَّ تَكُونِ شَخْصِيَّةِ ابْنِ سَبَأٍ كَانَ بَعْدَ أَوَّلِ لِقَاءٍ. فَالتَّارِيخُ وَكُتُبُ الْحَدِيثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّ أبا ذَرٍّ كَانَ يُحَدِّثُ، فِي الشَّامِ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ وَقَائِعِهِ عَهْدَ النَّبِيِّ.

قَالَ: «سَأَيْتُ رَجُلًا - وَهُوَ بِلَالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، وَكَانَتْ رَقِيقَةً، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ: يَا أبا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ أَمْرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

يَزُوي أَبُو ذَرٍّ مِثْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، فِي حَقِّ الْمَوَالِي الْأَرْقَاءِ بِالْقَانُونِ، قَصْدَ مُحَارَبَةِ الْوَضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الْأَقْلِيَّةُ جَعَلَ سَوَادِ الْمُجْتَمَعِ أَرْقَاءً أَجْتِمَاعِيَيْنَ.

فَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا، أَنَّ ابْنَ سَبَأٍ كَانَ يَحْمِلُ أَفْكَاراً اسْتَلْهَمَهَا مِنْ حَالَةِ الْمُجْتَمَعِ الْقَائِمَةِ، وَلَكِنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ عَلَى مَا يَزُكُّهَا وَيُوضِّحُهَا، وَيُعْطِيهَا الْغُنْصَرَ الدِّينِيَّ الْمَفْقُودَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أَفْكَارِهِ الْحُرَّةِ، وَبِالْحَرِيِّ أَفْكَارِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ أَبِي ذَرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا بِمَا إِنَّهُ الدِّينُ أَيْضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كَانَتْ أَقَالِيمُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرَةِ مُتَوَثِّرَةً، وَرَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحَسَّ الشَّعْبُ أَنَّ الْأَقْلِيَّةَ الْحَاكِمَةَ تَحِيكُ حَوْلَهُ مُؤَامَرَةً وَاسِعَةً النُّطَاقِ، تُبَالِغُ حَتَّى تَتَّصِلَ بِحَيَاتِهِ، فَانْكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ فِي الْأَقَالِيمِ يَتَأَمَّرُ بِهَا، وَيُنْسِجُ مِنْ حَوْلِهَا شِبَاكَةً، وَلَقَدْ بَاتَتْ الْحَالَةُ الْعَامَّةُ تَجِيءُ فِي كَلِمَتَيْنِ: حُكُومَةٌ تَتَأَمَّرُ بِالشَّعْبِ، وَشَعْبٌ يَتَأَمَّرُ بِالْحُكُومَةِ، وَلَكِنْ لِلشَّعْبِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْعُلْيَا دَائِماً.

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَّأٍ أَيَّانَ مَرَّةٍ، وَأَيْنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَعْتَلِجُ عَلَى جُمُوعٍ،
وَكُتْلُ الْمُؤَامَرَةِ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَتَوَزَّعُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي
الْجَمَاعَاتِ وَتَصْوِيرِ أَحْلَامِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَافْتَنُوا بِهِ وَافْتَنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزُبُّ بَيْنَ
هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضَرُورَةِ الإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ
أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحُمُّساً لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ
يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّرْقِيعِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضَرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَعْنَاهُ أَنْ
الْحَزَقَ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجَعُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ،
فَتَخَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْذُلُ جُهُوداً
جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وَكُتْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، جُهْدَ
الْمُسْتَطَاعِ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَارِيهِ الدَّائِمِيَّةِ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ
الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّسْجِيلِ وَنَصَاعَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بَعُطْفٍ
صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ مُمَكِناً فِيهَا ضَبْطُ أَغْصَابِ
الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنْ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَوْعَنَ
فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ اتَّصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالسُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُمَثِّلِيهِ مِراراً
وَتَكَرَّراً، وَلَكِنْ مَطَالِبَتُهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ الْفَشَلِ، وَكَانَ فَشَلاً ذَرِيعاً
مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُشِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتُهُ الْعَاتِيَّةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ
الْإِنْتِقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكَّزَ الْفِكْرَةُ الثَّابِتَةُ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَطَتْ وَفُودُ الْأَمْصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ
مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا،
وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَغْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلَبُّثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى

يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

سَاءَها، في كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِنْخِفَاقُ الْمُتَقَلِّبِ، فَأُغِيظَتْ كَذِي النَّفْسِ
الْجَرِيحَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْعَهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا
الْمُلْتَهَبَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَةً مُحْتَجَّةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لآلِمِهَا وَبَأْسَائِهَا الْمُشْتَعِرَةِ،
فَكَانَتْ تَضْطَرُّ تَكَرَّاراً وَمِرَاراً بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْحَيَةِ الْمُتَّقِمِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِئَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْمُلتَهَبَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةً إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَافَةِ وَاحِدَةٍ
مُسْتَنْكِرَةٍ، فَاسْتَمَلَ عَلَى حَفِيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكُلُ فِي خَنَائَاهُ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْمَ. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامَ فَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي
عَلَى أَيِّ وَجْهِ فُسِّرَ آتِقَادُهُ، وَيَتَّخِذِي الْمُجْتَمَعُ^(٣) وَالْدَّوْلَةَ، وَكُلَّ أَسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِيّاً
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَسَ مِقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِّ بِالْعَدْوَى، وَتَهَاوَيْتِهِمْ عَلَى الرَّفَاهِ مِنْ
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَسْتَبِيعُ خُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ
حَاجِزاً يُقَارِمُ التِّيَّارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمَبَادِيئِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَهِدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ
النَّاسِ كَانُوا قَدْ آسْتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوهُ وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى
عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّوْرَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضلُ فقط. فعلى الناس إذا أن يُجَلِّوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يُوفِّروا كُلَّ جهودِهِم على تحقيقها وانتهاجِ سُنَنِها وأساليبها. وأما أولئك الذين يَجْمَعُونَ أَكْبَرَ جُهدِهِم وهَمَّهُم على التَّزَيُّدِ مِنْ مَخَارِفِ الحَيَاةِ النَّاعِمَةِ وأسبابِ العَيْشِ الرَّفِيعِ، فإنهم لا يُفَضِّلُونَ، في آغْتِيَارِهِ، عَنْ سَائِمَاتٍ وَجَدَتْ سَبِيلَ حُظُوظِهَا. والإنسانُ عنده، إذا جَمَعَ هَمَّهُ هذا الجَمْعَ، فإنَّه يَنْقَلِبُ حَيَوَاناً فقط ميزته أنه أَقْدَرُ على التَّحَيُّلِ بما فيه مِنَ الْفِكْرِ، وأما الإنسانِيَّةُ فإنَّها غُنُصْرٌ غَرِيبٌ عنه. ولكي يَكُونَ إنساناً، ويظلَّ كذلك، لا بُدَّ له مِنْ حَيَاةٍ أُخْرَى مادَّتُها الْفَضِيلَةُ، والْفَضِيلَةُ، في نَظَرِهِ، هي التَّجَرُّدُ والعَمَلُ.

هو يُريدُنا أنْ نَعْمَلَ ونُكَافِحَ بما آسَطَعْنَا إلى ذلك، كما يُريدُنا أنْ نَتَجَرَّدَ أيضاً فلا نَنعِمَ في مَدَى الْفُتُونِ، يُريدُ مِنَّا سَيْراً بما فينا من حَيَاةٍ عُضُوبِيَّةٍ ذاتِ حَرَارَاتٍ، وَاسْتِغْلَاءٍ بما فينا من رُوحٍ لا تَفْتَأُ تَنْشُدُ الشُّمُوءَ.

وليس أَضَرَّ على الكائِنِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ أنْ يَسِيرَ بِالْحَيَاةِ فَقَطْ، إذْ بهذا يُشْبِهُ سَيْرَ الرِّيحِ تَتَحَرَّكُ وهي قَابِعةٌ بِمَحَلِّهَا. وَفَرَقُ ما بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ أنَّ الثَّانِي تَسِيرُ بِهِ الْحَيَاةُ، وَالْأَوَّلُ يَسِيرُ بِالْحَيَاةِ، وَيَسْتَعْلِي دَوَّماً بِالرُّوحِ الَّتِي هي فِكْرَةُ الْحَيَاةِ وَغَايَتُها وَضَمِيرُها وَأَخْلَاقِيَّتُها. وإذا كَانَتِ الْحَرَكَةُ ضَرُورِيَّةً لِلْحَيَاةِ، وَالْفَضِيلَةُ، الَّتِي هي التَّجَرُّدُ، ضَرُورِيَّةً لِلْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَكِي نَكُونُ أَحْيَاءَ إِنْسَانِيَّينَ يَجِبُ أنْ نَعْمَلَ، وَيَجِبُ أنْ نَتَجَرَّدَ، وَأما إذا عَمِلْنَا فَقَطْ فَقَدْ نَحْرُنَا غُنُصْرَ الْإِنْسَانِيَّةِ فينا وَأَسْفَفْنَا، كما تَتَعَقَّدُ الْحَيَاةُ حِينَ نَضْعُهَا في مُعْتَرِكِ أَطْمَاعِنَا وَشَبَاكِ شَهَوَاتِنَا. فَكَانَ يُوصِي وَيُلْحِظُ أنْ نَعْمَلَ، وأنْ نَتَجَرَّدَ، أَيُّ نَعْمَلَ وَلَا نَدَّخِرَ، فَحَضُّ بِأَقْسَى أَشْلُوبٍ وَأَعْتَفِهِ عَلَى عَدَمِ الْكَنْزِ، وَلَوْحَ ما شَاءَتْ لَهُ فِكْرَتُهُ وَشَاءَ ضَمِيرُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ».

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كُنْزَتْ ولم تَتَجَرَّدْ
أَنَحْضَتْ، وتَوَلَّدَتْ لَدَيْهَا الْأَطْمَاعُ. فَتَحْدَى الدَّوْلَةُ كَمَا تَحْدَى الْأَفْرَادُ، وَحَارَبَ
الْكُنْزَ الْاجْتِمَاعِيَّ، كَمَا حَارَبَ الْكُنْزَ الْفَرْدِيَّ. وَشَنَّا شَعْوَاءَ عَلَى دُنْيَا الْقُصُورِ وَحَيَاةِ
التَّرَفِ، فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرُهُ إِلَى مَا تَمُّ لِلْمِثَالِيَّةِ الْعُلْيَا وَالْأَحْلَامِ السَّامِيَّةِ، فَمَوْكِبُ
الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَوَحَّلَ، وَيَتَقَلَّبَ مَوْكِبُ رُجْمِ إِذَا شَنَّا الْوُلُوجَ بِهِ فِي دُنْيَا
الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَحْسَسَ بِآلَامِ الْبُؤْسِ فِي النَّاسِ، وَأَحْسَسَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَوَسَّلُ
بِالتَّسْمِيَّاتِ الْقَانُونِيَّةِ إِلَى أَنْتِهَابِ الْمُسْتَمَيَّاتِ الْحُقُوقِيَّةِ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَالِاسْتِخْوَاذِ عَلَى
الثَّرْوَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَبْدِيدِهَا دُونَ مُسْتَحَقِّهَا، فَقَدَّرَ وَاسْتَشْتَجَّ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُتَّخِذَةَ هِيَ
ذَاتُ الْحَقِّ الْأَوَّلِ فِي التَّصَرُّفِ بِالْأَمْوَالِ الشَّائِعَةِ. فَتَسْمِيَّتُهَا مَالِ الْخَزِينَةِ بِمَالِ اللَّهِ
الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا الشُّيُوعُ، وَسِيلَةٌ إِذَا لِلتَّلَاعِبِ وَالِاسْتِخْوَاذِ، فَحَمَلَ حَمْلَةً نَكْرَاءَ عَلَى
هَذِهِ التَّسْمِيَةِ الْمَغْلُوطَةِ، وَنَادَى أَنَّهَا مَالُ الْمُسْلِمِينَ، هَذِهِ التَّسْمِيَةُ الَّتِي تُؤَدِّي، فِي
تَسْلُسِلِهَا الْمَنْطِقِيِّ الْحُقُوقِيِّ، إِلَى مَنَعِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وَإِلَى وُجُوبِ تَوْزِيْعِهَا عَلَيْهِمْ
وَتَعَلُّقِ حُقُوقِهِمْ بِهَا.

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَنْ جَعَلَ الْأَنَانِيُّونَ الطَّامِعُونَ يَفِرُّونَ مِنْ
طَرِيقِهِ كُلَّمَا رَأَوْهُ، وَزَادَ فِي تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ وَانْتِشَارِهَا أَنَّهُ كَانَ يَشْفَعُ أَقْوَالَهُ هَذِهِ
بِأَحَادِيثَ مَأْثُورَةٍ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ، الَّتِي
يَسْمَعُهَا مِنْ أَبِي ذَرٍّ، مَا هُوَ الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِرُوحِ الْمُجْتَمَعِ الْبَائِسَةِ، وَوَجَدَ فِيهَا أَيْضاً
خَالِصَ أَفْكَارِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ وَجَدَ فِيهَا مَا تَشْوِقُ إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْمُطَالِبِينَ بِالْإِصْلَاحِ
الْحَائِرِينَ، فَانْطَلَقَ عَلَى سُنَّةِ أَبِي ذَرٍّ يُبَشِّرُ وَلَا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ فِي الْكُوفَةِ وَهُوَ يَذْرَعُ الْأَقْطَارَ، فَرَأَى فِيهَا حَرَكََةً أَقْوَى مِنْ سَائِرِ
الْحَرَكَاتِ الْأُخْرَى فِي الْمُدُنِ وَالْعَوَاصِمِ، فَانْخَرَطَ فِيهَا وَنَظَّمَهَا، وَهُنَاكَ وُضِعَتْ

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسنى بل بالإغراض، فتألبوا، وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في جمل، وبعد لأي أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها، ومهما احتبكت ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تشتمل على:

أ - إبعاد البطانة المشرفة على تشيير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.

ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي، دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.

ج - ضرب اليد على طماعية قريش.

د - الحد من صلاحية الولاة والأمراء، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

هـ - الحيلولة دون الأمراء واستئلال الأهلين.

وقدت الوفود تحت ستار الحج، وهي تخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانتقاد تؤجج كالنار في الهشيم، وقد اتصلت بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان، فقال له:

«التاس ورائي وقد كلموني فيك، وآلله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله وملت صهره، وما أبى أي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا أبى الخطاب بأولى بشيء

مِنْ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ بَيْنِي...»

فَإِذَا آغْتَدَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَتِي أَثَرَ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْغَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ...»

فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِّيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدْكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخَوْفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَأَ^(٤) غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَقْتَطِيعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَمْرُ عُثْمَانَ فَيُبَلِّغُكَ وَلَا تُغَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ».

وَلَكِنْ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوَعِّزُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فَيَقُولُ:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بَطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ إِلَّا يَقُومَ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ جِيَالَ تَرَدُّدِ عُثْمَانَ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، آتَّخَذَ بَطَانَةً أَهْلَ غِشٍّ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

(٤) يَوْفَأُ: اسْمُ غُلَامِ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يَزْعُمُ مِنْهُ رُغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.

وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَايجَهَا وَيَسْتَذِلُّ أَهْلَهَا».

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عُثْمَانَ، وَيَجَبِّهُ سِيَاسَتَهُ عَلَانِيَةً وَيَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَيَفْضَحُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَجْرِي دَاخِلَ دَارِهِ، وَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ كَرَاهِيَّتَهُ، وَيَسْتَغِيلُ الْمُنَاسَبَاتِ وَالظُّرُوفَ حَتَّى قَالَ يَصِفُ نَفْسَهُ:

«أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَكَتُ فُرُوحَةً نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأُحَرِّضُهُ عَلَى عُثْمَانَ...» وَهَذَا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أَرَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَزِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ عَزْمًا وَآمُضٍ فِيهِ قُدْمًا...» وَيُقَابِلُهُ حِينَمَا خَطَبَ عُثْمَانُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكِبْنَاهَا مَعَكَ، فَتُبْ نُسْبٌ...» وَهَذِهِ عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَتَقُولُ وَقَدْ نَشَرَتْ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هَذَا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَنْلَ، وَقَدْ أُبْلِيتَ سُنَّتُهُ...». وَهَذَانِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ الثَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

وَالْجُمُوعُ الْمُتَأَلِّبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالٌ مَا تَرَى وَحِيَالٌ مَا تُحِسُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتَهَا، وَمَضَتْ فِي آدِفَاعِهَا مُتَنَمِّرَةً غَاضِبَةً. فَبَدَلَ عَلِيٍّ كُلَّ جُهْدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلَوَائِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهْلَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، مِثْلَ الْجِبَالِ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمُرَّوَانَ: «أَخْرِجْ وَكَلِّمَهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَرْوَانُ إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَزْكُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«مَا شَأْنُكُمْ قَدْ أَجْتَمَعْتُمْ كَأَنَّمَا جِئْتُمْ لِنَهْيٍ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ

أَحِذْ بِأُذُنِ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رُمْتُمُونَا لَيَمُرَّنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرٌ لَا يَسُرُّكُمْ، وَلَا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا».

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَمْلُوءَةُ حُفْقًا وَرُعُونَةً، شَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرِ فِي إِذْكَاءِ الثَّوَرَةِ وَتَقْرِيبِ خُطُوتِهَا، وَمَرْوَانُ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضًا بِإِثَارَةِ عَلِيِّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَسْوِيَةَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَزْغَبُ، وَقَدْ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، تَحْتَ عَاصِفَةِ نَفْسِهِ وَعَاصِفَةِ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتَ مِنْ مَرْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِيفِكَ عَن دِينِكَ وَعَن عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الطَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَرْوَانُ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَائِمْ اللَّهُ إِنِّي لَأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ وَغُلِبْتَ عَلَى أَمْرِكَ».

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَمْرَأَتُهُ نَائِلَةُ ابْنَةِ الْفَرَاغِصَةِ^(٥)، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:

«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَرْوَانَ يَقُودُكَ

حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَرْوَانَ قَتَلَكَ.

وَمَرْوَانُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْبَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَرْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُعْصِي». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَبُرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُنْطِقِ، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعَ مَرْوَانُ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحُ الْفَاءَ لَا يَضُمُّهَا سِوَى أَبِي نَائِلَةَ هَذَا وَالْأَخْوَصِ الْكَلْبِيِّ

الخليفة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصبية وبين التلطي والتهام الوضع القائم، إلا كلمة رغاء كالتي فاه بها مزوان، على أنها هدمت قيمة وساطته، وألقت في روع الناس آرتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته، لهذا - وهو في مقياس كل عصر مبرر - تنحى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. ولكن علياً، مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يُقدّر ويذهب في مدى تقديره بعيداً، فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له شبحها، فيزهب هولها ويخشى وقوعها. يجب إذاً أن لا يظل بعيداً، وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور، هذا الموقف التايي المثير، فبادر إلى تقديم ولديه - لاعتباريهما التقديرية - ومواليه، كي يُتهنئوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب. وحين بلغه «أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعث إليه بثلاث قري، وقال للحسن والحسين: أذهباً بسيفتيكما حتى تقوموا على بابي ولا تدع أحداً يصل إليه بمكره، وكان أن خضب الحسن بالدماء وشج قنبر مؤلاة».

وبات علي مطمئناً، فقد رتب الأمور جيداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور، إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مزوان، ولوجود آبنيه ومواليه أطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهم يُعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكره دام يضع حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة. وما كان يدري أن المغرضين، ذوي المآرب، كانوا قد آندسوا في الجمهور الذي غدا جدد حساس وجد متأثر، فتدفق السيل جارفاً و«جرى الوادي فطم على القرى».

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصراع، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان، وهو محاصر، كتب إلى معاوية وهو بالشام:

«إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إلي من

قَبْلَكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ»، فَإِذَا مُعَاوِيَةُ حِينَمَا جَاءَهُ كِتَابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدْرِ أَنْ يُحَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُ عَائِشَةُ عَلَانِيَةً، وَبِتَخَلِّي مُعَاوِيَةَ عَنْ نَجْدَتِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَنْفِرُ هَؤُلَاءِ أَنْفُسُهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَّرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجَنُّهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْمَحِيطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنَّحاً كَبَحْرِ اسْتَقْبَلَ بَيْنَ حَنَائِهِ الْعَاصِفَةَ...

فَمَادَ بِهَا وَمَادَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْدِفُ بِالزَّبَدِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ حَانِقٌ، وَيَزْمِي بِالْمَوْجِ مُتَطَاوِلًا كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَشَبَتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَّةِ الشُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِيهَاتِ الْغَامِضَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

*

شَعَرَ الْبَحْرُ^(٦) أَنَّ الصُّخُورَ^(٧) الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ... فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يُزْمِجُ ثَائِرًا هَادِرًا، فَقَدْ أَتَقَرَّنَ أَنَّهَا مَكَمَّنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُو بِأَقْتِلَاعِهَا...

(٦) كِنَايَةٌ عَنِ الشُّعْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ حَيَوِيٌّ يَفِيضُ بِالْقُوَى، وَتَارِيخُهُ سَيَّلٌ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالتَّيَارَاتِ وَالتَّنَاحُرَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَايَةٌ عَنِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةَ طَبِيعَةَ الصُّخْرِ مِنْ كَثَرِيَاءِ قَاسِيَةِ وَجَسِّ تَلِيدٍ.

وَحِينَ طَاوَلَتْهُ طَمًا عَلَيَّهَا وَتَجَاهَلَ وُجُودَهَا...
وهو، وإن لم يَتَّقَلِهَا، رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا حِسَابٌ فِي كِبَرِيَاءِ
الْوُجُود...
*

إِنَّ كِبَرِيَاءَ الْوَاحِدِ تَجَاهُلٌ لُجُودِ الْآخَرِينَ...
وَلَكِنْ وُجُودُهُمْ فِي حِسِّ الْوَاقِعِ، أَكْبَرُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حِسِّ الْخَيَالِ...
فَإِنَّ وُجُودَهُ قَبْضَةٌ مِنَ الظَّلَامِ، وَوُجُودُهُمْ قَبْضَةٌ مِنَ الشُّعَاعِ...
وَمَا تَقَابَلَا إِلَّا ذَابَ الْأَوَّلُ فِي الثَّانِي دُونَ مَا أَثَرٍ يَتَّقَفُو...
إِنَّ الْكِبَرِيَاءَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْكَثَرَةِ، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْعَدَدِ...
وَإِذَا نَجَحَ الْفَرْدُ فِي آتِبِلَاعِ الْكُلِّ أَحْيَانًا، فَإِنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِحَظَرِ التَّمَزُّعِ دَائِمًا...
فَالْكُلُّ قُبْلَةٌ قَدْ تَبَوَّرَ حِينًا، وَلَكِنْ فِيهَا إِمْكَانِيَّةُ التَّفَجُّرِ أَبَدًا...
*

فِي طَبِيعَةِ الْبَحْرِ رَشَاقَةُ الْحَرَكَةِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصَّخْرِ سُكُونٌ بَلِيدٌ، وَأَيْضًا قَاسٍ
مُتَجَهِّمٌ...
وَبَيْنَهُمَا وَقَفَ إِنْسَانٌ^(٨) فِيهِ وَغْيُ السُّكُونِ وَقَصْدُ الْحَرَكَةِ، يَصِلُ أَسْبَابَ
أَحَدِهِمَا بِأَسْبَابِ الْآخَرِ...

وَكَانَتْ كِبَرِيَاءُ الصَّخْرِ عَمِيَاءَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجُودِهَا، فَانْطَلَقَتْ أَعَاصِيرُ
الْبَحْرِ تَزَارُ فِي مِثْلِ الْفَحِيحِ...

(٨) كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ مُصْلِحٍ إِنْسَانِيٍّ يَعْمَلُ فِي هَذِهِ الْمَبَادِيءِ كَقَلْبِي.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يُنْظَرُ مُتَفَجِّعاً، فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -
الَّذِي أَضْحَى غَوْرًا - تَرَفُّصٌ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نِعْمَةٍ تُخْبِرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ
فِيمَا زَعَمُوا...

*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطَرِّقاً مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوَلَدِهِ^(٩) أُمَثُولَهُ ابْتِحَرِ، فَلَيْتَ مُتَأَمِّلًا يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ بِنَفْسِهِ رَجْفَةً رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةً أَصْدَاءِ
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَزُورُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمَثُولَةَ آبِنِ الْإِنْسَانِ...

* * *

(٩) كِنَايَةٌ عَنْ أَسْمَى أَبْنَاءِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، أنكشف الفصل الأخير
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحائها الفسيحة
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادئة هنا وهناك، قريبة
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّن الرعشات، فمن يضاء ناصبة كالزبد، ومن
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالغنم، وأعصاب الجماعات تتمدد
وتتقلص وتغلو وتهبط... فجذلان هناك وغضبان هنا، وبين هذا وذاك تبعث
نأماثٍ مختزقة، أو زفاراتٍ مختنقة، أو بقايا هتافاتٍ مغتبط طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفّس سائرهم الصعداء، ولكن لم
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد آفطت قيادها وهبت طائشة
على قطبها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشريتها، فغدا دموياً وشرساً، يصر
على أسنانه في شكل كرية، كأنه يتأكلها، أو كأنما يتأكل الأشباح والطيوف التي
استوت في مكان الحيس من نغمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن
يبحث في مكان الفضاء عمن أثار عليه حفيظته، والحفاظ قاسية نهمته إذا
انطلقت في مدى الشعور المتضري، وأعصاب الحي حينما تضري، وتهيجها

النُّقْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِقَامِهَا إِلَى الْإِيْقَاعِ السَّاحِقِ بِمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرُوحُ مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَرَوْ حُرْقَةَ الظَّمَا الْفَائِرِ، فَتَطْلُبَ سَحَقَ أَخْيَلَتِهَا، وَتُصَارِعَ الْخِيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي ثَوْرَةِ الدَّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا يَزْعُمُ لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفْؤُودِ وَبَيْنَ الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْئاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوْلًا.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَعْصَابِهِمِ الْمُتَأَزِّمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةٍ أَوْ لِينٍ، يَدُكُونُ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ، وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُنْتَصِباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوَّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً بِمَنْطِقِهِ التَّارِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مُمْتَدِّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سَحَقاً لِبَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْفَوَّارِ،

فَيْدُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَعْتَصِرُ الْمُسْتَبِدِّينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلَمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهِمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَوَانُ جَبَّارِ،

وَرَحِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيْنُهُ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصَغَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكِبْرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهُوْلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْلَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَتْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنَّفَارِ،

فَهَلُمُّوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفَاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فَقَدْ أُعْطِيَتْ الْقَوْسُ بَارِيهَا وَتَمَّ الْإِنْصَافُ وَالْإِنْصَارُ،
 وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،
 وَأَنْتَحَرَ الْعُدَّوَانُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،
 وَأَعْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ حُلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.
 فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقُلُلِ
 السَّاقِطَةِ الْمُتَدَخِّرِجَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.
 كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنَ
 التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي الثَّائِرِينَ.
 قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا الثَّائِرُونَ أَقْدَارَهُمْ وَائِيْمُ اللَّهِ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى
 مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزْعَوْا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِنْخَابِ، وَلَكِنْ:
 مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرَفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَّانَا
 لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكًا فِي دِيَارِهِمْ أَلَلُّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ
 قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟ عَدَوْا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَثَمَةٌ
 سَفَّاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ يَفْتُنَّا مِنْ إِيْمِهِمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ مِمَّا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةٌ مَا
 أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ
 الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا
 الْجَرِيمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَدْرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَتْ هَذِهِ الْمُؤَامَرَةَ الطَّاعِغِيَّةَ مِنْ
 أَطْرَافِهَا، وَأَحْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَّهِمَ وَأُعْلِنَ بِمِلْءِ فَمِي أَنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ
 مَا وَرَاءَهَا... وَأَبْتَسِمَ آيْتِسَامَةً صَفْرَاءَ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاهِ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَحَبَهَا

تَكْثُرُ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكْمَةُ شَفَافَةٍ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابُكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنَ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُهُ يَوْمٌ أَكْثَرُ سُوءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أَبْطُشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أَبْطُشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأَفْعَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أُرْوِيَ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى آسْتَعْبِدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَخْرَارًا»، أَلَمْ يَقْلُهَا لَعَمْرُؤُا بَنِي الْعَاصِ وَأَيُّنِهِ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيِّ الْبَرِيءَ وَأَضْطَهَدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعُتُوًّا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسْتِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسَوَّدْتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمُ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخْنَتُهُ وَتَجَهَّمَتْ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُشَقُّ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاحِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأُقَدِّرُ مِثْلًا تُقَدِّرُ، بَيْدَ أَنِّي كُلَّمَا حَدَّثْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا مَنْ ذَكَرْتُ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضْرَعِ الْخَلِيفَةِ الْفَظِيعِ مُؤَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَسَحَّرُ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمُتَهَوِّرَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِحُسَامِهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الظُّبَاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتُهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِدَةِ، فَفَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطَبَّقَ بِهِ فَخٌّ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْحَصُ فِي الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الظُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَذْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعُسْفِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَنْعُمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَنُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى
بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامَوْهُمْ إِذْلاً،
وَأُورِدَوْهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

فَنِعَتْ تِلْكَ الْبَطَانَةُ بِسُكْنَى الْقُصُورِ الْمُبَثْوَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنِ
الْأَيْنِ الصَّارِخِ الْمُنْبِعِثِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشَّعْبَ فِي
أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَنَعُوهُ عَنِ الشَّعْبِ
وَمَنَعُوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وَسَمَّمُوا رَأْيَهُ فِي التَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاؤُوا الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغْتَصَمُوا
بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادٍ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي أَنْتِفَاضَةٍ مِنْ أَنْتِفَاضَاتِهَا مَا
أَحَالَ دُنْيَا تِلْكَ الْقُصُورِ أَطْلَالاً وَخَرَابٍ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْهُمْ فِكْرَةُ الْجَرِيمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاهُمْ تَنَفُّسُ
الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَازَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ،
وَرَفَعَ وَصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقاً بِهَذِهِ الْوَصَايَةِ حَقّاً، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ
الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالثَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَافاً، بَيْنَ أَنْهُ يُعَزِّي أَنْ
الْبَطَانَةُ أَصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطِئاً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ،
فَإِنَّ سُقُوطَ تِيكَ الْبَطَانَةِ كُلُّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ
التَّبِعَةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ بِدَعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْبِيرٌ كِنَائِيٌّ يَغْنُونُ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَابِ بِيَاظِنِ الْقَدَمِ.

الموقف، حتى بمنطوق القانون، فإن دعوى التفرير به لا تُنقذه من الجزاء، ولقد أَلَفَ
الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فله الكلمة الأولى والأخيرة، ولقد قالها بكل وضوح.

وإن كان حقاً ما تقول من أن الثائرين غضبة مجرمة، فإن تيك البطانة أهول
جريمة حين دخلوا بها إلى كل بيت. ولست بهذا أريد تبرير الخطب، ولكنني أقصد
إلى هدم فكرة الجريمة عليك التي تُعلنها، ولعلك تعي.

فقال جَهْجَاهُ الغفاري: تقول لعله يعي؟ أنت غريب عن شباكه وأحابيله.
إنه يريد بقصد تسميم رأي الناس وبلبليتهم، ولا يلبث هو ومن فاتنا من بطانة
الخليفة، حتى يُلَوِّحوا بين الناس بالعثمانية، ويجعلوا من عثمان موضوعاً ثأرياً قصد
إلقاء الشعب في الفوضى، وأنكفائه كُتلاً على نفسه، وما أسرع تردد الجموع، فهي
لا تُحاكم ولكنها تشعر بمبالغات.

فهذا - وأشار إلى المغيرة - يعتمد على روجية الجمهور، قصد المحاربة بالغموض
النفسي القلق لإيجاد حالة فوضى شاملة، وهو لا يأبى، بسبيل ما يريد، أن تندك
معالم مجتمعتنا العظمى. لنفرض أن عثمان صرع بقصد أن يصرع فقد صرع عمر
من قبله، وما تهئنا فروق الملابس التي تجد قيمتها في الاعتبار الفردي دون
الاعتبار الاجتماعي، فهما، كحادثين، سواء بسواء. فلماذا يُحرّض بالاثام،
ويستشير بالتفجع والتوجع، إن لم يكن يقصد شراً؟

قال عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نعم، أجدى علينا، وأولى بنا، أن نعتبر بالحادث ولو لم
يخل من خطأ، فنداوي الوضع ونجتهد جيّداً بحسن التأتي، كي نحول بين
الشعب، بمنع الأسباب، وبين العودة إلى ارتكاب خطأ جديد من شاكلته. قد مات
الميّت وبقي الحيّ مضطرباً، فلنعرف كيف ندخل الاطمئنان إلى نفسه، وبذلك
نكون قد أصلحنا الخطأ وربحنا المصيبة. وأما تزويج الجمهور، بثمة الإجرام والدم،
فإنه تكبير لدائرة الخطأ وتوسيع لحواشي الدماء، وما أرى هذا إلا دعوة جاهلية تقوم

على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد...
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى
يردد قول الشاعر:

قومي هُمُو قتلوا أُميَمَ أخي فإذا رَمَيْتُ يُصَيِّنِي سَهْمِي
أَصْبَحَ عَلَيَّ الخَلِيفَةُ، وَاجْتَمَعَتْ فِي يَدَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، فَثَابَ إِلَى الْمُجْتَمَعِ
هُدُوؤُهُ مَشْفُوعاً بِالْأَمَلِ وَآزِيقَابِ فَجْرِ جَدِيدٍ.

وبدأ علي، أول ما بدأ، بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكلهم
المعلقة أضحت مُزِمَّةً لم يُبَتَّ فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور، وواساه
بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير
مكتوب، يظل غرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيره، إذا لم
يقصد أولاً، وقبل كل شيء، إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم، إلى
الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح، حتى في المجتمعات
التي يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتيم على وجه مضمون إلا
بالشخصية المثقة، ولمس، إلى ذلك، أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو
الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبادر قداماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى،
فلما أظهرنا على أن التعيينات الجديدة لم يُصِبْهُمَا مِنْهَا نصيب، امتنعوا نوع
امتعاض، ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً، ما يُمكنُهُمَا مِنَ القيام بحملة
ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب بإقامة الحد
الشروع على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس.

وعليّ لم يؤخّرهما من حيث إنّهما ليسا بالجديريين، فهما من ذوي السابقة، ومن أقدر العناصر، بل لأنّ الظرف لم يزل يعجّ بالحزبيّة ولم يزل متشبعاً بروحها. فإذا بعث بهما إلى الأقاليم التي تناصرهما، كالكوفة بالنظر إلى الزبير، والبصرة بالنظر إلى طلحة، فقد سهّل لهما حرّية التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبيّة. وحرّية التصرف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان، على أنّ الأمير يصبّح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل الاهتمام بأوامر السلطنة العليا، بحيث تتخذ به الأقاليم، في كلّ مكان، شكل إقطاعيات لا تتصل بالمرجع الأعلى الإيجابي المسؤول إلاّ اتصالاً إسمياً. وإذا تازمت العلاقة بين الرئاسة العليا والأمير، استطاع الأفراد بإقليمه، وقطع العلاقة التي لم تكن تعبّر عن اتصال إيجابي. وهذا خطر يهدّد الدولة، وداء وييل في جسم الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العضيان باتفاق المصالح الموجبة، فإنّه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تظلّ هذه الصلة الإسميّة للإقليم الإقطاعي ينبوع ضرر للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له، ولا يزهّب مرجعه فيعبت كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرفه هو الرئيس الأعلى في نظر الشعب، فيثّهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنّه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيك معه خيكاً، مثلما كان الحال في زمن عثمان، فقد أصبح اتصال الأقاليم بمركز الخلافة إسمياً، والأمير الإقطاعي يتصرف كيف حلا له، لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنّما يستخديم ذلك الطابع (الإكليشه): «هذا أمر الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعل معاوية في الشام، فاتّهم الخليفة وأستُحِقّ ونسبت الفوضى.

وإذا بعث بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصار وأشياء، بل على العكس أعداء حزبيون، فقد أعاد الوضع إلى القلق، ودفع الجمهور إلى التمرّد بالشكوى المصطنعة، فعمد إلى مداواة الحالة العامّة، وحنق الحزبيّة وعنّعاتها،

وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فبين يديه مجتمع مريض، وهو يتطلب شخصيات جديدة لم تنخرط في الحقل العام، والحياة السياسية الصحابة المتناجرة، حتى إذا تم له ما يريد عاد ففكر فيهما وفي سواهما. ولكنهما فسرا إغفالهما بالعداء، فأنصرفا إلى إيجاد الوسائل القمينة بالضغط، فوجها وجههما شطر مكة. وبيننا هما في بعض الطرق لقياء عائشة وهي قافلة من مكة، فرويا لها ما كان من أمر الثائرين وعثمان، وما كان من أمرهم وعلي، وكاشفاها بما عرما عليه. وصادف هذا رغبة خفية في ضميرها وهوى كامناً، بما استطاع الزبير، بما له من دالة عليها، وهو زوج أختها أسماء، والد من استخلصته لنفسها من أبنائه، حتى اختارت لكنيتها اسمه وذلك هو عبد الله ابنه. فحملها على الرجوع، وسهلا لها الخوض في مغمعة سياسية طاحنة، اتصلت حتى انقلبت دموية حادة.

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الأمويين، فكفروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل:

يقضي بالشام معاوية، وهم يعصون بالعراق، حتى إذا استقام لهم الأمر واستقرروا، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العليا، وأزعموا الخليفة على التسليم بمطالبهم.

اتصل بعلي كل ما دار بخلداهم وما عزموا عليه، واتصل به، فوق ذلك، أن الخطب سيعدو دائرته الضيقة، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعته من حامدات النفوس، وفي المحيط العربي خصوصاً. أليست امرأة وامرأة لها قيمتها ومنزلتها الزوجية الفريدة؟ فهي زوج النبي وابنة الخليفة الأول، ومزجج علمي فقهي. ومن ناحية ثانية، أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً؟ أليس كل الثائرين الذين تم الحادث على أيديهم في صفوف علي؟ أليست نفسية الجموع شديدة الحساسية بهول الدم المطلول، وضعيفة الحاكمة والموازنة؟ أليس الظرف متبليلاً يمد ويمور بالفوضى؟

ففي الأمر إذا عُقِدَ خَطِيرَةٌ، ولا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلَهَا هَؤُلَاءِ الْوَاجِدُونَ.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجُوهَ الرَّأْيِ، حَتَّى آتَتْهُى إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَدَّكَ مَعَهَا ضُرُوحُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدَّسِّ وَالْإِثْهَارِ، لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ عَنِيفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتَبَدَّأَ بَطَلْحَةِ وَالزُّبَيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْبَابِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْضُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِ النَّاسِ، وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْضُ النَّاسِ يَغْلَى بَنَ أُمِّيَّةً، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاضاً، وَأَنْطَقِ النَّاسِ طَلْحَةَ بَنَ عُيَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ آسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصْرَةِ، عَلَى ضَوْءِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّفْسُخِ، وَعَدَمِ الْإِنْسِجَامِ وَالتَّمَاثُلِ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاسِكَةً بِوَخْدَةِ الدِّمِّ وَالتَّغْرِيرِ. فَالْبَصْرَةُ إِذَا أَقَلَّ عَنَاءٌ وَأَكْثَرَ خَطَرًا وَأَبْعَدُ نَفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِئُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النُّفُوسِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَّةِ. فَكَانَ لِرَامَا أَنْ يَنْبَعَثَ فَوْرُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصْرَةَ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِفَةِ السَّاحِقَةِ، فَيَزْهَبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَرْبِ السُّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُونًا، فَيُعِيدَ الثُّقَّةَ الْمَفْقُودَةَ، بَعْدَ الثُّورَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبُطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا آسْتَعَانَ بِالنَّقْدِ وَالِدَّعَايَةِ أَدَاةَ حَرْبِيَّةٍ هَائِلَةٍ التَّأْثِيرِ، وَأَذْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْعُنْصُرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ، إِلَى أَنْتِقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَدٍّ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُغَامَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أُذِيعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكْتَ سُدَّةَ بَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذِيْلَكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَارَتُكَ فَلَا تَبْتَذِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْقِرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُزَابُ بِهِنَّ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الدُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَضَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْفَلَوَاتِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَغَدّاً تَرْدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ ادْخُلِي الْجَنَّةَ لَا سَتَحْيِيْتُ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَأَجْعَلِيهِ سِتْرَكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَنِّي حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَنَهَشْتِ نَهَشَ الرَّقْشَاءِ الْمَطْرِقَةِ، وَالسَّلَامَ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَشْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّدُهَا آتِقَاداً لاذِعاً. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمَرْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نَيْلُهُ، وَكَانَ أَهْرَزَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عَنْ مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ رَوَوْا «أَنَّ أَبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةُ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطُّرُقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَّاهُ؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيَيْنٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِينَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».

٢ - شَجَعُ الزُّعَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرِي فِي بَيْتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِثْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُحْضُونَ عَلَيْهَا تَبْلُغُهَا وَتَنَاقُضُهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بِعَلِيٍّ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَةُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ الْخَلِيفَةَ، إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ جَمِيعًا لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَخْرَاجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلانْتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَزَبُ الدَّعَايَةِ الَّتِي أَصْطَنَعَهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرَتْ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَّكَتِ الْوَحْدَةَ فِي الْمُعْشَكْرِ الْآخِرِ. «فَاعْتَزَلَ بِالْجَلْحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَرْسَخَيْنِ - الْأُخْتَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجَأَهُمْ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان، وكانت راية علي مع أبيه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجال محمد بن أبي بكر، وعلى المقدمة عبد الله بن عباس. وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبه الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد، ودفع الراية إلى محمد وقال: أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل. يا بني تزل الجبال ولا تزل، غص على ناجذك، أعر الله جُمَّجُمَّتَكَ، تد في الأرض قدمك، إزم ببصرك أقصى القوم وغص ببصرك وأعلم أن النصر من عند الله. فتقدم محمد فرشقته السهام فقال لأصحابه: رؤيدا حتى تنفذ سيهاتهم... فأنفذ علي يستجثه، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه. وقال له: أقدم لا أم لك. ثم أدر كته رقة عليه، فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمينه، ونادى بعقر الجمل

فَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ».

كانت معركة الجمل، بدون ريب، أو كادت تكون هي المعركة الفاصلة، وأن تنقلب من حيث القيمة ثانوية، وأن تُعتبر حركة فرعية لتطهير بعض عناصر الشعب الباقية، خصوصاً والمقاومة الكفاحية أخذة بهذا الشكل من السرعة والدعاية الموقفة، التي أشعرت الناس كافة بالاشمئزاز من شعب المشايخين. بيد أن الحال تبدلت وجعلت لصفين الصفة الحاسمة الرئيسية لاعتبارات:

١ - إشتحالة فكرة العقيدة وروحيتها الأخلاقية عند علي إلى فكرة ثابتة، والفكرة من الثوابت تصرف كل قوى المزمع الروحية والمعنوية إليها، وتقف جهودها العملية في سبيلها ومدى غايتها، فقد تركزت تركز الأعصاب، فصاحبها لا يفكر ولا يرى ولا يحس أو لا يحب أن يفكر، وأن يرى، وأن يحس، إلا في مواقع ميولها، كما لا يدبر ويُقدّر إلا على ضوئها. لذلك لم تكن سياسة علي مشتقة من صميم الحياة كما هي بمساوئها، بل من روح الحياة كما ينبغي أن تكون بفضائلها. فهذا الرجل الذي عرفناه دموياً في قضية الانتصار للعقيدة، نراه شديد الكراهية لسياسة الدماء وأساليبها في قضية قمع حركات المتمردين، فهو يفرق جيداً بين الكفر والعصيان. ولكن وسطه لم يكن يفهم هذا الفرق فهماً حسناً، أو لا يفرق بينهما ألبتة، فقد رأينا عثمان الخليفة يُسمي تمرد أهل المدينة كفراً في كتابه إلى معاوية، ونرى عمّاراً ومحمد بن أبي بكر، ومن ورائهما سائر الناس، ينظرون إلى خصومهم نظرة المارقين من الدين، وبالتالي يجب أن يطبقوا عليهم أحكام الكفار وقانون الارتداد.

كان الجمهور متشبعاً بهذه الفكرة وما يترتب عليها ويلابسها، فإذا علي وهو المتشرع العبقرى والمسلم الواعي لحقيقة الإسلام يحيل على أساس هذه الفكرة، لئلا يتورط الناس في استباحة مقتضياتها القانونية التي تحولها حالة الحرب

في الأُسْرة والمال والملِك والقيمة الشَّخصيَّة، الَّتِي يَتَّبِع فَقْدَهَا الأُسْر والاستِرْقاقُ. وَبَيْنَ النَّاسِ، بِمَنْطِقِهِ العميقِ، أَنَّ هُنَاكَ صِفَةً ثَالِثَةً هِيَ الفِسْقُ، وهو لَا يَتَّعِدُ بِالْمَرْءِ أَلْبَتَّةَ عَنْ دَائِرَةِ الإِيْمَانِ، كَمَا لَا تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الاسْتِباحَةُ بَلِ التَّأْدِيبُ فَقَطْ.

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَتَأَتَّى إِلَى إِفْنَاعِهِمْ بِخَطَأٍ فِكْرَتِهِمْ حِينَ قَالُوا «أَحَلَّ لَنَا دِمَاءَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ:

هِيَ السُّنَّةُ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

قالوا: مَا نَدْرِي مَا هَذَا؟

قال: فَهَذِهِ عَائِشَةُ رَأْسُ الْقَوْمِ أَتَسَاهَمُونَ عَلَيْهَا؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ!؟ أُمُّنَا.

قال: فَهِيَ حَرَامٌ

قالوا: نَعَمْ.

قال: فَإِنَّهُ يُحَرِّمُ مِنْ أَهْلِهَا مَا حُرِّمَ مِنْهَا... فَنَادَى فِي النَّاسِ: لَا يُسَلَبَنَّ قَتِيلٌ وَلَا يُتَّبَعُ مُدَبِّرٌ، وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُحَلَّ مَتَاعٌ. وَلَكِنَّ الْجَمَهْرَةَ الْكُبْرَى سَادَجَةٌ بَسِيطَةٌ فِي فِكْرَةِ التَّدْيِينِ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ هَذَا النَّدَاءُ وَقَعَ الْيَأْسُ فِي مَحَلِّ الْأَمَلِ، وَجَعَلَهُمْ يُلْغَطُونَ كَثِيرًا، وَيَتَأَفَّفُونَ كَثِيرًا، وَحَمَلَهُمْ عَلَى تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ فِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَفِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ.

فَأَمَّا أَوْلَئِكَ الْبِدَاةُ الْأَغْرَابُ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا الدِّينَ إِلَّا عَلَى شَكْلِ سَطْحِيٍّ، اسْتَعَصَى عَلَى تَفْكِيرِهِمْ فَهَمُّ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، فَمَضَوْا عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ، وَأَقْتَنَعُوا بِمَا أَنْتَهَوْا إِلَيْهِ، وَاسْتَمَلُّوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّسَخُّطِ الْخَفِيِّ كَانَ غَيْرَ مَشْعُورٍ بِهِ إِلَّا قَلِيلًا، لِأَنَّهُمْ، بِمُقْتَضَى نَظَرِيَّتِهِمْ، حَالُ الْخَلِيفَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَقِّهِمْ فِي الْغَنَمِ

وَمَنَعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاطِئُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ،
بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحَبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، أَشْتَمَلُوا
عَلَى أَطْمِثْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمُ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالِغَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ
الْمَنْزِلَتَيْنِ^(٢). وَكَانَتْ هَذِهِ الْاسْتِثْنَاةُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتْهُ
مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَأَتَّخَذْتُ سَبِيلَ وَضُوحِهَا
فِيمَا بَعْدُ، وَقَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا الْفِرْقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أَخِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي خُصُومِهِ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ
الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَفْتَى بِهِمْ «أَمْشِرُكُمْ هُمْ؟»

قَالَ: مِنَ الشُّرُكِ فَرَّوْا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَعَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرًا أَهْلُ الشَّامِ،
وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَاوِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ
عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى
الْعُنْفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُعْتِنُوهُ.

فَنَرَاهُ يُفَاوِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلَوَّ
الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

(٢) أَخْطَأَ مَوْزُوخُ الْفَرْقِ حِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ فِكْرَةَ الْإِعْتِرَالِ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي حَلَقَةِ الْحَسَنِ
التَّضَرِّيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ، وَإِنَّمَا أَشْأَاهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خِيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ،
وَتَوْضِيحُ عَلَيَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ.

وإذا به يَتَّهِمُهُ بِالْعُقُوقِ فِي رَفْقٍ. قَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَيْهِ:

«وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ، أَبُو سُفْيَانَ، أَتَانِي حِينَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ آبَسُطَ يَدَكَ أَبَايُغَكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أُبَيِّتُ عَلَيْهِ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ النَّاسِ بِالْكَفْرِ. فَأَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِحَقِّي مِنْكَ، وَإِنْ تَعْرِفُ مِنْ حَقِّي مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْرِفُهُ تُصِيبُ رُشْدَكَ وَإِلَّا فَتَنْتَعِينَ اللَّهَ عَلَيْكَ».

وَلَكِنْ مُعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَاوَرَهُ الطَّمَعُ، وَلَعِبَتْ أَخْلَامُهُ الْكِبَرَى أَمَامَ نَاطِرِيهِ، وَقَدْ فَهِمَ مِثَالِيَّةَ عَلِيٍّ وَتَقَوَاهُ فَعَمَدَ لاسْتِغْلَالِهَا. فَإِذَا هُوَ يُصَانِعُهُ، وَيُظْهِرُ لَهُ خُيُوطاً وَاضِحَةً مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَضَعَ عُقْدَةً يَتَعَايَا بِهَا، فَيَعْذُرُهُ عَلِيٌّ وَيَمْضِي فِي مُفَاوَضَتِهِ. وَمُعَاوِيَةُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا آكْثِسَابَ الْوَقْتِ لِتَهْيِئَةِ نَفْسِهِ، وَبَعَثَ رُوحَ الْمَلَلِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ، فَهُوَ يَتَمَنَّى طَوْلَ الْوَقْتِ وَطَوْلَ الصَّرَاحِ مَعَ ظُهُورِهِ بِمُظْهِرِ الْمُسْتَشْلِمِ إِذَا آنَحَلَّتِ الْعُقْدُ أَوْ أَقْنَعَهُ بِحُلِّهَا، وَبِهَذَا الْمَظْهَرِ يَضْمَنُ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ عَلِيٌّ بِحَرْبٍ خَاطِفَةٍ سَاحِقَةٍ، بَلْ يَرْفُقُ بِهِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَعْرَكَةُ الْجَدِيدَةُ إِلَى حَرْبٍ إِنْهَاكِ وَإِزْعَاجٍ، وَهِيَ لَا مَحَالَةَ سَتُشْبِعُ صِفَةَ التَّمْلُلِ وَالْيَأْسِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ. أَضِيفَ إِلَى هَذَا أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ، مُنْذُ حِينَ، قَدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ كُبْرَى، وَمِنْ قَبْلُ كَانَ نَهِيكاً بِالْفُتُوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدُورَ هَذَا التَّمْلُلُ دَوْرَتَهُ وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَثْرَكَ صُدُوعاً وَآخْتِلَافاً فِي الرَّأْيِ، فَيَنْقَسِمَ الْجَيْشُ شَيْعاً، وَيُفْلِتَ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ الزَّمَامُ.

أَمَّا يَرَاهُ يُجِيبُهُ حِينَمَا طَلَبَ تَأْجِيلَ الْحَرْبِ شَهْراً، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لْجَيْشِ الشَّامِ، حِينَ آسَتْوَلَى جَيْشُهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، بِالسُّقْيَا «حَتَّى آزْدَحِمَ عَلَيْهَا الشَّقَاةُ مِنَ الْعَسْكَرَيْنِ وَمَا يُؤْذِي إِنْسَانٌ إِنْسَاناً»^(٣) فَطَالَ أَمَدُ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْماً، وَهَذَا وَقْتُ طَوِيلٌ

(٣) رَوَى الثَّارِخُ أَنَّ جَيْشَ الشَّامِ سَبَقَ إِلَى الشَّرِيعَةِ، فَطَلَبَ عَلِيٌّ السَّمَاخَ لِجَيْشِهِ فَأَبَى مُعَاوِيَةُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا غَلَبَتْ عَلَيْهَا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ذَلِكَ سَمَحَ لَهُمْ. فَتَزَهَّنَ بِهَذَا عَلِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يُحَارِبُ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ يُحَارِبُ لِلْغَلْبَةِ وَشَهْوَةِ

في عُمرِ حَرْبٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي نَبَتَتْ فِي رُؤُوسِ الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لَهَا أَسْرُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَكَانَ هَذَا النَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلَلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَسِمُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ الْمُسْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَبِمَنْطِقِ الْقَانُونِ الَّذِي يُقَدِّسُهُ. وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَسَ أَنْ الظَّرْفَ يَتَأَزَّمُ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُ تُفْلِتُ مِنْهُ إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِأَنْتِهَاكِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَسِسْ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ مِنْ أَنَّ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوِلِ يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَحْسُ مِنْهُمْ، وَضَرَبَهُمُ الضَّرْبَةَ الْقَاصِمَةَ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفِ الْمُعْتَادَةِ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجَأَةِ بَلْ مُعْتَادَةٌ بَارِدَةٌ الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَفْعُولِ، لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ اسْتِيفَحَالِ الْأَفْكَارِ الْخَطِرَةِ الَّتِي سَبَقَ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَحَدَّةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتْ الزَّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ غُنْفاً، فَتَمَزَّقَ شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَمِيلَتْهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاظِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبَرُوتٍ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْغَمْرَةِ الطَّائِشَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَحْقِ طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَيْشٍ مَرِيضٍ فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمِيدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الْخَوْضِ فِي تَيَّارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

= الشَّلْطَانِ. وَأَعْطَى مَثَلاً فُذّاً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا اضْطُرَّ إِنْسَانٌ إِلَى الْحَرْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَاناً شَرِيفاً قَبْلَ أَيِّ آخْتِيَارٍ.

النهاية. فليس من سبيل مداواة الروحانية العامة على ضوء النفسانية الاجتماعية، إلا الأخذ بالناس حتى نهاية الطريق في مدى ما آسَتْخَوَذَ عليهم، فإن الأمراض الاجتماعية، من نوع الهيستيريا الحادة، يُداوى معها الوهم بالوهم، وعلى ذلك نزل عند رأيهم ليهيئ الظروف المناسبة من جديد.

فعلني إذا لم يشأ قُصداً أن يشتغل سرعته، وهي تقتضي البطش، استغلاًلاً حازماً وسريعاً، وكان هو الواجب إذ ذاك من وجهة نظير عسكرية. نحن نعرف علناً بطل الحرب، فلماذا أعرض هذا الإعراض، واختار البطء في الإيقاع بالخضم بعد تلك السرعة الموقفة في الانتقال والإعداد؟ لأن علناً لم يكن يطلب السلطان من أجل السلطان، بل من أجل إحقاق الحق وإخلال المثل الأعلى الاجتماعي في دنيا الناس، وإلا فالسلطان في كبرياء نفسه وفي كبرياء مغنويته «لا يساوي عَفْطَةً عَنزٍ» كما كان يقول.

هو يريد السلطان من أجل الحق، فإذا انتهك الحق من أجل السلطان فقد خنق ضميره، وأغتصر بيديه قلبه في قسوة ووحشية.

فماذا يريد من كفاحه إذا؟ إنه يريد تطبيق قضايا العدل حتى في الساعة التي يجوز فيها الجور، إنه يريد الحق حتى في ساعة جيشان الباطل وطغيان المنكر. ولكن هم قلة الذين تساموا إلى فهمه، وهيهات حياة الأطماع، المخذوة بالشرابين والأغصاب، أن تنبض بمثل خلجات قلبه، وتحس بحسه، وتندى بمثل شعوره. كان أكبر من محيطه ولا بدع، وأسمى من مجتمعه ولا ريب، فهو ربيب محمد المتبلور من سناء الوحي وضياء النبوة، وهو أكبر الآلئ التي أنكشفت عنها دنيا القرآن. فهل يعبت بوجوده وضميره في ملهى يديه طائعاً مختاراً، ومن أجل ما لا يراه شيئاً؟!

إنه لم يكن يؤمن بما يقال «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»، فهذه خطوة

صَغَارِ وَخِيَانَةٍ وَجُبْنِ وَخَوَرٍ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بَعَايَةَ أَشْمَى وَيُبَشِّرُ بِمَبْدَأٍ:

إِذَا لَمْ تُكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا كَذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً
فَلَا تَحْنُ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا تَأُلْ جُهْداً فِي الدَّعْوَةِ
إِلَى التَّغْيِيرِ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَاطِلِ مِثَالاً يَضْرِبُهُ...

إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَهِكُونَ كُلَّ قَدَاسَةٍ، بِسَبِيلِ الْفَوْزِ، سَاقِطُونَ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ
وَقِسْطِاسِ الرُّوحِ، وَعَلَيَّ لَيْسَ مِنْ طَبِئَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبُ، فِي حِسِّ عَلَيٍّ، أَفْزُزُ
أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْخِيَانَةِ وَأَنْكَرُهَا. وَالْغَلْبَةُ تَكُونُ مِقْيَاسَ النَّجَاحِ فِي حِسِّ
الْجَامِدِينَ جُمُودَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الصَّمَاءِ، بَيْنَمَا مِقْيَاسُ نَجَاحِكَ، فِي حِسِّ الشَّاعِرِينَ،
بِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ أَبْيَضَ نَاصِعاً فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ وَسَنَى الْفَجْرِ.

وَالْوُجُودُ نَوْعَانِ: وُجُودٌ بِالْحَيَاةِ، وَوُجُودٌ فِي أَبَدِيَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَالثَّانِي مِنْهُمَا
أَكْبَرُ الْوُجُودَيْنِ، فَإِنَّ عُمرَ أَوْلِيهِمَا فِي حُدُودِ اللَّحْمِ وَالدَّمِ، وَعُمرَ ثَانِيهِمَا فِي حُدُودِ
الْخُلُودِ، وَأَيْنَ مَدَاهُ؟...

وَإِذَا بَقِيَ ذُو الْوُجُودِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِي ذِكْرِ التَّارِيخِ شَوْهَةٌ مَوْمِيَاءَ،
بَيْنَمَا يَظَلُّ ذُو الْوُجُودِ الثَّانِي، فِي ذِكْرِ الْأَبَدِ، مِشْكَاةَ حَيَاةٍ تَفِيضُ بِالنُّورِ بِالضِيَاءِ.
وَلَمْ يَشَأْ عَلَيٌّ، وَقَدْ أَخَذَ بِمَقْوَدِ السَّفِينَةِ، أَنْ يَتْرُكَهَا هَائِمَةً، وَيَتْرَكَ لِلْخَاطِفِينَ
(الْقُرْصَانِ) أَنْتَهَابَهَا. فَعَالَجَهَا بِمَقْدَارٍ وَمَقْدَارٍ كَبِيرٍ، وَالْعَوَاصِفُ تَتَنَاقَشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَبَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَيٌّ كَالرُّبَّانِ الْمَاهِرِ يُرْخِي الشَّرَاعَ أَخْيَاناً، فَيَمْضِي فِي مَدَى مِثْلِ
الْجُمُهورِ، وَيَرْضَى بِالتَّحْكِيمِ، وَيَشُدُّ الشَّرَاعَ أَخْيَاناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بِالنُّهْرَانِ.

وُخْرُجُ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا تَمَّ بِأَسْتِفْحَالِ فِكْرَةٍ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ
قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فِي تَفْكِيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ
بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ يَلْتَقِيَانِ، فِيهَا. فَالتَّحْكِيمُ إِذَا خَطَأَ، وَالْخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ كُفْرٌ،
فَانتَهَوْا، فِي سِبْلَسِلَةِ النَّتَائِجِ، إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ، فِي

جَوهرها، لا تزيد عن عُقْدَةٍ مَسْرُجِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا، مَعَ ضَعْفِ المُحَاكِمَةِ العَقْلِيَّةِ والنُّقْدِ
الفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةَ الحَلِّ. فَلَدَى البِدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلِاسْتِخْجَارِ والتَّصَلُّبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،
بَحَيْثُ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتُهُ إِلَّا بِتَحْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الحُسَيْنُ بِعِظَاتِ مَوْقِفِ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِلهِ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،
وَأَحْلَاهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ وَالِدِهِ العَظِيمِ الصُّرَاعَ عَلَى سَتَى أَلْوَانِهِ،
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَيْ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرَقِّبًا بَلْ عَائِمٌ خَائِضٌ يَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ المَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالتَّقَى^(٤) سَيْفُهُ بِسَيْفِ أَخِيهِ
مُحَمَّدٍ، فَشَكَّلا قَوْسًا قَاعِدَتُهَا المَبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الكَبِيرُ الكِفَاحَ
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلًا حَيًّا:
أَنَّ عَلِيًّا بَطَلَ الحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الحَرْبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آسَتْ حَالٌ إِلَى
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الحَقِّ وَكِيَانِهِ...

*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمْتُولَةٍ عَلِيٍّ إِلَّا آبَتُهُ الحُسَيْنُ، آبَتُهُ الحَبِيبُ...
فَرَدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرٍ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَخُنْ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَخَدَكَ مِثَالاً للحَيَاةِ
الْفَاضِلَةِ...

(٤) إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ المَوْزُونُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ
فَأَخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَسَرَ مَثَكِبَهُ
وَعُضْدَيْهِ، وَشَدَّ عَلَيْهِ آبِنَا عَلِيٍّ حُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ فَضَرْبَاهُ بِأَسْيَافِهِمَا فَقَتَلَاهُ.

ولا تَأُلْ جُهْدًا يَبْذُلِ النَّفْسَ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَابِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

*

عَلَى أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمُثْلَتَهُ الْأُخْرَى...

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ كَمَا تُرِيدُ...

وإِلَّا فَهَيْهَاتَ أَنْ تَشْعُرَ بِحَلَاوَةِ الْمِثَالِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَتَكُونَ مِنَ الْأَحْرَارِ...

*

بَقِيَ طَائِعُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الْحَقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ
النَّزَغَاتُ وَالنَّزَوَاتُ...

طَائِعاً لِأَبْنَائِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدٍ، دَسّاً، تَوَلِيداً لِلْمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بَكَ أَبُوكَ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بُوْحِي الْقَلْبِ الْمِثَالِيَّ: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طَائِعُ عَلِيٍّ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْإِحَاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ خُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلْحَيَاةِ أَنْ تَبْرُزَ بِطَوَائِعِهِ الْأُخْرَى...

* * *

إلتِياع

في دَارَةِ قَرِيْبَةٍ مِنَ الْكَوْفَةِ اَنْعَقَدَ اَوَّلُ مُؤْتَمَرٍ سِيَّاسِيٍّ اِزْهَابِيٍّ، وَاَنْفَضَ عَنْ مُؤَامَرَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَاسِعَةِ النُّطَاقِ، تَوَلَّى اَمْرَهَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فِدَائِيَّوْنَ كُلُّهُمْ خَارِجِيٍّ. فَقَدْ كَانَ لِمَعْرَكَةِ النَّهْرَوَانِ، الَّتِي اَنْكَشَفَتْ عَنْ مَآسَاةٍ مَرِيْرَةٍ، وَقَعَ حَادٌّ فِي نَفُوسِ الْخَوَارِجِ كَافَّةً، فَتَشَطُّوا، تَحْتَ اِلْحَاحِ سَوْرَةِ الْاِنْتِقَامِ، يَجْتَمِعُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، وَيُوَالُونَ الْاِجْتِمَاعَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَمَا مِنْ بَيْتٍ اِلَّا وَدَخَلَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْاَزْوَاجِ، وَاَنْطَلَقَتِ الْعُيُونُ كَأَفْوَاهِ الْقَرَبِ تَتَحَدَّرُ عَنْ مِثْلِ خُيُوطِ الْقَطَرَاتِ الْمُرْفُضَةِ اَرْفُضَاضَ عِقْدٍ نَظِيمٍ، وَبِالْاُخْرَى الْمُتَحَدِّرَةِ مُؤْتَلِفَةً اَيْتِلَافَ نُوْطٍ شَتِيَّتٍ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ مِنْ اَبْنَاءِ الْهَوَى وَالشَّبَابِ، فَهُوَ عَاشِقٌ مُدْنَفٌ الْفُؤَادِ مُتَيِّمٌ الصَّبْوَةِ، لَقِيَ قَطَامَ ابْنَةِ الشَّجْنَةِ مِنْ تَيْمِ الرُّبَابِ، فِي اَصِيلِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيْلَاتِ الصَّحْرَاءِ الَّتِي يَخْتَلِطُ فِيهَا سُكُونُ الْجَمَالِ وَجَمَالُ السُّكُونِ، بِرَجَفَاتِ الْقَوَافِلِ، وَهِيَ تُهَوِّمُ رَاجِعَةً اَوْ مُنْطَلِقَةً، كَأَنَّهَا سَارِحَةٌ فِي طَفْلِ الْاَبَدِ، اَوْ سَانِحَةٌ مَعَ رَأْدِ الْاَمَلِ الْخَاطِي.

وَقَطَامُ هَذِهِ فَتَاةٌ اَفْتَنَتْ بِهَا طَبِيعَةُ الْجَمَالِ اَيَّ اَفْتِنَانٍ، وَمَشَتْ فِي تَقَاطِيعِهَا رَوَائِعُ الْحُسْنِ وَاَيَّاتُ الْفَنِّ، فَبَرَزَتْ كَالزُّهْرَةِ اَوَّلَ مَا تَتَشَقَّقُ عَنْهَا الْاُكْمَامُ، اَوْ كَالْفِئْتَةِ الْحَيَّةِ الْمَائِجَةِ الَّتِي اَضَافَتْ اِلَيْهَا الصَّحْرَاءُ اَنْبِهَامَهَا، فَجَاءَتْ بِسَاطَةً فِي

تَرْكِيْب، وَوُضُوحاً فِي غُمُوضٍ... تَخْطُرُ كَيْفَمَا آتَّفَقَ لَهَا، فَتُثِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،
تَهَاوِيلَ السَّحَرِ وَعَبَقاً مِنْ الهَوَى الْمَسْفُوحِ، وَضَجَّةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.

وَالْجَمَالَ، فِي الْغَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكَوْنِيَّ يَنْتَهِي بِالْكَوْنِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لَتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ آلِجَمُودٌ، وَتَبْتَدِيءُ الْحَيَاةُ أَوْ الطَّبِيعَةُ مِنَ الْفَنِّ
الصَّامِتِ، لَتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِيءُ
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لَتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمَثَلُ
الْعُلْيَا.

وَالِى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأُذْيَانِ فِكْرَةُ
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِذَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرَّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ
بِالشُّوقِ. وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لِقَاصِدَةٍ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَاهٌ بِهِ آبَنُ
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أُمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَغْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعُمَرَ بَنُ أَبِي
رَبِيعَةَ وَالثُّرَيَّا، وَزُمَرَةُ كَبِيرَةٌ مِمَّنْ يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ اللَّاهِيَّةَ الْحَالِمَةَ، كَانَ بَيْنَهُمْ آبَنُ
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عُمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بَكَ - يَا آبَنُ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ حُشِيَّةٌ فُتُونِ وَدُنْيَا
غَرَامٍ، وَلَمْ أُخْطِئْكَ الصِّفَةَ حِينَما قُلْتُ:

أَهْجُرْنَهَا؟! وَأَنْتَ زَيْنَتْهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَ مُشِيراً إِلَى الثُّرَيَّا.

قال آبن أبي عتيق: لا تثريب عليك، فـ «الله جميل يحب الجمال». نحن
بإرادة الفن يشتخفنا سحره، فتتواقع على الرمال منتشين بموجة الزبد، ولعل ثرياك
أكبر موجات الزبد الحائم في شاطئ الفن المسحور.

قالت الثريا: فأنا في خيالك إذا - يا آبن أبي عتيق - بعض من غاية الكون
في تفاغله الأبدى، لأنني بعض من فتنة الفن فيه... وراحت ترمق آبن أبي ربيعة.

قال عمر: ماذا تقولين؟ لأنني، والله، كل فتنة الفن إن كان هذا يفي
بوقعك في قلبي، ولأنني كل غاية الكون إن كانت للكون غاية... فراحت
تضحك في خفي، وكانت ضحكة تعب عن نشوتها فـ «العواني يغرهن الشاء»، ولم
تلبث هنيهة حتى قالت:

«لو أنا ناديتك وأعمراه فماذا تقول؟... وكأنها استخفته فهب يفعل
كالمثوب: أقول، أقول: لبيكاه. لبيكاه. لبيكاه» ومد صوتته.

لأول لقاء بين عبد الرحمن وقطام، مرث في مخيلته قصة أمسية الطائف،
وشعر بخلاوة الحلم، لو كان له من قطام ما كان لعمر من الثريا.

وكان أن رأت قطام منه ما رأى منها، وأحسّت بمثل ما اجتمع في أحاسيسه
من أخلام، فقد تواصل بينهما هوى، ومشى بين فؤاديهما غرام، ولفهما وجد،
واستدار على قلبيهما جوى وهيام. كان في نقطة الدائرة قلبها، وفي إطار الدائرة
قلبه يدور، ولا يدري من أين ابتداء أو إلى أين ينتهي، ودائماً يكون قلب المرأة من
الثوابت، فهي غنية بالإغراء، وقلما تكون غنية بالحس الصافي، وهي قلما تتحرك
بالحب من النرجسية، ولكنها دائماً تتحرك بالكراهية والبغض.

كان بينهما لقاء إثر لقاء، وكم تمنيا لو أفنيا العمر في لقاء سكرى تفضل
عن صحوها، أو تدفع بهما في لاهية الفناء قبل فنائها.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُتُبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ أَنْتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِهِمَا وَآخِرَ
أَنْتِشَاءَةٍ، كَانَا يَحْلُمَانِ، وَمَا أَصْحِيَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعِيِّ أَنَّ وَقْعَةَ النَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ
بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُتَيَانِ، وَأَنَّ تَيَّارَ الْأَرْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَغَمَرَ أَعْلَى
الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَدْنَى الْأُودِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعِيِّ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ قَصَبَاتُ الْعُورِ
فِي حُرُوفِ الْأُودِيَةِ وَالْمُنْعَرَجَاتِ، وَأَنهَمَرَتْ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرَ الْبَرَدِ،
وَنَارَتْ ثَائِرَةً آتِنِ مُلْجَمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الثَّأْرِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ
الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، آلَى أَلِيَّتُهُ الرَّهِيْبَةَ لَيَنْتَقِمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلَيَشْفِيَنَّ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ
وَلَيَقَرَّنَّ عَيْنَهَا وَعَيْنَهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْبَى أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فَضَاءِ نَظَرِ الْمَرْأَةِ،
كَمَا تَأْبَى طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فَضَاءِ نَظَرِ الرَّجُلِ،
كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ
بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي النَّشَوَاتِ،
وَهَيِّنَمَاتِ الْأَحْلَامِ، وَدَغْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فَضَاءِ النَّفْسِ بِأَسْتِزْخَاءِ.

فِي دَارَةِ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،
وَلَيْثُوا يُزْعِدُونَ وَيُزِقُونَ، تَحْتَ إِحْيَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ
فَتَحَرَّكُهَا، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِقَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْخَرِيْتُ بْنُ رَاشِدِ النَّاجِي يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبُرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَضْرُوعُ إِخْوَانِنَا الْأُبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ
يَتَخَطَّفَكُمْ جَيْشٌ عَلَيَّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا
الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الذَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الزُّوَامُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ
الْحِرَابِ، وَلَا تُمَوْتَُنَّ فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!

فَهَبَ الْقَطَرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ يُنْشِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فِيئَكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنِيعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلُّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُغْتَبَطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَوَقَفَ فَرْوَةٌ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ النَّهْرَوَانِ أَمْثَلَةً رَهْبَةً، يُلَوِّحُ بِهَا
فِي وَجْهِ خَصْمِهِ، فَيَقْلُ غَرْبَهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُخَذِّلُ عَلَيْهِ أَعْصَابَهُ، فَيَبْطِشُ
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَخْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِهِ - إِلَى مِثْلِ جَبَّارٍ
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأَذْهَانِ مِثْلَ رَهْبَةِ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُوعِ خُصُومِهِ مِثْلَ
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ دُغْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثُّقَّةَ إِلَى نَفُوسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ
عَرَاها وَهْنٌ وَخَوَرٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثُّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى مُغَامَرَةٍ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.
وَعَلَيَّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي النَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ
لِلْعَوْدَةِ إِلَيْهِ، أَوِ الْفَيْئَةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى
أَخَذْنَا سَهْلَ بَنٍ حُنَيْنٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ
السَّبِيلَ لَتَجْرِبَتِهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أَعْدَرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَشْبِيحاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاظاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشَّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَثَبَ الْخَرِيْتُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُزَعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوهُ إِلَى النِّفَاقِ وَالْكَفْرِ؟ إِنَّتَفَخَ سَحْرُكَ وَجَبُنْتَ وَهَدَرْتَ دِمَاءَ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمِيتَةُ السَّوْءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ نَائِرًا!

فَاشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ خُصُوصاً، وَانْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُونِ يُرَدِّدُونَ: أَلَا فَمِيتَةُ السَّوْءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَانْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ اغْتِزَالِ فَرَوَةَ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنِفَارِ الْخَرِيْتِ النَّاجِي بِالْأَهْوَازِ ثُمَّ بِالْأَسْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَوَالَوْا الْاجْتِمَاعَ، وَتَرْتِيبَ الْخُطَطِ وَبِرَامِجِ السَّيْرِ بِالمُؤَامَرَةِ الْإِنْتِقَامِيَّةِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْراً، فَلْيَعْمَلُوا سِرّاً، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ تَحْمُساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ، الَّذِي آندَفَعَ بِحَفِيزَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنِي يُرْضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيُجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْمَجَازَفَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ خُطُورُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُرْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَشِيئَتُهُ بِرَعَشَاتِ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِى نَابِضَةً تَشِيْعُ بَيْنَ أَهْتِزَازَاتِهَا آيْتِسَامَةً حُبِّ بَاكِئَةٍ، وَمَعْنَى هَوًى كَسِيفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ ابْنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيرٌ، لَا سِيَّما وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبُّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزِضْهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيُّهُ الْعَقَبَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُقْتَتِحِهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عَرُوسِ أَحْلَامِهِ

تُبَارِكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بَشَجِيعٍ وَتَخُوفٍ.

أَلَيْسَتْ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَرُ تَحْتَ عَنيفِ صِرَاعِهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَسْرُورَةٌ تَحْتَ فَوْزَةِ الثَّأْرِ وَالْمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْغَى حُبُّهُ فِي خَنَايَا رُوحِهَا فَتَنْبَعِثُ وَلَهَى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَعْتَنِقُهُ أَعْتِنَاقًا عَنيفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمَوْقِعِهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي خَيْرَةٍ يَقْضَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعْرَبِدُ. ظَلَّتْ حِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبِتْسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُخْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّوْهُ وَتَذُوبُ آبِتْسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدَأُ أَنَّهَا لَمْ تُطِقْ فَأَعْيَتْ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَاقِضَةِ، فَاسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ وَجُفُونُهَا غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقٍ مِنَ الدُّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أَخِيرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخُفُوتِ:

«الْتِمِسْ غِرَّتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهِئْكَ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا أَهْلُهَا»... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَايَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ ابْنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَطِيمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتًا رَهِيبةَ النَّأَمَاتِ، فَيَتَلَفَّتُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَسْرُورِ تَتَقَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ غَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيشُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَعْتَلِجُ بَيْنَ خَنَايَاهُ مِنْهَا، كَالْمَرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَصْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ ضَجَّجَتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِينَةً أَوْ مُعْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَثَرِيهِ «فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وُلَاتِهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ
كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَلَوْ شَرِينَا
أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الرُّؤُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْخْنَا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.

قَالَ ابْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَسِمُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَرَكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاتَقُوا بِاللَّهِ:
لَا يَنْكُصُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ ابْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنَيْ قَطَامٍ، شَعَرَتْ بِغِبْطَةٍ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ
مَارَجَتْهَا حَسْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى شَكْلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبَثْ
أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَخَبَتْ. فَخَفَّتْ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكَتْهُ، وَلَكِنَّهَا
تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلَّتْ تَرْنُو جَاحِظَةً وَشَفْثُهَا بَيْنَ
أَسْنَانِهَا، وَظَلَّتْ تُنْسِكُ وَجِيبَ قَلْبِهَا بِيَدٍ، وَتُكْفِكِفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِهَا بِيَدٍ، وَطَالَ
بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجَلِّبُهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعَتْ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقْدِمُ
عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا آسَمُهُ وَزِدَانُ، تَمَنَّتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ
أَنَّهُ سَقَطَ طُعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَّادُهَا الْحَبِيبُ الْمَفْدَى.

مَا لَبِثَ ابْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى
«شَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلْتُكَ أُمَّكَ. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِذَا، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُنُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَوْنَا شَفَيْتَنَا أَنْفُسَنَا وَأَدْرَكُنَا ثَأْرُنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيَحَكَ! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أَجِدُنِي أَنْشِرِحُ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ الْعِبَادَ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُعْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ: إِنِّي لأُصَلِّي تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَسْأَمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذْ خَرَجَ عَلِيٌّ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَتَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيٌّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفًا ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِيًا ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: لَا يَفُوتُكُمْ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأُخِذَ وَأُدْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِتُّ، وَإِنْ بَقِيْتُ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ آلَفَتْ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْنَكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا يَا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَأَضْرِبْهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُثْمِلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمَّا أَحَسَّ دُنُوَّهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْأَمْرِ بِالنَّهْيِ، وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَبْكِيَا عَلَى شَيْءٍ

زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْنِيَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُونَا
لِلظَّالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةً
لَا إِمَّ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أُوصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَيْبِكُمَا، وَقَدْ
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ!

*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذْرِكْ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالنَّبِيُّ كَافَحَ الشُّرَكَ، وَعَلِيٌّ كَافَحَ
النِّفَاقَ...

وَالنَّبِيُّ ظَفَرَ بِالْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفَرَ بِمَعْرَكَةِ التَّطْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنْتَ قُرْئُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلَيْهَا!
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدِّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجَهُ فَكَانَ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَرِضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثَّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ
الْحَقِّ شَهِيدًا!...

*

إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتَاعاً، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنْ عَلِيّاً لَا يُشَيِّعُ بِالدَّمْعِ...
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضَحِيَّةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضَحِيَّةِ...
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالدَّمْعِ بَلْ بِالدَّمَاءِ الْخَالِدَاتِ!...

*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِكْلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِكْلِيلُ غَارٍ يُعَبِّرُ عَنْ خَالِدِ
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدَّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِثَبَاكِ وَضِيء...
وَكَانَ شِعَارَهُ أَنَّى سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...
وَوَظَلَ الْإِكْلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلّاً لَزَهْرَةٍ حُمْرَاءَ أَيْضاً...
فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ كَانَ بِنَفْسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْحُمْرَاءَ...
وَوَظَلَ إِكْلِيلُ الْغَارِ الْعَظِيمِ ذِكْرَى رَائِعَةً فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ!...

*

إِسْتَغْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرُثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ رَاعٍ النَّاطِرِينَ
لَقَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنَّكَ خَيْرُهَا حَسَباً وَدِيناً
ثُمَّ تَمَّتْ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...
وَحَلِيقُ بِي أَنْ أُجِيبَ النَّدَاءَ!...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَيَّمَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حَوْبَائِهِ بِأَسْبَابِ بِأَسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ تَجَهُّمَيْنِ.

بَلَّةُ فِكْرَتِهِ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي أَعْتِبَارِهِ عَنْ مَسْرَحِيَّةٍ مُرْسَلَةٍ
إِزْسَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَاحِدَةٍ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسْرُ فِي بَعْضٍ مِنْهَا، وَتُشْقِي فِي بَعْضٍ،
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُ حَقِيقَةً،
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتُلَوِّنُ بِهَا وَتَعْلُقُ فِي
الْفِكْرِ رَغْبَةً تَضْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَّا أَنَّهَا وَقَعَ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ
قَوْمٍ فَوَائِدُ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْتَلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ حِيَالَ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَايُنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمُتَبَايِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُحِسُّ كُلُّ مَنَّا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْنَوِيًّا. أَمَا يُحِسُّ كُلُّ مِنَّا، إِذَا اقْتَنَعَ بِأَمْرٍ أَوْ بِرَأْيٍ، أَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ وَاقِعٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ هَذَا الْأَسْمُ، إِلَى وَاقِعٍ لَيْسَ سِوَاهُ خَلِيقًا بِإِطْلَاقِ الْأَسْمِ؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَئِسُ وَنَحْنُ نَعْبَثُ جَذَلِينَ بِأَسْلَاءِ الْأَعْدَاءِ وَدِمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الْحَيَّةُ إِذَا تَهْدِمُ الْعِلَاقَةَ السَّبَبِيَّةَ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا، وَالْعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الْوَاقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ لَيْسَتْ وَاقِعًا، أَوْ لَا تُعْبَرُ عَنْ وَاقِعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الْحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ وَاقِعَهَا فِي أَنْفِعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ^(١) أَوِ الْوِجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَرْكَزِ الْأَنْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكِنِّي يَكُونُ إِذَا لِلْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ فَتَنْشُجُ وَخْدَةٌ أُثَرٍ، لَا بُدَّ مِنْ وَخْدَةٍ زَمَانٍ وَوَخْدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخْدَةٍ حَادِثٍ وَوَخْدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ أَهَمُّ الْوَخْدَاتِ مِنْ حَيْثُ تَجِدُ الْحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي بَيْدَائِهَا وَاقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الْحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتَهَا، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْأَلَمُ وَاللَّذَّةُ؟ وَأَيَّانَ تَقُومُ الْمُغْرِيَاثُ وَالْفُتُونُ؟ فَلَنُجَرِّبُ إِذَا جَيِّدًا أَنْ لَا نَضْحَبَ أَلْوَانَ الْحَيَاةِ الَّتِي تُمَرُّ بِنَا بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُوحِيَّةً تَافِهَةً الْقِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرُوحِيَّةِ نَفْسِهَا - وَهِيَ آفِتْعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسِرُّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الْحَيَاةِ، أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الْاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطُّ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ تَمْلِكُ سِوَى أَشْمَاءٍ نَحْنُ نُفْرِغُ فِيهَا مُسَمِّيَاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالْاسْتِجَابَةِ، أَدْرَكْنَا سِرَّ الْحَيَاةِ وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَمَاتِ الْخُلْدِ، وَأَنْشَيْنَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَخْلَامِهَا... رَنَّ فِي أُذُنِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ فِي مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلَنَتَجَرَّدُ! هَلُمَّ إِلَى الْهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ الْمُعْبَدِ، مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ!

(١) نَعْنِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضْمَرُ، أَيْ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ دُونَ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْوِجْدَانِ.

ظَلَّ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ بِالنُّشُوءِ وَسَكْرَةِ الْحُلُمِ، وَخَيْنِ الرُّوحِ، وَرَفَّةِ الطُّهْرِ،
وَحَقْفَةِ الْحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الْهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ الْفُتُونِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشَحَاتِ الْأَعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَأَلَمٍ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا مِنَ السَّرَابِ.

كَانَ كَأَنَّهُ فِي مِخْرَابِهِ بَيْتَ الْقَصِيدِ فِي أُنْشُودَةِ الْحَيَاةِ، أَوْ أُنْشُودَةِ الطُّهْرِ فِي
شِعْرِ الْوُجُودِ.

ظَلَّ فِي مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، فِي حِسَابِ مَنْ دُونَ
حُدُودِ الْهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، فِي حِسَابِهِ، لَمْ يُفَنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ فِي لَحْظَةِ
الْإِشْرَاقِ وَجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدٌ، وَأَوَّلُ آغْتِبَارٍ فِي الْأَبَدِ إِلْغَاءُ فِكْرَةِ
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وَفِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ سِرُّ الْحَيَاةِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا السِّرُّ فِينَا لَا نَفْتَأُ نَنْشُدُ النُّشُوءَ
فِي الْحُبِّ وَفِي الْفَنِّ. وَلَآنَ فِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لَا يَشْعُرُ الْمُحِبُّونَ بِدُنْيَا
الْحَيَاةِ وَمَا آجَتَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آتَشَوْا فَهُمْ يَحْلُمُونَ.

فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالْحَيِّ إِلَى التَّأَمُّلِ لِيَنْجُوَ
مِنْ غُبَابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ فِي الْإِلْتِمَاعِ السَّاخِرِ.

إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْحُبِّ، وَلَحْظَةُ الْإِشْرَاقِ
فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْهَيْكَلِ أَيْ التَّأَمُّلِ، وَهُنَا تَرْتَفِعُ سُدُودُ الشُّعُورِ
فِي الْقَلْبِ، فَتَتَدَفَّقُ لُجُجُ الْإِشْرَاقِ، وَفِي غُبَابِهَا بَاتَ الْحُسَيْنُ يَطْفُو حَالِمًا يَسْمُو بِهِ
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشْوَانُ. أَلَيْسَتْ مُحْشَاةُ تُنْدِيهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، تُرَابٌ بِقَمِي: إِنَّهَا تَنْدِي بِرَحِيقِ
الْأَزَلِ.

بَدَأَ الْحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْئًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَانْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا، فَقَدْ فَنِيَتْ الظُّلَالُ كُلُّهَا فِي الْإِشْرَاقِ،

وَأَمْحَى خَيَالُ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا بَدَعَ إِنْ آسَتْوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا آسَتْوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالْمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعُلْيَا. فَهُوَ خَصِبُ الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةُ، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرُ صَالِحٍ لَخَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ يَنَابِيعُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مَصْدَرُ نُمُودَجَاتٍ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَخْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعَنْدَلِيبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْلَامُ الْعُلْيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدْ آسَتْطِيرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَعْرِقُ مُتَأَمِّلاً فِي بَيْدَاءِ جَمَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَدَ الْحِرَابُ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَغْدُ يَمُدُّ خَيَالَ الْإِنْسَانِ بَلْ غَدَا يَمُدُّ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَضْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ إِنْسَاناً يَعِيشُ فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالَ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالَ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مُصَلِّياً حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيحاً جَوَاداً حَتَّى كَأَنَّ غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُمْتَطِياً صَهَوَاتِ خِيُولِهِ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ أَنَّهُ - مِثْلَمَا نَعْبُرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَسْمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْعِدَةِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّهُا تَزُورِي غُلَّتْهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعَطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رَقَارِقِ التَّيْبُوعِ، فَمَا كُنْتُ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفَاءَ حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَيْنِ إِلَى الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبَدُ اللَّهِ بَنُ عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آبُنُ رَسُولِ اللَّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ آخُذَ بِرُكَايِهِ؟... وإذا أَبُو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي جَنَازَةٍ
فَأَعْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ:
وَأَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لِحَمْلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!...
وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ،
فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكانة، لا تَزِدُّهُ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ
بِنَقْصِ الذَّاتِ، وَجَبْرٌ لِهَذَا النِّقْصِ بِالتَّظَاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَثَوَابِ،
وَالْعَظَمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَسْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ غُرْبًا.

فَالْكَِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَبْنَى أَنْ يَكُونَ فِي الذَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِذْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا
حَالَتَيْهَا تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةِ الْأُورَاقِ فِي الْخَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ النَّعَامِ فِي الْإِغْصَارِ.
زَعَمُوا أَنَّ ثُقَافَةَ نَبَتَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطْلَتْ عَلَيْهَا مِنْ غُلَيَّائِهَا
الشَّامِخِ بِخُيَلَاءٍ وَآزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ جَنَّاكِ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى
صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَارِلُ غَايَاتِ الْأَشْجَارِ
وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَفَضَتْ تَصْفُقُ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يَهْدِيْهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحَكُ مُتَمَائِلَةً
فِي سُخْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزَارُ فَطَالَتْ ضِخْكَتُهَا وَاسْتَحَالَتْ
فَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهِيْبَةٍ أَنْكَفَأَتْ مَعَهَا
تَزْتِطُّ بِالْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ الثُّقَافَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَيْتُهَا الْأُخْتُ - أَصْدَقُ رَمْزًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقِي جَدُّ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَاوِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ
مِنْ ثَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْغِصًا كَالَّذِي مَسَتْهُ أْفْعَى، وَتَزَايَدَ

به الظَّمأُ، وتَلَبَّثَ في حَيْرَةٍ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الأُخْرَى، فَأَخْلَوَى وشَاعَ الرِّيُّ في جَوَانِحِهِ، فَقَالَ:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ حُدُودِ الحِسانِ، وَأَمَّا أَنْتِ الأُخْرَى فَبَعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ جَلَّةِ الجِمالِ! فَسَمِعَتْ كِلْتَاهُمَا حُكْمَ الحَقِيقَةِ عَلَيْهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ الوجودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ فِي العَدَمِ، وَرَاحَتْ وَقَدْ آخُضِرَتْ عَلَيْهَا الكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَزَّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ المَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ والدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضًا: إِنَّنِي لَمْ أَزَلْ كِبْرِيَاءً تَعْلُوا...!

«مَرَّ الحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ^(٢)، فَقَالُوا: الغَدَاءُ. فَتَزَلَّ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُتَكَبِّرِينَ. فَتَغَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ... فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لِحَادِمِهِ: أَخْرِجِي مَا كُنْتُ تَدَّخِرِينَ».

والحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُبْعِنُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَغْشَاهَا، يُصْلِحُ فِيهَا وَيُصْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنُ الهَيْكَلِ بالخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غَارِ حِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أَوْثَانُ الأَحْيَاءِ، فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمِعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الوَثْنِيَّةَ فِي الفِكْرِ وَدَحَضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبْطُ حَارَبَ الوَثْنِيَّةَ فِي المُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدَحْضَهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا، وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى آيَةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

*

(٢) المكان المَعْدَّ لِطَعَامِ المَسَاكِينِ والفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْعُثَاءِ وَالظُّلَالِ...
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْخَمْرِ تُعْبِرُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرَبْدَةِ دُونَ مَا
أَحْلَام!...

*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هِبَةُ الْأَبَدِيَّةِ...
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَّفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفْقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِيعُ فِي السَّمَاءِ...
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

* * *

فِي وَجْهِ الظُّلْمِ

فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْعَمِيقِ غُمَقَ الْأَبَدِيَّةِ وَالْمَجْهُولِ، حِينَ كَانَ الظَّلَامُ يَنْتَشِرُ عَلَى شَكْلِ أُرْدِيَّةٍ فَاحِمَةٍ، تُلْفَعُ وَجْهَ الْكَوْنِ وَتُلْقِيهِ فِي سُكُونٍ حَائِرٍ وَسُبَاتٍ وَاجِمٍ مُخِيفٍ، أَنْطَلَقَتْ أَنَّ تَتَّبِعُهَا أُخْرَى وَأُخْرَى، فِي تَلَاْحِقٍ بَدَأَ بَطِيئاً ثُمَّ كَرَّ سَرِيعاً، وَكَانَتْ أَنَا تُسْمَعُ جَرِيحَةً، وَيُخَيَّلُ أَنَّهَا تُرَى دَامِيَّةً كَلِيمَةً، تَجْمَعُ فَتُشَكِّلُ صَرِيحَةً بَاغِتَةً أَوْ بَغْتَةً صَارِيحَةً، وَتَتَوَزَّعُ مُتَقَطَّعَةً مُتَنَاوِحَةً فَتُؤَلَّفُ لَحْناً فَانِيّاً، كَأَنَّهُ لَحْنُ التَّلَاشِيِ الْمُحْتَضِرِ، أَوْ نَعْمَةُ الْفَنَاءِ الذَّائِبِ فِي أَفْوَاهِ الْقُبُورِ.

أَصْغَى الْحُسَيْنُ إِلَى مَا يَتَنَاهَى فِي سَمْعِهِ، وَمَالَ بِأُذُنِهِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُ: مَاذَا؟ وَقَدْ خَفَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا يُسَابِقُ السَّمْعَ، وَلَكِنَّ النَّأْمَاتِ اخْتَلَطَتْ فَأَدَارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِمَا إِلَى الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَهَذَا قَلْبُهُ يَتَوَثَّبُ يَمِيناً وَشِمَالاً، يَتَدَّ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَقُولُ فِي مَنْطِقِ الصَّدَى: أَوَاهُ! وَظَلَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَاذَا؟ وَاخْتَلَطَتِ الْآهَاتُ وَأَنْبَهَمَتْ... فَهَبَّ يَشْتَدُّ خَارِجَ الْهَيْكَلِ مُسْتَطِلِعاً وَهُوَ يُرَدِّدُ:

أَلِّلُّ لَيْلٌ، وَهُوَ وَيْلٌ وَيْلٌ وَسَالٌ بِالْقَوْمِ الطُّغَاةِ السَّيْلُ

وَيْلٌ لِلظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ، «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَطْلَّ مِنَ الْهَيْكَلِ، وَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَالنَّاسُ مُتَجَمِّهُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ كَالْغَمَامِ

المُرِفُّ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ضَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطَلُّ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تُمَزَّقُ أَكْبَادُ وَتُنْتَشَرُ أَشْلَاءُ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجَرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيَالٍ فِي نَفَرٍ مِنْ صَحْبِهِ، وَهَوْلَاءِ وَجُوهُ أَهْلِ الْكَوْفَةِ يَسْتَضَرِّخُونَ وَيَنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحُجَرٌ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةُ أَشِيحِي وَأَعْرَبِي، وَيَا دُنْيَا الْآثِمِينَ ذُوبِي وَأَضْمَحِلِّي!

وَكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرٍ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَإِلَيْكُمْ تَتَّجِهُ الْأَنْظَارُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيئُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعَّرَعَتِ الثُّبُوءُ، وَاشْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَّتْ خَوَافِهَا. فَاسْتَوَى النَّسْرُ وَحَلَّقَ صُعُداً فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبُغَاثِ، وَأَهْوَى الْخَفَاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَخْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّسْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَاذٌ عَمِيقٌ، فَاسْتَنْسَرَ الْبُغَاثُ وَعَدَّتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَسْرُ الثُّبُوءِ، فَأَهْيُوا بِالنَّسْرِ إِلَى التَّحْلِيْقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَنْسَحِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَداً.

أَلَا فَانْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَابِثِينَ. أَلَا لَقَدْ آرَتَدَّ الْمُجْتَمَعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرَّعْنَاءِ، وَلَكِنْ بِأَثْوَابٍ أُخْرَى تَتَمَازَجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا فَقَطْ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أُنْظُرُوا! أُنْظُرُوا! لَقَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ عَدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبَشَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُغْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقُوى فِي

أَيْدِيهِمْ. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي حُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمُسْلِكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، فَإِذَا نَحَرْنَا نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِي مُنْكَرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَاَنْتَزَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعِمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرِ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهُ.

وَضَحَّ الْكِندِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لِثَارَاتِ حُجْرٍ! وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكَوْفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي ثَارَاتُهُمْ مَضْرَعِ حُجْرِ بْنِ عَدِيِّ الْكِندِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرِّجَالِ، وَنُقْطَةِ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَرْوَغَ أَنْوَاعِ الْبُطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بْنَ سُعْبَةَ الْكَوْفَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشْتَمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَيْبِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِإِطْرَائِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِذْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمَغِيرَةُ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُراً، لَا يَدْعُ ذَمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدُّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ فَذَمَّمَ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذْمُونَ وَتُعَيِّرُونَ لِأَحَقِّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةٍ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَغْلُغْلِ بَيْنَ خَنَائِيهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنْقِصِ مَا يَكْفِي لِيُبْعَثَ الدَّفَائِنُ وَإِذْكَاءُ نَارِ الْحَفَائِظِ إِذْكَاءَ جَهَنَّمِياً سَاجِراً، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا شَرَّ تَطَوَّاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَامِسَةٍ دَفِينَةٍ وَتَعْدُو فِي آثِمَارَاتٍ تُرْوِي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةٍ غَايَاتٍ:

أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دِعاياتٍ ضِدَّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وسائِرِ
مَنَاطِقِ نُفُوذِهِ.

ب - بَثُّ عَقِيدَةِ سَيِّئَةٍ تَنُمُو مَعَ الأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي البَطْلِ الإِسْلامِيِّ
الخالِدِ عَلِيٍّ، وفي بَنِيهِ، وبذلك يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ
المُحَاوَلَاتِ الكُبْرَى، فَقَدْ سَمَّمَ الجَوَّ عَلَيْهِم. وَغَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ الآراءَ والمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا
تَنشَأُ بالتَّلْقِينِ والتَّكْرارِ والمُعَاوَدَةِ.

ج - تَحْرِيكُ أَنْصارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمُ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجالِ الدَّوْلَةِ
والدَّوْلَةِ، وبذلك يَجِدُ السَّبَبَ لِإِدَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، وهذا ما وَقَعَ
لِحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَماعَةٍ كُبْرَى هُنَا وَهُنَاكَ.

ولكن، رُغْمَ أَنَّها تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِياسَةً هَوَاجَاءَ أُعْشى
فِيها غُنْصُرُ الانتِقامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلْمِ الضَّرُورِيُّ إِذْ ذاك، لِإِيجادِ حَالَةٍ تَواصُلٍ
صَحِيحٍ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ والشَّعْبِ.

والمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذاك، حَسَنَ التَّائِي، فَهُوَ يَفْعَلُ ما يَأْمُرُ بِهِ مَرَجِعُهُ،
وَيَتْرُكُ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى
وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الكُوفَةُ والبَصْرَةُ لَزِيادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ المِيزَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ
وَأَصْحابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ
بِالمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ زِيادٌ إِلَى البَصْرَةِ، وَوَلِيَ الكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ - أَيُّ
زِياداً - أَنَّ حُجْراً يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلْمَهُمَ والِبَرَاءَةَ مِنْ مُعاوِيَةَ
وَعَمَلِهِ. فَشَخَصَ إِلَى الكُوفَةِ وَخَطَبَ الجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ
حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا
خَشِيَ فَوْتَ الصَّلَاةِ ثَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسَعْ زِياداً إِلَّا النُّزُولُ والصَّلَاةُ
بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعاوِيَةُ: أَنَّ شُدَّةَ فِي الحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلْهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادٌ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ
سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا غُنْقَهُ... فَقَالَ
حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونَ أَمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّهِ... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْلَا أَنْ تَطْنُوا بِي غَيْرَ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لِأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ مِمَّا كَانْتَا، وَلَئِنْ
لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ
أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أُلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى
الْجَادَّةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابُهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ، فَقَتَلَ عُمَرَ بْنَ الْحَمِقِ وَرِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ
إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهَيِّبُ بِكَ،
إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنْرَعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُغْتَصَمٌ،
فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبْيَيْنِ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الرَّغَبِ.

وَهَبْتُ تُغُولُ أُخْتُ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرْفَعُ أَثْمَارَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْحَبِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنُ وَالسَّدِيرُ
وَأَضْبَحَتِ الْبِلَادُ بِهِ مُحُولًا كَأَنْ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمَ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بَنِي عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ
أَلَا يَا لَيْتَ حُجْرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنَحَرْ كَمَا نُحَرُّ الْبَعِيرُ
فَإِنْ يَهْلِكَ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ إِلَى هُلُوكِ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ
وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزْنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ
ذَوِيهِ، أَوْ كُلَّ بَنِيهِ:

يَا حُجْرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْفَضَائِلِ نَابَةَ الذِّكْرِ
كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثُّغْرِ
كَانَتْ حَيَاتُكَ إِذْ حَيَّتْ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظُّهْرِ
يَا طُولَ مُكْتَأَبِي لِقَتْلِهِمْ حُجْرًا، وَطُولَ خَزَاةِ الْبُصْدِرِ
قَدْ كِدْتُ أَصْعَقُ جَارِعًا أَسِفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى حُجْرٍ
فَدَمَعْتُ مُقَلَّتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ
لَسِرْتُ بِالنَّاسِ، وَثُرْتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
وَبَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادٌ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ حُجْرٍ
وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِعًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبَ! كَذَبَ! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:
إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ
عَلَيَّ زِيَادٌ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمَ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلُ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبُ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ
يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِحُجْرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكان على المدينة يؤمئذ مروان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أن رجالاً من أهل العراق قدِموا على الحسين وهم مقيمون عنده يختلِفون إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمورُ عنك لستَ بها حريّاً، إن كنتَ حقّاً فقد أظنك تركتها رغبةً فدعها، ولعمرك الله إن من أعطى الله عهداً وميثاقه لجديرٍ بالوفاء، وإن أحقّ الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته، من كان مثلك، في خطرِكَ وشرفِكَ ومنزليكَ التي أنزلَكَ الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنتَ أعدلُ الناس لذلك. فعِظْ نفسك، وبعهدِ الله أوف، فإنك متى تُنكرني أنكرَكَ، ومتى تكذّبي أكذَكَ. فاتّقِ شقَّ عصا هذه الأمة، وأن يردّهم الله على يدِكَ في فتنة. فقد عرفتَ الناسَ وبلوتهم، فانظرْ لنفسِكَ ولدينِكَ ولأمةِ مُحَمَّد، ولا يستخفَكَ الشفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازيل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلبّث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقةً آتھاميّةً خطيرةً للسلطات الغلّيا، وقائمةً إحصاءٍ بالأعمال الاغتيالّية التي أرتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعبيّاً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكّر فيه أنه انتهت إليك عني أمورُ أنتَ لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رقاؤه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، ما أردتُ لك حزباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... ألسنت القاتل حُجر بن عديّ أcha كندة وأصحابه المصلّين العابدين، الذين كانوا

يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْظِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّائِمَةً، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانَ الْمُغْلَظَةَ وَالْمَوَاقِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْهْدِهِ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ، فَتَحَلَ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أُمِنَتْهُ وَأُعْطِيَتْهُ مِنَ الْعُهُودِ مَا لَوْ فَهِمَتْهُ الْعُصْمُ لَنَزَلَتْ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوَلَسْتَ قَدْ سَلَطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أُغْيَنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمٍّ الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسَّمُ الرَّحْلَتَيْنِ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظِرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَآتَقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِئْتَةٍ. وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِئْتَةً أُعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أُعْظَمَ نَظْرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُونِي وَإِنْ أَكَذَّبَكَ تَكْذِبُونِي، فَكَيْدُنِي مَا بَدَا لَكَ، فَإِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لَأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتَّلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُذْرَكُوا.

فَابْشُرُوا يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأُخْذِكَ بِالظُّنَّةِ، وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الثُّهَمِ، وَنَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُرْبَةِ. مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَتَبَرَّتَ دِينَكَ، وَغَشَّشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرَدِّدُهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَدًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالْإِعْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ الْمَخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمَنْفَعَةِ الْخَالِصَةِ فَهُنَاكَ يَوْجَدُ أَفْطَحُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالْإِعْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمَخْطِئِ يَدْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشُّدُوزِ، كَمَنْ يَتَعَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ وَخْشِيَّةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُحَسُّ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ بِتَزْدَادِهَا وَتَعْدَادِهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةِ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وَهَذَا مَا قَدْ حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أَبْلَغَ تَعْبِيرٍ: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حِقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْهُ جَوَابًا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكَّرْ فِيهِ أَبَاهُ بِشَرِّ فَعَلِهِ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:

أَمَّا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟

قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ؟ قالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قالَ مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قالَ مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُمَا. أَرَأَيْتُمَا لو أَنِّي ذَهَبْتُ لِغَيْبِ عَلِيٍّ، فما عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى ما عِثْتُ رَجُلًا بما لا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَخْفَلُ بِهِ، ولا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْئًا وَكَذَّبُوهُ، وما عَسَيْتُ أَنْ أُعِيبَ حُسَيْنًا، واللَّهِ ما أَرى لِلْغَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهَدَّدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بَعْدَ هذا لم يَسَعِ الْحُسَيْنَ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا وَيَحْيَاهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعْجُجُ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتَخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُضْلِحُ مِنْهَا ما وَسِعَهُ إِضْلَاحُهُ وَيُحْدِثُ ما آسَتْطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ آتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَاجَ عَمَلٍ شاذٍّ، فَهِيَ تَسْعَى لِلْحَيَازَةِ ما وَسِعَهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حُقُوقُ الضُّعْفَاءِ ضِياعًا تامًّا، وَأَضْطَرَّ الْأَفْرَادُ إِلَى اسْتِغْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلإِخْتِفاظِ بِحُقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضَّيْمِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَضْطَرُّوا أَخِيرًا إِلَى إِحْيَاءِ الْوَسَائِلِ الشَّائِعَةِ وَاعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النِّظامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ ما يُسَمَّوْنَ «حِلْفَ الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعْبَرُ عَنْ تَكْتُلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَحِمَايَةِ الضَّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسْطِ الْحُكُومَةِ النِّظامِيَّةِ بِالطَّبَعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسْطِهَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسَهَا بَاتَتْ

خَطراً على الأمن والحقوق.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يَوْمَئِذٍ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةٌ فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَتُنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَا أَخُذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَا قَوْمَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لَا دُعُونَ بِحِلْفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَعِنَ دَعَا بِهِ لَا أَخُذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَا قَوْمَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ جَمِيعاً... وَبَلَغَتْ الْمِشْوَرَةُ بَنَ مَحْرَمَةَ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عُثْمَانَ التَّيْمِيِّ فَقَالَ... وَيُظْهَرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَصْرَحَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدْخُلُ، وَكَانَ مِنْهُ مَيْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: إِخْتَرْ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ابْنَ عُمَرَ أَوْ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الصَّيْلَمُ^(١).

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَمَا هِيَ؟

(١) الصَّيْلَمُ فِي أَصْلِهِ مَعْنَاهُ السَّيْفُ، ثُمَّ جَرَى كِنَايَةً عَنِ الْاِتِّحَادِ بِالشَّدَّةِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعُنْفِ. وَحِلْفُ الْفُضُولِ هَذَا، كَانَ وَسِيلَةً أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاشِمٍ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مُزَوَّرٌ مِنْ مَتَابِعَاتٍ مَا قَتَلَ الْإِسْلَامَ وَاسْتَمَرَّ فِيهِ... يُشَاكِلُ مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْإِضْرَابِ الْعَامِّ بِمَعْنَاهُ الْإِجَابِيُّ أَيْ الْمُضْحَوِّ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْاِتِّنَاعِ عَنِ الْعَمَلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِجَابِيُّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلُغُ دَرَجَةَ الْعِصْيَانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْرِيصِيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَمَّيَهُ: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلَةُ: الْقَعْقَعَةُ بِالسِّنَانِ أَوْ الْأَسْنَانِ... وَأَخْبِيئُهَا مِنْ قَبْلُ فِي الْأَرْبَعِينَ لِتَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَالُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَنْتَعِلُونَ الْقَبَاقِبَ الْحَشَشِيَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْعَمَلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا نَقَمُوا لِأَمْرٍ مَا لَجَّوْا إِلَى الْاِسْتِنْكَافِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَاقِبِ عَلَى الْآلَاتِ إِلَى حُدِّ الْإِثْلَافِ أحياناً.

قال: أَهْتِفْ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغْضَبًا، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَعِنَ هَتَفْتَ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنُفُذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلَمِ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ آتَبَعْتُ فَأَنْتَقِدُ مَالَكَ، فَقَدْ آتَبَعْنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ ثَوَرَةٍ اسْتِنْكَارٍ مُنْظَمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَخَبِّطَةٍ، دَائِمَةُ الْحَيَاةِ دَائِمَةُ التَّزْوِيعِ، يُطْلَقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَضُمُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الْاجْتِمَاعِيُّ كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضًا، فِي تَقْدِيرٍ مَوْزُونٍ.

*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوَلَ الْحَقُّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَزْتَكِرُ فِيهَا...
وَمَا هُوَ حَتَّى أَمْتَدَّ وَتَفَرَّعَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ أَمْتِدَادِهِ...
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْئًا وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...
وَإِذَا بِهِ يَبْتَخْتُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِصَمٌ سَرَابٍ لَا يُمَدُّ
بِالْوُجُودِ...

*

فِي الْحُيْطِ الْمِلْحِ يَنْبَثِقُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلَّالَى...
فَأُغْرِيَ الْحُيْطُ بِلَالِيهِ فَرَاخٌ يَعْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...
وَلَكِنَّهُ تَمَخَّضَ طَوِيلًا، وَأَنكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ
الْمَرِيرِ...

*

في لَوْحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةُ نور...
فَنَشَرَتْ أَشِعَّتْهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِبْدَاءً لِمَا أَجْتَمَعَ فِي
وُجُودِهَا مِنْ سِنَى وَسَنَاء...
وراح السَّوَادُ، كُلُّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضِيفُ إِلَى كَوْكَبَةِ النُّورِ
جِدَّةَ إِشْرَاق...
*

وَكَانَ كُلُّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرِقُ بِحَسَنِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَكَ الضُّيَاءِ،
فَتَحْتَضِرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوْكَبَةُ النُّورِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي
التَّارِيخِ، وَرَجَّعَتْهَا أَبَدِيَّةُ الضُّمِيرِ...
* * *

مع أرنيب

هناك على شاطئ دجلة، في زاوية خليج البصرة، كانت الأبلّة^(١) مَهوى
مُتَمَاجِنِينَ ومُتَمَاجِنَاتٍ، ومَهْبِطَ وَحْيِ الهوى والشباب، وملهى كُلِّ فتى وفتاة بلور
المرح طبعتهما، ثمَّ أطلَّ ينظرُ إلى صورته فيها. وليس في جس هؤلاء عَن الحياة
سوى أنها شيءٌ يَحُلُو وَيَلْهُو، كأنداء السحر في شفاء الأفاع والياسمين،
وكُلُّ لُؤَاتِ الطلِّ في خُدودِ الورود والرياحين... فهُمْ يُفَنُونَهَا سَكْرَى مَرَحٍ ونشأوى
مُجَوِّن... ولا يَطِيفُ بِسَمْعِهِمْ سوى نَغَمَاتٍ تَتَنَاهَى مُتَلَاشِيَةً في هذا القرار:

يا للشباب المَرَح، التَّصَابِي... رَوَائِحُ الجَنَّةِ في الشباب

ففي أَعْمَاقِهِمْ صَوْتٌ يُهَيِّبُ بِهِمْ إلى التَّجَنُّجِ في فضاء المراح، والفناء في لا
وَعْيِ الظُّرْفِ العَرِلِ... وهل الحياة، مِنْ واجِهَةِ الشباب، سوى إغراءة تقوُّمُ في اللُّهُو
العَابِثِ إلى أُخْرَى تَسْتَوِي في المَجَانَةِ اللَّاعِبَةِ!؟ ثُمَّ هَلِ الدُّنْيَا سوى إغراءٍ مُتَجَلِّبٍ
بِإِغْرَاءٍ، يُبَالِغُ في أُسْرِهِ حَتَّى لَيْسْتَ دُنِي إِيَّاهُ مِنْ آخِثِصَرِ الشباب في قُلُوبِهِمْ بِالْعُمْرِ أَوْ
بِالْفِكْرِ، فَيَسْتَهْوِيهِمْ، وَرُبَّمَا آسَتْغَوَاهُمْ أَيْضاً بِمَا يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلَب:

إِنَّ بِالْحَيِّرَةِ قَسّاً قَدْ مَجَنُّ فَتَنَ الرُّهْبَانِ فِيهَا وَافْتَتَنَ

(١) نَهْرُ الأَبْلَةِ كَانَ مُنْتَزِعاً مَغْدُوداً فِي جَنَاتِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ.

تَرَكَ الإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوناً... فَرَكَنْ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضِرَ الشَّبَابُ بَيْنَ بُرْدِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوَّةِ الْمَعْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصُّمُتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيْشُ بِهِ مِنْ إَغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاطِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاخِرًا... يُجَرِّبُ هَذَا الْمَجُونُ حِينًا فَقَطْ، وَيَزُوي ظَمَاءَ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَتَدَنَّسُ أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجُونٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثُوبًا مَسْتَهْ لَمَسَتْهُ فُتُونٌ، وَدَبَّ فِي حَنَائِهِ مِنْ شَوَاطِئِ الشَّبَابِ طَائِفٌ مُجْنُونٍ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ رَكَنَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنْقَلِبُ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَنِيمُ مُسْتَرْخِيًّا عَلَى مَتْنٍ مُوْجَةٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ^(٢) فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَارِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبْلَةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَدًا إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النِّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَخْبِ الْمَجُونِ وَعَرَبِدَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأْيَكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعَ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَغْرَابِيَّ الشَّوْهَةَ، فَتُمَتِّعَ حَوْبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنْ الْمَجُونُ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهْقَهَ الدَّلَالُ، وَأَنْقَلَبَ الصَّحْبُ يُسَائِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبْرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَغْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخَلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفًا، وَزَادَ بِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَغْرَابِيَّ يَعْرِفُنِي بِالْمِزَاحِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَحَابِ شَخْصِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ غَزِلَتْ، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَمْسَرَةَ الزَّوْاجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمَكْتَبِ الزَّوْاجِ. رَاجِعْ أَخْبَارَهُ فِي: الْأَغْنِي لِلْأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيعُ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..

فَيَحْتَمِلُهَا مِنِّي.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَفَوْقَ نَحْوِي
سَهْمًا، وَوَاوَصَلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلَحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ عَيْنَاهُ،
وَلَكَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُجُ وَعُشْرُ
الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّخْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينَ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَائِقِ الْفَتَيَانِ وَغَوَانِي الْفَتَيَاتِ، هَذَا النَّيْرُوزُ...
حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ آتَّخَذَتْ فِيهِ مَعْرِضَهَا، فَأُطْلَعَتْ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ
آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالذَّاعِيَةِ بِالْقِيَامِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُشِيرَةِ بِأَسْرِ السَّحْرِ
فِي الْعُيُونِ وَالشُّفَاهِ إِلَى فِرْدَوْسِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرُّ الْأُبُلَّةُ مَعْدُودٌ أَحَدَ
مَسَارِحِ الْجِنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيرُ الَّذِي بَالَغَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ -
قَدْ ذَهَبَ مَوِغِلًا فِي الصَّخْرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الظُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَاذِرِ
وَالْأَرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَّامِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَّتْهُ الْمُطَارَدَةُ وَأَخَذَتْهُ
نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمُرَةٌ لَهْوِهِ تَتَّبَعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ اللَّاهِنِ فِي نَهْرِ الْأُبُلَّةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى
رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحْرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُذَرِكْ... وَمَالَ يُرَبُّتُ
عَلَى كَيْفِ تَرْبٍ مِنْ أَثَرِيهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَدْفَعُ ذَاكَ لِأَهِيًا
عَابِثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثَرِهِ سَرَجُونُ رَاعِي طُفُولَتِهِ وَصِبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ
فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ.
فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةً وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصِيفٍ، كَبَغْتَةِ بَدْرِ أَنْشَقَ عَنْهُ الْغَمَامُ، وَاسْتَعْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَرَجَّ نَفْسَهُ رَجًّا عَنِيفًا، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بَطِيئًا
لِيَتَنَكَّسِفَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبُ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْغَرَائِزِ
الْمُفْعَمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزَّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْثَّانِ مِثْلَ السَّحْرِ،
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ ذَوْبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَتَكَسَّرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمَّحِي رُسُومَهَا فِي
أَنْبِهَامِ كَالِحٍ، وَغُمُوضِ يَائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وَتَغَوُّرٍ فِيهِ ضَجِيجُ الْإِنْتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَازِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجًا وَرُوءًا إِذَا أَضْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدْ
أَنَحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُغْلَقَةِ تَنْشُرُ أَرْيَجَهَا كَالزَّهْرَةِ مَيَّاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحِسُّ بِشَيْءٍ مُبْهَمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَرْعَاهُ بِسِيَاحِ
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا آسَتْحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ آسَتْحَالَتْ الْآنَ فَقَطْ أَثْنَى
كَامِلَةَ الْمَعْنَى. لَقَدْ أَضْحَتْ لَوْلُؤَةَ الْأُنُوثَةِ الْخَبِيئَةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَةِ عَلَيْهَا
صَدَفَتْهَا، وَهِيَ حِلْيَةٌ مَنْشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرَيْنِبُ آبَنَةُ إِسْحَقَ الْأَمِيرِ،
وَسَيِّدَةُ الشَّرَاقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَادِيَةً، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًا
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَغْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيَّةُ
الْأَعْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابَّ النَّضِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبْقُ، وَمَا
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُرَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ
وَتَخَوَّفَ مُرَيِّيهِ سَرَجُونُ، فَزَيَّنَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ
بَصَحْبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّخَرَاءِ وَمَفَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ
لَمْسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِهِ، الَّذِي فَصَلَ فِي غُدُوهِ يَصِيدُ بِهِ الظُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رِيْمَهُ الَّذِي
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَأَعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي ثَوْرَةٍ قَلْبَ:

حَطَّمِ الْقَوْسَ عَلَى صَخَرَائِهِ وَأَتَكَى يَشْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ
أَيُّهَا الْقَوْسُ أَنْتَ مَثَلٌ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَّمْتُهُ الْعَاصِفَاتُ
وَسَأُخِيكَ يُمْنُهُلُ الدُّمُوعُ إِنَّمَا دَمَعُ الْحُبِّينَ حَيَاةُ
لَمْ يَزِدْهُ بُعَادُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهَجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَغَائِرَهُمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ غَنِيْفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى
الذِّكْرِ، لِأَنَّهَا وَخِي الْأَعْصَابِ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَخِي الْقَلْبِ أَوْ
حَاسَةِ الْفَرْ، فَإِنَّهَا تَذْكُرُ وَتَسْمُو بِالتَّلَهُّفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلُهُ الْقَلْبُ
أَوْ حَاسَةُ الْفَرْ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: عُذْرِيًّا، فِيمَثَالِيًّا؛ بَيْنَمَا حُبُّ
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَغْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهِيْجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْإِمْتِلَاءِ؛ أَمْتِلَاءِ
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يَزِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِ وَالْإِنْكِمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ الْقَصْرَ لَهْوًا وَمَرْحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأُنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْغَوَانِي الْكَوَاعِبَ بَاقَاتِ زَنَابِقِ وَوُرُودِ، وَيَهْتَصِرَ مِنْهُنَّ عُصُونًا
لَذَنَةً، وَيَعْتَصِرَ عَلَيْنَهُنَّ رُؤْمَانًا شَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًّا
كَأَنَّهُ نِضْوُ فَلَاحَةٍ أَوْ مَنْزُوفُ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَى وَمُبْلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلاهِهِ الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَانِبَةٌ، وَفِي أَنْتِهَاجِهَا
أَحْتِشَامًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَزْجُرَهُ فِي رَفْقٍ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتُّكُهُ فِي تَحْيِيلٍ،
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَقْدَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتُّكِ يَذْهَبُ
بُروءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشَدَهُ:

إِنْصَبْ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْعُلَا وَأَضْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَآكْتَحَلَتْ بِالْغَمَضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ فَاسِقٍ تَحْسِبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبٍ»
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُذْنَفٌ كَلِفٌ مَصْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،
فِي ظِلِّ شُجَيْرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيَنْتَهَى سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبٍ.

وَكَانَ سَرْجُونُ مُرَبِّهِ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزِمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَأَنْتَهَى
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أُرِينَبْ! يَا مَنْ لَا تَشْعُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلْءَ
الدُّنْيَا لَذَاذَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، آهَ لَيْتَكَ تَشْعُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

آه! هَلْ تَصُدِّقُ أَحْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدَيَّ، تَنْحَنِينَ عَلَيَّ فَتَضَمِّدِينَ جِرَاحَ
فُؤَادِي، وَتَمْلِكِينَ وُجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْقَى وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيَّ الْحُسْنِ. حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَلَكِنْ
دُونَهُ مَفَاوِزَ الْجَحِيمِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْأَشْوَاكِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،
وَلَبِثَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آبَتَلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشُّتَاءُ فِي الْعَاصِفَةِ. عَلَى
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَخِيرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرِيقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا ! لا ! إني لن أنتظر هبة الأقدار حتى تضعها في طريقي وردة مصوخة
ناضبة، إن الضعيف في شرع الطبيعة الحية حمل منهوب، والقوي هو ابن الطبيعة
البكر، وقد وهبته، سائغاً زُلاًلاً، كل ما استطاعت أن تُلْفَه قوته، أو يمر في جوها.
هذه هي الحقيقة الفذة التي نراها بين أذى الأحياء وأغلاها، من بدّي النبات
إلى رفيع التكوين؛ الإنسان.

وأما أولئك الذين شرعوا الشرائع والنظم، وحددوا مسير الحي فيما سموه
أخلاقاً، فإنهم مجبناء ضعفاء وأنانيون أيضاً، قعدت بهم قوتهم عن أن يذكروا أي
نصيب من متع الحياة ولذاتها، أو أدركوا نصيباً حقيراً فابتكروا قانون الأخلاق
والقانون، وحددوا سعي الأحياء وفقها وعلى طبقها، فأوجدوا لأنفسهم أوفر فرص
الحياة الماتعة.

إن هؤلاء أذناً من أن أحترمهم، إنهم ضعفاء مموهون، خلبوا الناس
بأساطيرهم، فيا ويح الجاهلين.

إنهم شأوا العيش على حسابنا نحن الأقوياء، وحيارة النصيب الأوفر أيضاً،
ألا كيف يفكر الناس الحمقى الثعساء؟ لا أدري...

إني لا أفهم معنى لهذه النظم سوى أنها سُموم الضعفاء، ينفثونها في
جونا، نحن الأقوياء، لنستريح، فيجد الضعف في جو القوة فرصة البقاء.

إن ما أفهم ، هو هذا فقط، أن الحياة واللذة والسعادة فرص، والقوة وحدها
سبيل الاستحواذ عليها، فالحياة هي القوة.

إن الأسد قد يعف - وهو نهيك جوع - عن الطعام الحقيق الوضيع، لأنه لا
يجد فيه لذة القوة، ولكنه لا يعف البتة عن الضراوة، وعن الختل والافتراض
أحياناً، وهي مجلى القوة. فالذي تمليه طبيعة الأحياء: قسوة، وبغي، ولذات. هذا ما

نَجِدُهُ كُلَّمَا حَلَّلْنَا عَنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْجُبْنَاءِ
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ!

أُرَيْنُبُ! أَنْتِ حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِيبَةً الْمَنَالِ مِنِّي!

أُرَيْنُبُ! لَتَقُمْ فِي سَبِيلِكَ شِوْلُ الدِّمَاءِ وَرَايَاثُ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَقَهْقَهَةِ جَبْرَوْتِ الْبَطْشِ! إِنَّ أَيْنَ الْفَرِيسَةِ
- وَعِظَامُهَا تَتَقَضُّقُضُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطْرِبُهُ وَيُشَهِّيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةِ
كِبْرِيَاءِ الذَّاتِ وَكِبْرِيَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى نَشِيدِ الْأَيْنِ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ
وَحَدِّكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَائِي الْأَشْلَاءِ.

أُرَيْنُبُ! أَنْتِ عَرُوسُ أَخْلَامِي، وَسَتُصْبِحِينَ عَمَّا قَرِيبٍ عَرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا
أَجْمَلَهَا نَشْوَةً، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْ الْمُشْتَعِلَيْنِ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ
الضُّلُوعِ الْمُتَلَطِّئَةِ، وَقِوَامُكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَشَنَّى تَشَنَّى الْأَفْعُوَانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْخَيْزُرَانِ.
فَمَا أَحْيَلِي قُرْبَكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعَذَابِ، وَلَوْ لُفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أُرَيْنُبُ! إِنِّي سَوْفَ أَلْهُو بِكَ أَمْدًا كَالزَّهْرَةِ تَرُودُهَا النَّحَالُ بِتَلْهُفٍ إِلَى
الْامْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَّانٍ عِنْدِي أَذْكَرْتُكَ أَمْ نَسِيتُكَ بَعْدُ، أَلَسْتَ أَمْرَأَةً، وَالْمَرْأَةُ لُغْبَةُ
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَاحِينَ كَمَا
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي شَمَّاتٍ أَوْ دُونَهَا، وَتَبْلَى فِتْنَتُهَا... فَأَعْتَنِيهَا فُرْصَةً لَدَاذَةِ
كُبْرَى مُعْرَبَدَةٍ، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنَّ ظَمَائِي لَا يَزُويهِ إِلَّا سَيْلٌ مِنْ دِمَاءٍ، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِي ذَلِكَ الْعِلْجُ
آبْنُ سَلَامٍ. إِنِّي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةَ جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً

مِنْ كَبِيدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنَّنِي لِأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي أَسْنَانَ هِنْدٍ جَدَّتِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأُرُمَ عَلَى كَبِيدِ حَمْزَةٍ! سَوْفَ أُبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أُرْصِدُهُ فَأُغِمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّمُ لَهُ، فَيَرَاهَا قَرِيبَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهُ فِي الْهَوَاءِ هَزَّاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثْرِهَا ضِحْكَاً عَصَبِيّاً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَآرْتَدَّتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَ الْأَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنَّنِي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُغْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا! هِيَ هِيَ أَغْرَثْنِي!... وَغَرَاهُ دُورًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَعْرَاضُ حُمَى خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْذِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرُجُونُ وَجَلًّا شَدِيدًا، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ حِينٍ، وَزَايَلَهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذَيَانٍ، فَقَدْ تَمَاطَلَ نَحْوُ الشُّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَصْمِيمِهِ ثَابِتًا: آغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَأَنْتِرَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِرَاعًا، رَضِيَتْ أَمْ أَبَتْ. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرُجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشِي مُجَازَفَتَهُ، فَأَسَرَّ إِلَى وَالِدَتِهِ مَيْسُونَ ابْنَةَ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبَرِهِ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَذَاكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلِيدَهَا الْأَوْحَدَ الْمُفْدَى، فَلَمْ تُطِقْ آلَامَهُ فِي سَبِيلِ أَمْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِقْ أَلْبَسَةَ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ آبِنِهَا وَرَغْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرُجُونَ: وَمَنْ هَذَا آبْنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟
قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ... فَانْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عُمَّالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّنَا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَخْفِضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُنْقَذٌ لِرَغْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعَتُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنَّنِي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِمًا مِنْ أَجْلِ أَمْرَأَةٍ

يَشْتَهِيهَا، وَلَسْتُ أُطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ مَنَزِلَتُهَا.
بَلَّغَ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أُطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلَّغُهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ فِي جُمْلَةِ إِمَاءِ يَزِيدَ يَعْبَثُ بِهَا وَيُلْهَوُ!
قَالَ سَرُجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَزُكُّهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَرْضَى هِيَ إِنْ كَانَ
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ يَدَيْهَا عَلَى وَسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاؤِهَا أَوْ
رِضَاها؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَابْتَسَمَ سَرُجُونُ وَقَالَ: أَطُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَعْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ
الْجِدِّ. فَلَا بَيْنَ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسْعُنَا أَنْتِهَائُكَ أَنْتِهَائُكَ
مَكْشُوفًا، وَتَحَدِّيهِ فِي شَرَفِهِ. وَلَكِنْ نَسْتَأْذِنُهُ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْزُ كَتِفَيْهَا: إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشِيَّتِكَ...
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْغَسَاسِنَةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ:
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كِرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتُ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْذِنِي كَيْفَ شِئْتُ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ
يَزِيدُ إِلَى غَرَضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطُّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَغْنِينِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرُجُونُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَنَعَم...

*

دَخَلَ سَرُجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ طَرَأَ عَلَيْهِ. وَبَدَا مُعَاوِيَةُ مُغْتَمًّا، فَهُوَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ أَنْ يَزِيدَ مُكْتَبِتٌ، وَهُوَ بِكُرِّ الْإِمَارَةِ الْمُتَرَعُّ بِالذَّلَالِ، وَفِي قَرَارَةٍ نَفْسِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، كَمَا زَادَ بِهِ ضَنْنًا بَعْدَ أَنْ «أَصَابَ مِنْهُ سَيْفُ الْخَارِجِيِّ مَسْرَى الْبَنِينَ».

كَانَ فِيمَا يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، مَا جَعَلَ سَرَجُونَ يَقِفُ طَوِيلًا قَبْلَمَا أَسْرَّ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغْمَ قُرْبِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْزِلَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ وَاجِمًا هُوَ أَيْضًا، فَقَدْ عَدَّتْهُ رُوحُ الْمَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وَمَاذَا تَظُنُّونَ أَصَابَهُ وَهُوَ فِي جِشْمِ الْفِيلِ وَنَشْطَةِ النَّيْمِ؟... وَآبَتْسَمَ، لَعَلَّ إِخْدَى غَانِيَاتِهِ الْمَدَلَّلَاتِ فَارَكَتُهُ وَقَطَعَتْ أَسْبَابَ وَدِّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذَا يَا عَمَرُو؟

قَالَ: لَمْ يَقَعْ فِي مَدَى خَاطِرِي سِوَى هَذَا، وَعَلَى كُلِّ «فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْإِدَّتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَزِعُ مِنْ بَيْنِ شَفَثِيهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا كَالسَّاخِرِ... وَهُنَا وَجَدَ سَرَجُونَ مُنَاسَبَةَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ يُسَارُّهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَهُوَ يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يَا عَمَرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قَالَ عَمَرُو: وَإِنْ شِئْتَ قُلْ صَيِّدَةٌ جَدِيدَةٌ... فَأَبَتْسَمَ الْحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمَرُو، فَقَالَ:

مَنْ أَرَيْنَبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا؟

قَالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَغْرَقِ الْحِجَارِيَّاتِ نَسْبًا، وَأَكْثَرِهِنَّ مَالًا، وَمَثَلٌ فِي الْجَمَالِ بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ.

قال معاوية: ترى أنه عزيز علينا اضطياؤها؟

قال: هو ذاك، وأمنع ما تكون.

قال: ولكن كيف برغبة يزيد الحارة، فإنه يحز في نفسي أن يبيت أسفاً، لا يقضي لباتته، ويشبع شهوة نفسه، ويروي ظمأ قلبه.

قال: وما هذا؟ أأنت أيضاً تسايه في مجونه وعبثه، وما يُدريك لعل ما يتظاهر به من كمد هو من حيله على المجون، ومن دلاله على التَّنوِيلِ كي يجعل منا مطايا شهوات وأوطار. إنَّ الناس تحمّلوا منا ضراوة في السياسة، وضراوة في الأموال، إلى ضراوة وضراوة في الأحكام، ولا أراهم إلا ثائرين بنا، إذا جعلنا يوتئهم هدفاً لضراوة شهواتنا أيضاً...

قال معاوية: هو ذاك. ولكن كيف لي بالتَّرفيه عن يزيد، فإنني لا أقدر أن أراه كاسفاً؟ ألا ففكر معي وتحايل ما وسعتك لباقة الحيلة. ففكراً ملياً وكان عمرو أسبقهما، فهتف: لقد وجدتها، وإن كان فيها تسخيرك إياي حتى لشهوات ولدك أيضاً.

قال معاوية بغبطة: هات! هات! وعساها أن تكون من وحي شيطانك يوم صفين، وخدعة كخدعة رُفِع المصاحف... يعني موفقة...

قال عمرو: أتأخذها عليّ وبها أنقذتك وبؤأتك عرشك، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يدك من أسباب الملك، ومحتبك عليك من مظاهر السلطان؟ قال: كانت من أجل دنيا جزئناك عليها بدنيا، وما أظنني بخسك الأجر. وكسر جفن عينه اليسرى، وكان لا يفعل هذا إلا «وهو يتحدى» وما يجهل عمرو منه ذلك.

فقال وشملته رهبة: رويدك، إنني لا أتحداك وإنما ظننتك تغمر علي...

فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُتْبَى يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنْخَسُ قَدْرُهُ وَيُرَوَّعُ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْتُ مَدَاعِبَتَكَ فَلَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتَ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أَنْسَى بِالْأُمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِلْإِنْقَاذِ يَزِيدَ وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يَنْقُضُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادَاكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَسْتَدْرِجَ ابْنَ سَلَامٍ بِالْأَلْطَافِ «وَكَرَّائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخَلْعِ»، وَثَرِيَّةَ جَانِبِ الْوَدِّ مِنْكَ، وَتُغْرِیَهُ بِزِيَارَتِكَ وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

*

فَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مُدَّ اقْتَرَنَ بِأُرَيْنَبَ، وَهُوَ يَرَى حُلْمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلُّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ أُرَيْنَبَ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْنَبَ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ لَسْتَ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْخُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمْ هُوَ سَعَادَةٌ، وَكَمْ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوِدِدْتُ يَا أُرَيْنَبُ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْنَبُ! آهٍ أُرَيْنَبُ!...

آهٍ! يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْنَبُ!...

وَكَانَتْ أُرَيْنَبُ لَا تَقِلُّ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَتْهُ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلَ عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدُهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباح يوم، وقد قطفنا أول إشراق من شعاع الشمس: لا أدري
لماذا؟ لماذا يُعاودني في أقصى هواجسي العميقة الحفيدة منذ ليالٍ، أنك لم تعد لي،
وتعتادني طيوف خبيثة أظل منها في رهبة؟ وتعلقت به. إنني خائفة.

ترقرقت في عينيها دمتان كبيرتان، تراخت إحداهما ساقطة، واستمسكت
الأخرى متبلورة بين جفنيها اللذنين كانا في نصف إغماضة، فأهوى يضئها إليه
ضماً عنيفاً كأنه يُحاذر، فقد عراه مثل هاجسها أو شر منه، عراه أن هناك من
يُحاول اختطافها، فهو يشدّها إليه، يضرب بها ويفتديها.

استويا في مقعدهما، ثم لم يخطوا إلا قليلاً في حديقة القصر، حتى استأذن
حامل البريد يُسلمه كتاب الملك.

استطير فرحاً، واستخفه الإنعام الملكي عليه، وكان مفاجئاً حتى لقد ذهَل
عن أنه يُغادر زوجته الحفيدة عنده، دون أن يُلقِي عليها نظرة وامقة تُشير إلى أنه
سيعود إليها، بعد مُتعة قصيرة بالنظر إلى ما أُهدي إليه.

وقفت تنظر باهتة وعادتها هواجسها. فلم تُطق وقوفها طويلاً، فأنثت إلى
مقعد قامت من فوقه متعانيات «البواري» في شكل جعل منه وكن عاشقين أو
طيرين حب. وقالت تُناجي نفسها: آه! لقد وقع ما كنتُ أهجس به في خاطري،
والذي كان يحبك في صدري من وساوس؛ ليت الهدايا التي استخفته كانت عند
قدمي لأطأها مستخفةً بأنفس ما فيها، ولا أقطع على نفسي لحظة قلب كان يخفي
فيها بمعنى الحب، وهو كل الحياة وكل السعادة...

أتشغله عني هدايا حقيرة؟! مهما بلغت نفاستها، فلن تكون إلا حقيرة
بجنب ما هو دون حسوة طائر من نشوة ما كنا فيه، بل بجنب خلجة راعشة من
تلك الخلجات المفعمة...

الآن فقط، بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة، ويأخذ أيما وقع عليه بكل
بصره. لم يكن إذاً إلا طفلاً، ولم أكن، كل هذا الوقت، سوى لعبة كبيرة يلهو بها
دُميَّة، ودُميَّة حيَّة تمتع قلبه البارد بحرارة أنفاسها المندّاة... وهؤلاء الذين يرون المرأة
دُميَّة ذات حرارات، هم باردو القلوب، وإنما يطلبون فيها الاضطلاع والدَّفء
فقط، أما أنا، وأحسّ بقلبي مُشتَعِلاً، فأريد قلباً مُشتَعِلاً أيضاً يفتيان على بعضهما
في تلَّهب جميعاً...

أف للرجل! إنه طفل في حس القلب ولا يزيد، ثم لا يشعر من العاطفة إلا
على مقدار العبث، وليست للأشياء قيمة عنده، إلا على قدر ما تملك من إحياء
اللَّهُو عليه وتشيُّعه فيه.

لا، لا! لست أَرْضَى أن أكون عنده متاعاً صنو هذه الهدايا، بل خُيِّلَ إليَّ
أنِّي أحتقر منها في نظره. فغادرني يخف إليها، ولم يترك، عند موقِفنا، نظرة أشغل
بها حتى يؤوب، إنها أخذت بكلِّ هواه، حتى لم أعُد شيئاً أذكر...

أف للرجل! إنه في دُنْيا القلبِ طفل، وأيضاً طفل ذو طبعٍ بليدٍ خشين...

يا لك من هدايا مشؤومة! إنك هدايا فيك كلُّ ما في السُّموم من روح،
وكلُّ ما في الأفاعي من معنىٍ مخيفٍ ووجودٍ راعِب... وما يُدريني فلعلها حبايلُ
وشباكٌ منسوجةٌ من حُماتِ العقاربِ وأوبارها... وما هو حتى رآته مُقبِلاً مُغْتَبِطاً،
تشيُّعُ الابتسامةِ المُشعَّةِ الضاحكةِ في وجهه، يحملُ بين يديه كرائمَ الجواهرِ وعُقودَ
الآلِىءِ البعيدةِ الشطوعِ، المتماوجةِ بالسنى والسَّناء، يقولُ وهو يُقلِّبها في كفِّه:

إليك! إليك! لقد جاءتْ كأنها تقولُ: كُنْتُ جَوْهَرَةً يَتِيمةً حتى وجدْتُكِ!
أما تسمعين؟ أما تسمعينها؟... وراح في نشوة ضاحكة، ولكنها ظلت جامدة لا
تُحيرُ جواباً. فبهت وعراه خدرٌ كالذهول، فاسترخى كفاه، وتساقط ما آستوى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحَسَّ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَأَلَمْتُ بِمَا عَرَاهُ فَأَغْتَبَطْتُ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذَتْهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرْفَةِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يَنْظُرَانِ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، قَالَ، وَهُوَ يَحْبِسُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُغْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْرِمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَدْرِي لِمَذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةً وَدَعْوَةٌ مُفَاجِئَةٌ! وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَيْفِهَا.

إِنْتَفَحَتْ أَوْدَاجُ أَرِينَبَ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْهَا كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكََا:

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ يَزُثِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجُئْسِي يَدِي... قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أَرُثِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلَ الْكَلَامَ فَقَطَعَتْهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا: لَسْتُ مُغْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَتَعْتَزَلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَكَ مِنْ سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ التَّسَوُّدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُزْهِنُنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَدْرِي بِمَاذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعَتْهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حَمَرَاءَ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْهِ. إِنَّ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِأَعْتِزَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَرْغَبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزْهَلَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِيقْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَذْفِنُ وَجْهَهَا فِي رَاخَتَيْهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّهُمَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهُ قَتَامُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضُحَى وَأَذْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَعْدَادَ لِي قَمَرًا بِالْكَوْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَّعُهُ وَبُودِي لَوْ يُودِّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَنِّي لَا أُوَدِّعُهُ...

*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أَرِينَبٍ وَحِسَابِ
عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ
لِوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. بَيَّنَّ أَنَّهُ مَعَ
ذَلِكَ كَانَ مُغْتَبِطًا، وَتَزَايَدَ بِهِ الْإِغْتِيَاطُ إِزَاءَ مَا يَلْقَى مِنْ حَفَاوَةٍ وَآخْتِرَامٍ وَرِعَايَةِ مَقَامٍ،
حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمَسَ صِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ آمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا
أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ،
وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْغَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِيًا عَلَى مِثْلِ الطُّيُوسِ فِي لِيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ
الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بِلِيَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدُ، الْغَارِقَةِ فِي أَحْلَامِ
الشَّهَوَاتِ الْمُعْرَبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ ابْنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ
الصَّبُوءِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ فِي مَدَى انْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظُّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيُّ السَّعِيدِ،
أَنْبَعَثَتْ جَيَاشَةٌ عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَانَ يَكْبُثُهَا الْقَلْبُ فِي نَشَوَاتِهِ الْعَبَقَرِيَّةِ الْإِلْتِهَابِ،
الْمُتَلَطِّطَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الحَمْرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْوُودِ بِخَمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ
أُرَيْنَبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِى مِنَ الضَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَلَبَّدُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَنَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازِوَرْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،
وَتَشْهَى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مِنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرَيْنَبَ مَهَاتِهِ
النَّابِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثَبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنْخَدِراً إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَمَاءَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَضْفَتْ عَلَى نَاضِرِيهِ
الْوُحُولُ فَلَمْ يَعُدْ يَرَى، وَأَتَمَّا بَاتَ يُحِسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نُعُومَةَ الزُّبْدِ، فَرَاخَ يَهِيمٍ
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ رَغْبَةٌ فِي التَّحَوُّلِ،
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بُوُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِرٌ
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحاً، رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَسْتَوِي هَذِهِ الرِّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكُّناً وَآسْتَوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ ابْنُ
الرُّومِيِّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْتُمْ فَاهَا كَيْ تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَسْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالحُبُّ البقائِيُّ، أو الزَّوْجِيُّ، رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْوَلَدِ، وَالْحُبُّ الاستِغْلَائِيُّ رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْعَاطِفَةِ فِي الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ؛ فِي الرَّبَّانِيَّةِ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ الشَّهْوِيُّ رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الشَّهْوَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ رَغْبَةُ الاستِحَالَةِ فِي كُلِّ الْوُجُودِ، ففِي طَبِيعَةِ الْوُجُودِ إِذَا طَبِيعَةُ الْحُبِّ، بَلِ الْبَقَاءِ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الاستِحَالَةِ، وَاسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَسْبَابُ الْبَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمِحِلًا.

تَمَلَّكَ آبَنَ سَلَامٍ، فِي لَيَالِي الْقَصْرِ الْمَشْحُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِيٍّ طَلَبَ مَعَهَا التَّمَادِي فِي دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَآمَتَلًا رَغْبَةً بِالتَّعَرُّفِ إِلَى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُتُونِهَا، وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

فِي لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لَيَالِي الْقَصْرِ الزَّاهِيَةِ الْعَبْقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَعَاطَاةٌ حَدِيثًا مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُغْرِيَّ الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ عَمُرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ آغْتَمَّ مِنْ إِيَابَتِهِ، وَسَارَّهُ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرَ».

فَقَالَ لِعَمُرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَكَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدَّرْدَاءِ... بَاتَ لَيْلَتُهُ أَرْقًا، فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرِي أَرَيْنِبَ
الْغَافِيَّةُ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةٌ عَنيفَةٌ، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَّةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ
طَهَارَتِهَا...

فَرَاخَ يُتَمَتِّمُ: أَنَا أَخُونُهَا. أَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَائِكِي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ
رَغْنَاءٍ تَذُوبُ لَذَائِهَا سَرِيعًا، وَتَبْقَى آلَامُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو
مُبْتَسِمًا، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةٍ، تُرِيهِ
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةَ، بَلْ وَالْخُلْدَ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاهَ وَكِبْرِيَاءَ الْحُكْمِ تَغْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،
وَرَضِيَ مِنْهُ بِالْأَقْتِرَانِ إِلَى آبَتَيْهِ... وَتَمَتَّتْ:

حَسْبُ أَرَيْنِبَ بِكُرْنَا خَالِدًا، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةٌ
بَيْنَنَا أَبَدًا وَلَيْدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَتَ قَلِيلًا، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضًا فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ
دَفَعْتُهُ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ؟ إِنَّنِي لَا أَطِيقُ...
وَبَدَا لَهُ طَيْفُ وَلَدِهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّاذِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَزُجُّ أَنْ لَا يَفْعَلَ،
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةٌ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَعْرَقَ فِي لَحْظَةٍ تَهْوِي أَنْكَشَفَتْ لَهُ فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ
مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسَوُّدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أَرَيْنِبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضًا. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأَرَيْنِبَ...

وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافُ رَاقِصَةٍ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا
كَأَنَّهُ يَجْنَحُ طَائِرًا، وَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَذْكُرَ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةِ ذِكْرَى مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةِ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَلَوِيدٌ بِهَجَّةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأَعْلِمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ»... فَتَظَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا
بِالاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَسْأَلِ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وَأَنْتَ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنْ ابْنُ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَزَّ طَلَاقَهُ أَرْنَبٌ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَعُدْ لَهُ كَمَا كَانَ،
بَلْ عَدَا يَلْقَاهُ بِفُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَرْجِيْبٍ، فَأَوْجَسَ شَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ
وَصَاحِبِهِ يَسْتَحِثُّهُمَا» فَأَتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنَّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ»... فَلَمَّا بَلَغَاهُ جُنَّ جُنُونُهُ،
وَأُسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ ضَحِيَّةً خِدْعَةٍ لَعِيْمَةٍ لَيْسَ يَدْرِي غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِنُزُولِهِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالْأَشْبَاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزَارُ
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذَّنَابِ، فَاسْتُطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلَعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَعْذُو إِلَى
الْخَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَفَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَّاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي
الذُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقْظَةُ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا اسْتَرْخَتْ كَفَّاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى اسْتَعْوَى بِهِ
صَوْتُ:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْجَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ صَحَايَا ثَلَاثٍ:
قَلْبُ زَوْجَةٍ هِيَ تِمْنَالُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبُ غُلَامٍ هُوَ تِمْنَالُ طُفُولَةِ الْأَحْلَامِ

البريعة البيضاء، والثالثة هي قلبك أنت...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فار في خياله جنون، ينقل الواقعة، ويثبت الشكاة، ويثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي. وتسامع الناس بالخبر، وعلقوا عليه بأشمئزاز ونفور، وبات الكثير ينظر بغضهم إلى بغض في شفاه مقلوبة وتنكر، «وهكذا ذاع أمره وشاع، وتناقله الناس إلى الأمصار، وتحدثوا به في الأسمار». ورثوا كثيراً لما انتهى إليه حاله، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول:

أتبلغ القحة بهذه العصابة حد التآمر بسعادة أسرة هائلة، تمرخ في حب وتسرخ في وارف إخلاص، أما يسرها يوم، أما تحلو لها حياة، إلا إذا ولغت في دم أو عبثت بكرامة، لقد عدوا أقدار أنفسهم، فلا يروون إلا راقصين على الأشلاء، لاهين بالجماجم.

وتناهت بعبد الله الحال إلى حيرة يائسة وذ هول شقي يائس، تلاحقه طيوف وتتنكر له أشباح، وتتفوز من حوله الآلام، وكان لا يفتأ يقول، يناجي نفسه: لوددت أني أفر إلى أرينب، ولكن هيهات! أنا الذي نكبتها وأشقيتها، أزيدها شقاءً بوجهي الذي غدا تمثال الخيانة الزوجية على أفتح صورها؟ فلا تجرع آلام قلبي وغصص ضميري ومرارتي وحيداً منعزلاً! كيف أعتذر إليها؟ كيف أستغفر وليدي الصغير؟...

رحمك ربي وحنانك! أبق اللهم على قلبي لا يتمزع!

*

ظلت أرينب، منذ غادرها زوجها الحبيب، لا تشيع على شفيتها إلا آتيسامة متماوتة إذا ألحت عليها أحاديث وصيفاتها بالابتسام.

وكان الاكتئاب يترايدها، يوماً بعد يوم، في إحساس يلح عليها بهول

غامضٍ تشعُرُ به في أعماقِها يُنذِرُ بالويل.

وكانَ لها في كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تارةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطَبَاحِهما في أَفْيَاءِ البواري
المُخَيَّماتِ، وتارةً في شُرْفَةِ المَساءِ تُودِّعُ النَّهارَ، وتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْشُّها نُجُوها
وزَفَرَاتِها، وتَتَوَلَّه في وَقْفَةٍ إلى ذُؤَبِ الشَّفَقِ الَّذي كانَّه ذُؤَبُ قَلْبِها.

وفي يَوْمٍ، على عادَتِها وهي في شُرْفَةِ المَساءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصَى الصَّحراءِ،
الَّتِي تَسْتَرْخِي مُتَّكِئَةً على عَتَبَةِ دارِها وفي فَنائِها، قافِلَةً كانَّها مُقْبِلَةٌ مِن جَانِبِ
الشَّامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فيها أَمَلِها، وإنَّ لَمْ تَطْمَخْ به فلا أَقَلَّ مِنْ أنْ تَرْسَمَ هَذِهِ القافِلَةَ
في نَفْسِها رُسوماً مُبْهَمَةً، إِلَّا أَنَّها مُفْرِحَةٌ أَيْضاً، تَتَنَفَّسُ في فُؤادِها بِنَدَى رَوِيِّ.
مَرَّتِ القافِلَةُ تَحُبُّ تَحْتَ شُرْفَتِها، وكانَ حادي الإِبِلِ يُشْجِي الرِّكَبَ بِصَوْتِهِ
العَذْبِ النُّعْماتِ:

أُرَيْبُ لَيْتَنِي وُسِدْتُ قَبْراً ولم أَفْعَلْ، ففِي الأَحْشاءِ نارُ
«نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسْعِيِّ لَمَّا عَدْتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نُوارُ»
يَطِيفُ على فُؤادي رُوحُ آه وذُؤَبُ أَسَى، وفي كَيْدِي أَنْفِطارُ
أُرَيْبُ، أَنْتِ ذِكْرِي مِنْ نَعِيمٍ وَمِنْ طُهرٍ، وَمِنْ عَبَقِ يُثَارُ
أُرَيْبُ، هَلْ تَرِفُ عَلَيَّ دُنْيا مِنَ الأَخْلامِ، هَلْ تُؤَبُّ يُعارُ؟
ذَكَرْتُ وفي فُؤادي نَوْحُ بالكِ هَوانا، والضَّميرُ بِهِ أوارُ
وَهَلْ قَدَرُ يُطالِعُنا بِفَجْرِ ويَمْرُخُ في مَسارِحِهِ النَّهارُ
فَتَسْعَدُ، والأَصِيلُ لَهُ أَفْتِرازُ ونَنْشَى، والغُدُّ لَهُ آزْدِهازُ

فَسَقَطَتْ على نَفْسِها هَلْكَى. ولمْ تَكْ إِلَّا أَيَّامٌ مِنْ حُلُولِ الرِّكَبِ حَتَّى شاعَ
خَبَرُ عَبْدِ اللَّهِ في العِراقِ، وتَناهى إلى سَمْعِها، فلمْ تَعُدْ تَعِي. وكانَتْ لا تُرى إِلَّا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تُرَى إِلَّا مُعْتَنِقَةً لَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَهَةً،
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظِمَامِي، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَاهِئَةٌ تَطْلُبُ النَّدَى
وَالرِّيَّ.

لَمْ تُطِقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ، فَقَدْ آسَوْدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِي خَيَالَهَا فِي
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخِضَرٍ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتُ. رَثَتْ لَهَا نِسَاءُ
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يُوَاسِيْنَهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَرْأَةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءُ يُحْسِنْنَ،
بِالْمَآسِيِ بِنَوْعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتَ مُبَالِغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهُنَّ يُحْسِنْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكَبَّاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَحْدَاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَائِطَاتِ
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَبَتِ الْمَدِينَةُ بِمَأْسَاةٍ أَرِيْبٍ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ
الْآسِيَةِ، فَكَانَتْ لَازِعَةً الْوَقْعِ، وَقِيْدَةً الْأَثْرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضُّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ، يَخْطُبَانِ أَرِيْبٍ عَلَى
أَبْنِهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَغَهُمَا أَنَّهَا آتَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَشَنِيَا رَوَاجِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةَ، وَمِشْكَاتَةَ الطُّهْرِ، وَنَمُوذَجَ الْأَخْلَاقِ
الْفَاضِلَةِ، وَقِبْلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مَفْرَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلَمِ، وَفِي
رِحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضُّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحِسُّ فِي أَعْمَاقِهِ أَنَّ
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حِينَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدًّا مِنْ أَنْ
يَقْدَأَ بِرِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاخترام بمناسبة قدوميهما، أنس إليهما وقابلتهما بحفاوته التي تعودها
الناس منه، على اختلاف منازلهم، وكانت فيه خليقة وطبيعة.

لكنه أحس، مع ذلك، أن في مقدميهما المفاجيء حدثاً هاماً، فقال لهما:
الأمر قد مثما؟

قالا: نعم.

قال: وما هو؟ فما كتماه أن معاوية وجههما في خطبة أرينب على أبيه
يزيد. فابتسم الحسين ابتسامة من قد أدرك كل شيء، ومن قد فهم غاية المناورة
وبالغة المداورة التي بات معاوية يحيك خيوطها، وينسجها كالعنكبوت حول
فريسته... ونفى إلى نفسه «خدعه معاوية حتى طلق امرأته، وإنما أرادها لابنه.
فيس من استوعاه الله أمر عباده، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطانه، يطلب أمراً
بخدعة من جعل الله إليه أمره»... وواصل: لن تهناً لي حياة إلا بإعادة مياه
حياتيهما إلى مجراها، ولن تفر عيناى وأسعد، إلا إذا قرئت عيناها بالعودة وسعدا،
ففي سعادة قلبين مخلصين ينبضان بالحب، ويخفقان بالعاطفة البريئة سر سعادتي.
فعلي أن أهدم على معاوية أحاييله، وأصيده بشباكه. أف للغاشمين الذين يزفون
على الأشلاء، ويبتسمون في دموع الناس ويتششون كما لو بها يغتسلون؟ لقد
استغواه فبات ابن سلام طعماً في جبالته.

فقال الحسين لهما: لقد «كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها،
فأخطبا علي وعليه، وأعطياها من المهر مثل ما بذل عن أبيه ولتخير»...

استأذناها بالدخول، وبعد أن استوى بهما مقعدهما، قال أبو الدرداء:

أي بنية! إنك لم ترالي شابة في غفوان الشباب وميعة النشاط، وأنا بك
جد ضنين أن تذهبي نهبا للخواطر، وتذهب نضارتك شعاعاً في أكثاب. وإذا

سَاءَكَ مِنْ آبْنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبَرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَوْتُ عَاطِفَةَ قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسَبِي فَتَايَ أَرْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَمَنَيْتُ لَوْ كُنْتُكَ، وَفَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَأَبْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُدَاعَبَةً، وَوَاصَلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَالَا بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى النُّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبْنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ بْنُ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِئْتَ»... وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَمَتْ، وَكَظَمَتْ بُرْكَانَ حَفِظَتِيهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَةً مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟! وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَّثَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آعْتَزَلَ عَمَلَهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتَيْهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهْبِيَّةِ، فَتُعْتَصِرَ لَا! لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدُّيَاجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ زَغَبِ النَّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَرْضَى بِهِ، وَهَلِ آجَتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلٍ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أَعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَعْرِفُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصُّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

عَلَامَ عَوَّلْتِ؟ وَأَيُّهُمَا آخَرْتِ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ غَدَوْتَ دُمِيَّةً لَا

تَنْطِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهِمَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُخْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتَ غَائِبٌ، لَأَشْخَصْتُ فِيهِ الرُّسْلَ إِلَيْكَ وَآتَبَعْتُ فِيهِ رَأْيَكَ، فَيْكَفَ وَأَنْتَ الْمُرْسَلُ. فَقَدْ فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرَتْ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ! إِنَّ «أَبْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَتَبَعْتُ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نَعَمْ. نَعَمْ. وَأَنَا وَاللَّهِ «لَا أُقَدِّمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبِ فَمٍ قَبْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ»، فَيَا لِعِظَمَتِكَ بِهَذَا الْقَمِ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لَيْتَنِي كُنْتُ أَرَيْنَبَ، إِذَا لَسَالُ لُعَابِي! وَتَلَمَّظَ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ آخَرْتُهُ.. فَتَزَوَّجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدُّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ أَنْقَلَبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُهْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمَّيْتُهُ خِيَانَةَ زَوْجِيَّةً، أَتْنِي عَلَيْهِ وَهَوْنٌ فِعْلَتُهُ، وَأَفْهَمَهَا إِيَّاهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَإِنَّمَا هُوَ إِقْدَامٌ مِّنْ هَيَأَ لَهَا أَسْبَابَ الشَّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا آخَتَلَبُوا فِيهِ عَقْلَهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَقْتَرَفَ أَبْنُ سَلَامٍ مِّنْ أَفْقٍ جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ضَحِيَّةَ أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُذَرِّكُ أَنَّ مِّنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ جُهْدَهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيًّا. فَبَدَأَتْ تَحِينُ

إليه، وبدأت تُعاوِذُها ذِكْرُاهُ في رَغِيبةِ قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحسُّ هذا مِنْها، فيفيضُ
بِشْراً وتَتَنَضَّرُ تقاسيمُ وَجْهِهِ بِشاشَةٍ وإِشْراقاً، فقد نَجَحَ وأُذِنِي قَلْباً باتَ نفوراً، مِنْ
قَلْبٍ باتَ وقد تَشَطَّرَ وَيلاً وثُبوراً.

*

أما عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فقدَ ظَلَّ في الشَّامِ يَزْمِي الهَيْئَةَ الحَاكِمَةَ بِكُلِّ شَنارٍ
وعارٍ، وَيَطْعُنُ فيها أَبْلَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُيالي غَضَباً ولا رِضىً، إِنَّهُ مَفْجوعٌ
مؤْتور.

فأَطْرَحَهُ مُعاوِيَةَ لِمَكَانٍ هذا الطَّعْنِ والتَّعْرِيزِ بالتَّشْنِيعِ، وَعَزَلَهُ عَنِ إِمَارَةِ
العِراقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رِوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قِلَّةً باتَ مَعَهَا مُعْدِماً، وغداً مثلاً
للْبُؤْسِ الحَيِّ والشَّقَاءِ الشَّاخِصِ.

وتَحَتَّ إلْحاحُ البُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ قَدِ اسْتَوْدَعَ أَرِيْبَ ما لا عَظيماً،
وتَذَكَّرَ أَنَّها أَضْحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبِيلاً لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدَهُ
إِيَّاهُ لَطْلَاقِها مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فَانْتَقَلَ إلى المَدِينَةِ وَلَقِيَ الحُسَيْنَ وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وهو
في شَكْلِ الصَّحِيَّةِ الشَّقِيَّةِ، والفَرِيسَةِ الطَّرِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ آثارُ أَنْيابِ السَّبْعِ بارِزَةً
فيها، راسِمةً أَنْكَرَ آياتِ وَحْشِيَّتِها، فَرُئِيَ لِمِزَّاهُ، وَرَقَّ لَهُ كَثِيراً ووِاساءُ كَثِيراً. فَدَخَلَ
الحُسَيْنُ عَلَيْها وَحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إِلَيْهِ، فَقالَتْ:

ها هو بطابعِهِ لَمْ أَمْسِسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْها بِشَقَائِهِ، فلا بُدَّ
أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتِها وَحَنانِها دونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وكذلك كانَ، فتَلَقَّيا وَاسْتَضَبَرا
طويلاً في ذُھولٍ ووُجومٍ، وَغَفَلا عَنْ وُجودِ الحُسَيْنِ بِقُرْبِهِما، فتَوافَقَتْ نَظراتُهُما
ناطِقَةً بِالْحُبِّ والدَّمْعَةِ طافِيَّةً، يُخَيَّلُ لِمَنْ رَأَها أَنْ مِنْ وَراءِ عَيْنَيْهِما قَلْبَيْنِ يُطْلانِ،
وقَدْ تَدانِيا كَثِيراً حَتَّى رَسَما دائِرَةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشوى.

وكانت عينا الحسین تشعان بالسرور؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف
عنهما زوجين، كي يشتمل عليه الحراب من جديد، إنه جدُّ مُعْتَبِطِ الروح.

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يمس، وكانت ناعمة
تلهو بأغاني سعادتها...

فبصر بها عنكبوت صغير، ودَّ لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحرة...
وما لبث حتى جاء قوم العناكب يُادر، وراح ينسج شباكه من حولها...
وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأرواح نشوات مُنعشات،
وحطَّ حيثُ انتصبت أشرار المأساة...

فنقد القمر نقدة، ومضى يُغرّد تغريداً كان معناه: «ومكروا ومكر الله، والله
خير الماكرين...».

*

ظن «الصغير» أن القوة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
وظن «الكبير» أن الحيلة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
ولكن حين وقع الحق في شخص الإنسان الكامل، «بطل ما كانوا يعملون،
فغلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين»!...

* * *

تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ فُتُونِهَا، هَذَا
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلَعَ مَعَهُ الرَّبِيعُ فِي آيْتِسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِ آيْتِسَامَتِهَا، مُرَصَّعًا بِخُيُوطِ
الشَّمْسِ الْمُقْتَنَّةِ بِقِنَاعٍ مِنَ الْمُنِّ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ.
كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، آسْتِقْبَالُ الرَّبِيعِ بِأَشْيَاءِ الْأُنْسِ وَالْحَفَاوَةِ، وَبِمَا تُوحِيهِ
الْمُتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُخَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ نَسُوا حَتَّى الزَّمَانَ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ اللّٰهُ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيُقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الظَّامِ
عَلَى الْيَتْبُوعِ، وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَثِرُونَ أَنْتِثَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَتْبَعُ ضَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ زَقَرَاتٌ مِنْ غَنَى الطُّفُولَةِ،
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُتَعَةٍ شَرُودٍ، وَعَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْتَعِمُونَ
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلٍ لِّلَّاهِينَ،
بِكُلِّ مَنْ أَلْقَى فَرْحَةً كُبْرَى.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْفَلَكَ، سَاعَةً مِنْ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْبُحُ مِنْهَا
فِي عَرَبْدَةٍ حَالِمَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعَرَّبَةٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطِيفَ بِهِ هَذِهِ
السَّاعَةُ مِنْ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرَقُ مَعَهَا فِي خِضَمِّ النَّسِيَانِ مِنْ قِيُودِ الْوَعْيِ
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليوم كان معاوية في قصره المشيد، وفي الجناح الغارق بالمتع،
يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حَاشِيَتِهِ زُبْقَةً زَهْوِ الْيَوْمِ. وَكَانَ بُدَيْخُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ
يُؤْنِسُهُمْ بِطَرَائِفِ أَخْبَارِهِ وَمُلَحِ نَوَادِرِهِ، فَأَنْتَهَى بِهِ الْحَدِيثُ إِلَى أَخْبَارِ صَابِئَةَ الْإِغْرِيقِ
الْحَرَائِيَيْنِ، وَعَجَائِبِ مَا شَاهَدَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

كَأَنَّ نِسَاءَهُمْ خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَالِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ فِكْرَةُ الْجَمَالِ صِيغَتْ مِنْ
طَبِيعَتِهِنَّ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحْرِ الْجَمَالِ لَالِيَةٌ. فَقَدْ آفَتُنَّ فِيهِنَّ إِبْدَاعُ الْخَلْقِ حَدًّا
أَبْرَزَهُنَّ مَثَلًا نَاطِقَةً بِالْفَنِّ... فَأَيُّهُ تَقَاطِيعُ فِي أَيِّ وَجْهِ؟... وَدَارَ بِهِ نَاضِرُهُ كَالَّذِي
تَذَكَّرَ صَبَابَةً قَدِيمَةً طَبَعَ عَلَيْهَا الْإِخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً آخَتَنَقَتْ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ
نِهَايَتِهَا...

قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لَكَانَ لَكَ بَيْنَهُنَّ ذِكْرَى طَرِيقَةً بِمَوْقِعِهَا عَلَى قَلْبِكَ، وَإِنْ
قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ... فَرَاخَ يُحَاوِلُ الْإِخْفَاءَ عَلَى شَتَّى مَذَاهِبِهِ وَأَسَالِيْبِهِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي
عَيْنِيهِ مَا يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ غَدَتَا تُغْفِيَانِ تَحْتَ هَبَاءَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ،
حَتَّى لَيْظُنَّ النَّاضِرُ إِلَى مُقْلَتَيْهِ أَنَّهُمَا جَمَدَتَا فِي غَيْرِ حَيَاةٍ، لَوْلَا بَصِيصُ رَفِيعِ الْخُيُوطِ
كَانَتَا تُرْسِلَانِيهِ قَلْقًا، عَلَى أَنَّهُ مَالٌ يَتَخَافُ فِيمَا تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ دَمْعِ رَقِيقٍ،
لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تَرْسُلِهِمْ وَتَبَشُّطِهِمْ، أَسْتَأْذَنَ الْحَاجِبُ، وَأَعْلَمَ الْمَلِكَ أَنَّ كَبِيرَ
النَّحَّاسِينَ أَتَى بِجَارِيَةٍ فَائِقَةٍ «يَوْدُ عَرَضُهَا» فَقَدْ كَانَ مُتَعَارِفًا أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْقَصْرِ،
فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْغُلَّامَانِ، فَأَذِنَ الْمَلِكُ، وَأُجْرِيَتْ «مَرَّاسِيمُ»
الدُّخُولِ.

وَكَانَ عَجَبُ الْحُضُورِ كَبِيرًا حِينَمَا مَثَلَتْ بَيْنَهُمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ
جَمَالِ الرُّؤْيَى فَوْقَ الْخَوَالِبِ مِنَ الْقَسَمَاتِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَتَرَاءَى لِلكَثِيرِينَ مِنْهُمْ
أَنَّهُمْ يُنْصِرُونَ مَنْظَرًا مِنْ جَمَالِ فَنِّ خَيَالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ مَا فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ

مِنْ فَنِّ الْجَمَالِ.

هَبَطَتْ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الْيَرَعَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظَلَامِ الْمَسَاءِ. فَاهْتَزَّتْ أَغْصَابُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَنِينِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِبْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلَتْ فِيهَا مِثْلَمَا تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضُّوءِ، أَوْ النَّعَمِ، الَّتِي يَتَجَاوَبُ مَعَهَا فَضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِنَوْعِ اهْتِزَازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ الْأَغْصَابِ كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعِبُ تَرَكَتْ فِيهِمْ أَثْرًا أَخَذًا حَادًّا لَمْ يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حَتَّى بَاتُوا مِنْهَا مِثْلَ النَّحَالِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا مِصْبَاحُ كَثِيرِ التَّوَقُّدِ وَالْأَلْقِ فِي لِسَانِ الشُّعَاعِ.

وَكَانَ فِي هَذَا الدُّهُولِ الَّذِي عَرَاهُمْ، مَا جَعَلَ أَحَدًا لَا يَفْطَنُ إِلَى مَا آسَبَدَّ يُدَيِّحُ مِنْ أَضْطِرَابٍ، وَمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ تَلَهُّفٍ، كَمَا لَمْ يَفْطَنُ أَحَدٌ أَيْضًا إِلَى مَا سَاوَرَهَا مِنْ خَلَجَاتٍ عَنِيفَةٍ كَظَمَتْهَا، فَعَزَبَدَتْ عَلَى قِمَمِ مُقْلَتَيْهَا نَاطِقَةً بِاللَّحْظِ الْوَثَابِ. كَانَ لِنَاضِرٍ أَنْ يَقْدُرَ أَنْ بُدِيحًا أَكْثَرُهُمْ أَخَذًا بِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ تَذَوُّقًا لِلْجَمَالِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْدُرَ أَنَّهَا بِالذَّاتِ نَفْسُ فَاتِنَتِهِ الَّتِي آخَتَفَظَ بِهَا ذِكْرَى نَدِيَّةٍ بِالْغَرَامِ، وَعَرَضَتْ لِنَفْسِهِ مُنْذُ هُنَيْيَةِ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ، فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي مَذْهَبِ الْخَاطِرِ الْمُرْسَلِ.

لَقَدْ قَطَعَ هَذَاهُ وَجُومِ الْإِنْجِدَابِ، مُعَاوِيَةُ بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا كَبِيرَ النَّخَاسِينَ: لَشَدَّ مَا أَذْهَشْتُنَا حَوْرَاؤُكَ، فَمِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَمَا أَسْمُهَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: «إِسْمُهَا هَوَى»... فَابْتَعَثَ بُشْرُ بْنُ أَرْطَاةَ أَنْبَعَاثًا يَقُولُ:

«هِيَ وَاللَّهِ كَأَسْمِهَا هَوَى»، تَخْفِضُ مِنْهُ وَتَرْفَعُ، وَتُطِيلُ بِهِ وَتُقْصِرُ، وَتَنْشُرُ مِنْهُ وَتَطْوِي.

قال عمرو بن العاص: وماذا يكون الهوى إن لم تكنه؟ وكان بُدَيْخُ قد ضَبَطَ أُرْشِيَّةَ قَلْبِهِ الْفَائِرِ بِالذِّكْرِ وَالْحُبِّ، وَالْآلَامِ وَالْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، أَوِ الْقُرْبِ الَّذِي كَانَ فِي مَعْنَاهُ نُقْطَةُ الْغَوْرِ فِي الْبُعْدِ السَّحِيقِ. شَعَرَ الْآنَ فَقَطْ أَنَّهَا نَأَتْ عَنْهُ وَإِلَى الْأَبَدِ، أَمَا غُرِضْتُ عَلَى الْمَلِكِ وَنَأَلْتِ اسْتِحْسَانَهُ وَحَظِيَّتْ بِإِعْجَابِهِ، فَهُوَ لَا مَحَالَةَ سَيَضُمُّهَا إِلَى جُمْلَةِ وَصَائِفِ الْقَصْرِ وَوَلَائِدِهِ، فَكَانَ فِي حِسِّ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ يَعْصُ عَلَى جَانِبِ قَلْبِهِ يَمْضَغُهُ.

كَيْفَ لَمْ يَبْتَعِثْهُ الْقَدَرُ إِلَى الْخُرُوجِ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ وَيَتَلَقَّاهَا عَرْضًا، فَقَدْ كَانَ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّخُولِ وَيَحْظِي بِهَا لِنَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَّ يَتَمَنَّى حَيَاتَهُ لَحْظَةً لِقَاءٍ مِنْهَا. لَقَدْ مَدَّهُ الْقَدَرُ بِسَاعَةٍ لِقَاءٍ عَفْوًا، وَلَكِنْ فِيهَا مَرَارَةُ النِّكَايَةِ وَالتَّلْوِيحِ الْيَائِسِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ، بَيَّدَ أَنَّهُ ظَلَّ يُعَالِجُ مَشَاعِرَهُ، وَيَحْتَمِي وَرَاءَ بَرَاقِعِ صَفِيْقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فَقَالَ:

مِثْلَمَا هِيَ بَرَاعِمُ الْأَزْهَارِ كَانَتْ حُقًّا لِلْجَمَالِ وَالْعَبِيرِ فِي الزَّهْرَةِ، فَلِلْعَوَاطِفِ الْحَيَّةِ حِقَاقٌ أَوْ بَرَاعِمُ، تَتَفَتَّقُ عَنْ زَهْرَةٍ جَمَالٍ أَيْضًا، وَعَنْ زَهْرَةٍ هَوًى أَخِيَانًا، وَعَنْ زَهْرَاتٍ مَعَانٍ أُخْرَى أَيْضًا.

وَهَذِهِ الْغَادَةُ كَمَا أَرَاكُمْ تُحِشُونَ - بُرْعَمَةُ الْهَوَى فِي دُنْيَا الْقَلْبِ الشَّاعِرِ - تَتَنَفَّسُ بِأَرِيحِهِ مَعَ السَّحْرِ النَّدِيِّ كَمَا تَتَنَفَّسُ الْوُرُودُ. وَفِي حِسِّي أَنَّ الْأَزْهَارَ تُعَبِّرُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي قَلْبِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، كَمَا تُعَبِّرُ هَذِهِ الْغَانِيَاتُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي ضَمِيرِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ، وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

وَفِي غَابِرِ أَيَّامِي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ شَبَابِ الْقَلْبِ، أَحْدَثْتُ هَوًى وَأَحْدَثْتُ فِيهِ بِهَذَا الْمَعْنَى شِعْرًا:

يَا وَزْدَةً فِي رِيَاضِ الْحُبِّ يَانِعَةً تُزْجِي الْهَوَى، كُلَّمَا مَرَّ الْهَوَا فِيهَا
هَيَّا أَنْشُرِي عِطْرَكَ الْغَانِي الَّذِي أَمْتَزَجَتْ بِهِ الدُّمُوعُ، وَرَوَّثَهُ مَاقِيهَا

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَدْمُغْ سُكِبَتْ عَلَى جُذُورِكَ فِي نَجْوَى لَيَالِيهَا
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ عَبِيرًا مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَهَّى بِالْهَوَى مَا شِئْتَ تَنْوِيهَا
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُحِبٌّ طَالَمَا آخَتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَحِيًا إِلَى ظِلَالِكَ شَاقَّتُهُ مَغَانِيهَا
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتِ مُقْطَعَةٍ وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِضَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بِتِّ تُحْيِيهَا^(١)

وكانَ بُدَيْخُ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّنَّاتِ، خَافِتِ المَقَاطِيعِ وَالكَلِمَاتِ، وَبَوَجْهِ
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ حُيِّلَ لكَثِيرٍ مِمَّنْ حَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيدًا.

قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَاسْتَيْقَظَ فِي قَلْبِي رَسِيسُ
حُبِّ ضَاقَ بِهِ النَّسِيَانُ. وَانْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّخَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:

وَهِيَ صَابِئَةُ الْمَنْبِتِ وَالنُّجَارِ، تَرَقَّى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لَتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِئَةُ يَتَحَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقًا فِي الْمَلَامِيحِ
وَالْتَّقَاطِيعِ وَالشُّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِتُبَرِّزَ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَانْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.

وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسَفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ
الْحَيَاةِ، أَلَقَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

(١) من قصيدة لي في وردية كنتُ غرسْتُها «أيامَ زمان»، كما يقولون، حين كانت لي دارٌ وكانت لي
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبتوثة في أقصوصة «مع أزيب».

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،
وَأَتَتْ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَقَدْ بَدَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفِ
دِرْهَمٍ». وَوَاصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخُ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...
وَلَكِنْ لَمْ تَبْعِدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى أَسْتَوِيَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ:
«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ «قَالَ
آخَرُ وَآخَرُ»، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِيهِمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الشَّوْفُ مَأْخَذَهُ، وَتَزَايَدَهُمُ التَّلَهُّفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّظَنُّةُ الْبَادِيَّةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأْيٍ، قَالَ لَهُمْ
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بَرَوِجِيَّتُهَا وَكَمَالِهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ شَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ
مَشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخُ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ
أَنْشَرَخَ وَآكُتَّابَ، وَطَرِبَ وَحَزِنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَنْفِعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ
مَوْضِعًا لِسُقُوطِ هَذَا التَّدْيِ، وَتَمَنَّى، وَهُوَ الظَّامِئُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَآكُتَّابَ. يَبْدَأُ أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا
الْاِكْتِتَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاخٌ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُنْتَشِي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ
وَالْمُسْتَعْرِقُ فِي التَّأْمُلِ الْإِلَهِيِّ، أَضْحَتْ صِنُوقُ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أُمْنِيَّتِهِ مِنْهَا.

فَفَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوغُ بِشْرِ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيّاً فِي الْخِيَالِ، وَزَادَ بِهِ
حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمُعْرَبِدِ الْغَرْدِ، يَمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَزُمُّقُونَهُ بِاسْتِغْرَابٍ، وَطَافَ
عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدَيْحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَذَّةِ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي
هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمُ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالتَّطْرِيبِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَصْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ
كَالرَّبَّةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَضْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةَ اللَّفْتَةِ صَارِخَةَ الْفِئْتَةِ، مُعْرِيةَ الْجَمَالِ، وَلَكِنَّهَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ،
كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تَكُنْ بِمَنْظَرِهَا تُشِيرُ أَصْدَاءَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَخْلَاماً
نَشَوَى مِنْ أَخْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِرَ قَسْراً فِي مِثْلِ الْمِحْرَابِ الَّذِي يُشِيعُ فِي
الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا
الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ
يَنْفِرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِبُهُمْ بِمَعْنَى مُبْهِمٍ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً
الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خَيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيباً لَا تَنْطِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ
هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطِقُ بِنَعَمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوْحِي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيباً نَعْمِيّاً (مُوسِيقِيّاً) لِأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ بِطَبِيعَةِ
تَأْلِيفِهِ الْمُعْصُورِيِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بِرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا
التَّعْبِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِحْيَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوْحِي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغْرِي
بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَجِيئُ بِالْذَّمِّ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْحَنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستِغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْتِسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ
نَمَازِجُهَا اسْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَرَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةٌ أَنْسِجَامٍ لَذَّةً.

أَمْضَتْ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا
الَلِّقَاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابٌ
وَأَزْمَانٌ.

وَذَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ يَقْظَةٍ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَيْنَ أَرْوَاقِ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحُ! لَقَدْ كَابَدَ فِي سَبِيلِي كَثِيرًا،
وَتَجَرَّعَ أَمْرَ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادٌ يَغْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكَمْ ذَا
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَقْفَةً أَنْتِظَارٍ، فِي لَحَظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أَقِفُهَا عِنْدَ بَعْضِ
أَعْمَدَةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحُ مُقْبِلٌ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِنِعُنِي بِنَفْسِهِ فِي جَلْوَةِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،
أَضَفْتُ عَلَيْهَا خُلُوةَ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرَّعْشَاتِ، وَأَعْدَبَ وَقْعُهَا!!

إِنِّي لَأَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسَرِّحِهَا
الْعَاصِيفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأَرُ زَيْرًا مُخِيفًا، وَالْغَمَامُ يَهْبِطُ مَعَ جُنْحِ الظُّلَامِ كَثِيفًا
كَثِيفًا، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرِعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ
الرَّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَدُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُيُورُ اللَّيْلِ،
فَأَنكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخَنِسَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَائِرِ، وَقَدْ أَمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمَنِّيْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرُّوَاقِ الدَّاخِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَ فِي لَيْلَةٍ
بُؤْسَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالتَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلزَّيَّةِ قُرْبَانًا
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَارُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَخَّضَتْ عَنْهُ

العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ فِي التَّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَعْتَنَيْتُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يَلْفُنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَذَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ آسْتَنْدَ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي حِسِّ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنَ مَعْرَكَةِ الْعُنَاصِرِ، وَقَدْ آسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ بَضْرَاوَتُهَا. إِسْتَنْدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِدُّهُ بَعْضَ مَا أَنْتَهَبَتْهُ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِعْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعِدُّ جَبْهَتَهُ وَأَغْبْتُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ^(٢) الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِعُ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا رُكُوبُكَ الْإِعْصَارَ إِلَى مِحْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَاتِكَ مُحِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَابْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَّيْهِ يَقُولُ:

أَأَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِحْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أَشَارِكَ تَزْنِيمَةَ الْهَوَى وَتَزْوِيلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَقْسِينِ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوَكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِحْرَابًا فِي الذُّكْرَى، وَلَا تَتَجَشَّمَ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِحْرَابَ الذُّكْرَى يُغْرِي بِالظَّمِّ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ شُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّيُّ فِي الْحُبِّ فَإِنَّمَا يَهْبِطُ فِي مِحْرَابِ هَذَا الصَّدْرِ الَّذِي يَمْرُحُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمُدُّ بِنَدَى الْغَرَامِ.

إِيهِ غَادَةَ أَحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ آلِتِياعٍ، بَلْ تِلْكَ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَغَرْدَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَفَرَقَاتُ تُرْسِلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحْرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضُ زُرْعَتْ فِيهَا كُلُّ الْبَرَاكِينِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُعْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَعْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذَ شَكْلَ الْأَطْلَالِ، وَتَفَعَّلَ بِهِذَا الْمَعْنَى قِيَاسِيًّا.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ
الرَّبَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكًا يَقْصُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاةٌ هَوَاهُ وَزِدَّةَ حُمْرَاءَ وَأُخْرَى صَفْرَاءَ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةٍ
حُرَّاسٍ أَشَدَّاءَ، وَفِي عَيْنٍ أُسْوَدَ غِضَابٍ، وَيفْصِلُ دُونَهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتِّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَغْبَتِهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْتَحثُ عَنِ
الْوَزْدَةِ الْحُمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبَلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهَجًا: لَقَدْ أَتَيْتُكَ
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ الْوَزْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَزْدَةُ الْحُمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا
فِي صَدْرِهِ تُغَرَّةً فَوَّارَةً بِالدِّمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَشَطَرَهُ...

قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَيْكَونُ ذَلِكَ حَقًّا؟!

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيدًا عَنْكَ، أَلَا فَامْتَحِنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا
أَعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثْتَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأُولُوبِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقَلٌ لَقَاوَمْتُهَا فِي سَبِيلِكَ
سَاحِرًا بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

يَحَقِّي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضًا فِي هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يُقَهِّقُهُ قَائِلًا:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَبِإِبْرَارِكَ كَاهِنَةٌ فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وُجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخِيَالِ،
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُوزِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا! لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفًا. آهٍ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضًا يَا بُدَيْحُ
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرُطَقَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرَّبَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ
بَأَنْ يَكُونَ مِثْلِي رَأْيًا وَإِيمَانًا، لَكِنِّي عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحًا كَانَ أَعْمَقَ مِنِّي

مَعْرِفَةً وَأَهْدَى تَفْكِيراً.

لَقَدْ كُنْتُ مُفْعَمَةً بِالْإِيمَانِ، فَصَوَّرَهُ لِي حَدِيثُهُ صَوْرَةً مُنْكَرَةً تُوْحِي بِالشَّرِّ الْكَرِيهِ، فَانْقَبَضْتُ عَنْهُ وَدُعِرْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بِي هَذَا الدُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وَغَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُدَيْخٌ مُجَدِّفاً وَهُوَ فِي نَفْسِي صَوْرَةٌ مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخْنُقَ بِيَدِي بُدَيْخاً الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صَوْرَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُدَيْخٍ سَتَمْتَدُّ يَدُهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا آسَتَوَى فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُدَيْخاً الْخَيَالِيِّ مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظِلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُنْتَشِئَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةً رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَحْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَحْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَحْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيّاً أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَرْزَمَةً فِي الْوُجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتَسَاوِرُهُ نَزَغَاتٌ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَصُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمُجَرَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَصُّباً، وَإِنَّمَا التَّعَصُّبُ فِي مَكَانِ الْوُجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيُّ نَزَوَاتِ النَّفْسِ، تَتَحَكَّمُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَيْقاً، وَالْوُجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْدًا، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَصُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى بِوُجُودِ مَنْ لَا يُشَارِكُونَهُ عُقِيدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنِ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَنَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ فِكْرَةُ إِيمَانٍ فَهُنَاكَ تَدْيِينٌ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ إِنْسَانِيٍّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ أُنَانِيَّةٌ إِيمَانٍ فَهُنَاكَ أَخْطَرُ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ اللَّائِنْسَانِيَّةِ الْتُّكْرَاءِ.

فَنَزْعَةُ التَّدْيِينِ الصَّحِيحَةِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانَ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ أَرْزَمَةِ نَفْسٍ وَيُوَلَّدُ أَرْزَمَةَ نَفْسٍ وَحَيَاةٍ أَيْضاً. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قَبِلَ الْعُقْدَ أحياناً فإِذَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضُرُوبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْارْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادِفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقَدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُنتِجُ حَلًّا أَكْبَرَ مِقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقَدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفْكِيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكِفَاةُ عَلَى التَّفْكِيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا نُحِبُّ أَوْ نَكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوِي، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَّحِي فِكْرُتُهُمَا ثَمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعاً لِهَمَا.

لَيْتَنِي كُنْتُ أَعْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا لَمَّا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَلْنَا فِي مُثَعَّةِ الْحُبِّ الْخَالِيدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْحٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَذْرِي أَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَاحِزِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلَوةَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَأَنْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَابْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةِ هَائِمَةٍ، فَأَنْتَهَتْ بِي قَرَايِنَةُ الرُّومِ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدَرًا مَاتِعًا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْحًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبَلَاطِ «حُمِلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكِبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزُودَ الْمَلِكُ رَئِيسَ الرُّكْبِ كِتَابُهُ إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَأَثَرَكَ بِهَا».

أَدْخِلْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرْآنِهِ، سَابِخٌ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكان في الجو الذي يكتنف الحسين ما أعاد إليها ذكرى الهيكل، ونقلها
إلى مثل الحراب، وزاد بها هذا الشعور، فأعتقدت يقيناً أنها لم تعد في شيء مما
يُصلُّ بدنياً الناس، فحفظتها سكينته، ولفتها هداة روح، وغرقت في خضم بعيد
القرار. وأحسست أنها مثل غزني (طير الماء) تترجح به الأمواج الحالمات، وكانت
سكري بما يساقط إلى سمعها من نغمات مسحورة، تشعر بها في مدى روحها
عذبة ندية.

كانت لها هداة طويلة لم تُفق منها إلا على صوت الحسين يستقبل رئيس
الركب، وراح هذا يُخبره بكل خبرها، ويروي له كل ما ترقى إلى سمعه من
أخبارها. فالتفت الحسين إليها في ابتسامة مواسية يقول:

لظني بك، وأنت جديدة عهد بالاغتراب، أنك موحشة النفس، وبودي أن
تتدارك حال تأنسين بها وتطمئين.

قالت له هوى: كنت خليقة بالوحشة في غير مكانك. ولكنني، وأنا فيه،
فإني جديرة بأطمئنان في النفس والضمير...

شاعت على وجه الحسين ابتسامة هادئة هائجة، وقال دهشاً: لقد سبق إلى
ظني أنك لا تجدين العربية على نسق ما أسمع، ولكن أما وأنت مثل أصيلة في
اللسان، فلن تكوني غريبة عن حياة بيتنا العربية، إن لم تتذوقها مثل أصيلة فيها
أيضاً...

فابتسمت في استحياء وإغضاء وقالت: بل يا مولاي - لأحس في
كنفك أنني عربية صليبة، عريقة الهوى والقلب في مواقع رغباتها وميولها، ولقد
حُبب إلي لسان العرب أنه يتمتع بأكبر قسط من وحي الطبيعة والفطرة، ففيه صور
وأصداء، ومناظر تامة صادقة انتزعت من الطبيعة مباشرة، وشكبت في قوالب

الألفاظ بِدِقَّةٍ وَحَقِيقَةٍ، بَلْ لَقَدْ أَفْرَغْتَ الطَّبِيعَةَ أَشْيَاءَ ذَاتِيَّتِهَا فِي الْكَلِمَاتِ، كَأَنَّهَا طَلَبَتْ حَرَكَتَهَا الْحَيَّةَ فِي اللُّغَةِ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْضاً مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ إِنْسَانِيَّةٍ وَحَيَوِيَّةٍ، لَمْ تَتَحَرَّفْ وَتَتَكَسَّرْ بِتَحَكُّمِ الْفِكْرِ وَآخْتِلَاقِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ تَشْوِيهِهِ. فَهَذَا اللَّسَانُ طَبِيعَةٌ وَحَيَاةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ فِي أَصْدَقِ أَلْوَانِهَا، وَمُفْرَدَاتُهُ كَلِمَاتُ الطَّبِيعَةِ أَوَّلَ مَا تَحَرَّكَتْ وَنَطَقَتْ، فَقَدْ تَصَيَّدَهَا الْعَرَبِيُّ وَأَنْتَحَتْهَا، وَهُوَ بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بِالْقَرِيحَةِ النَّقِيبَةِ، دُونَ آلِتَوَاءِ الْفِكْرِ وَالتَّفَافِيهِ، فَهِيَ أَنْقَى مَا تَكُونُ لُغَةٌ فِي مَذَهَبِ التَّعْبِيرِ.

وَلَقَدْ عَمَدْتُ إِلَى كَهْفِ رُوحِي فَوَجَدْتُهُ قَائِماً حَالِكاً، وَرَأَيْتُ مِضْبَاحَ فِكْرِي خَائِياً، وَهُوَ إِذَا تَوَقَّدَ وَشَعَّ، فَلَا يُضِيءُ كَهْفَ رُوحِي، وَأَظْلَمُ مِنْهُ فِي دَيْجُورٍ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِشُدُودِ كَثِيفَةٍ صَفِيقَةٍ، لَكِنِّي وَجَدْتُ دِينَكُمْ الْجَدِيدَ قَدْ حَاوَلَ، وَنَجَحَ إِلَى أَكْبَرِ حَدٍّ، فِي رَفْعِ هَذِهِ الشُّدُودِ الْقَائِمَةِ فِي دُرُوبِ النَّفْسِ، وَأَذَكَى شُعْلَةَ الْفِكْرِ، فَاتَّصَلَ مَا بَيْنَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وَبِتُّ مُتَأَلِّقَةً الْمَعْنَى، فَسَكَنْتُ إِلَى دِينِكُمْ، وَطَعِمْتُهُ أَيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إِنَّهُ رَفَعَ الشُّدُودَ فِي دُرُوبِ رُوحِي، وَكَانَتْ هَائِمَةً مُتَخَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وَسَدٍّ، وَأَطْلَالٍ خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيرِ.

قَالَ: لِلَّهِ أَنْتِ! أَكُنْتَ حَكِيمَةً أَمْ أَدِيبَةً؟ هَلْ «تُجِيدِينَ الْقُرْآنَ» تِلَاوَةً؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَقْرَأِي عَلَيَّ، إِنَّ شِئْتَ... فَرَأَحَتْ تَتْلُو «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ»... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أَخَذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَعِيًا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشِيَّةِ.

قَالَتْ: يَوَدِّي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مَوْلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَعْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجْعَلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْمُحِيطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسَرِّحِ نَقُومٍ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَدْرِي أَمْحَسِنُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسَيِّئُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْقَى تَصْوِيرًا لِعَلَّاقَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَّاقَةِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَنْبَغُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَاةٍ تَأْمُلٍ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِيه! إِيه! إِيه! أَيُّ بُنْيَّةٍ، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مَوْلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفَاتِحُ الْغَيْبِ» مَا يَنْبَغُ عَلَى التَّأْمُلِ الطَّوِيلِ، وَيَنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجْمَةً تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرَسُمُ الْغَيْبَ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةِ أَذْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٌ، أَوْ فُضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَحْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَنْسَبِحُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٍّ مَدِيدٍ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَشِيَّةُ فِي اسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْصٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُنْتَظَرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفَاتِحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتِ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيُّ بُنْيَّةٍ... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَسْرَحَ خِوَاطِرَ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزُوِين «شَيْئاً مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ» وَأَدْبِهِمْ؟

قالت: بلى... وكانت لم تزل في إثارة من صوفيَّتها، فَأَنشَدَتْهُ أُبَيَّاتاً جاءَ

بينها:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

وَلَدَّهَا الْإِنْشَادُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الْمُبْطِنِ بِالرَّوْحِ وَلَفَاتِ الْإِشْرَاقِ، فَأَنشَدَتْهُ شِعْراً
سَبَقَ لَهَا أَنَّهَا أَنْشَأَتْهُ مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وَمَا قَدْ كَوَّنَتْهُ مِنْ
نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيَمَتِهَا وَجُهْدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ جُهْدَهُ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثُّقَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعودُ

فَلَمْ يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَاضَ فِي قَلْبِهِ يَتَبَوَّعُ حَنَانِ،
تَنَدَّتْ مَعَهُ مُقْلَتَاهُ، وَتَبَلَّوَرَا فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورِ بَعَثِ الثَّقَوَى.
ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ
عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وَمَا هُوَ حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْخَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ
إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَابَةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، يَتَدَ
أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْنَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ
أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَشِلْوٍ تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَامِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدٍ حَيَاةٍ،
أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَصَلَ عَنْهُ أَمْسٌ وَغَدٌ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي فَمِهِ،
وَأَخْضَرَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَّراً وَجَمَ فِي ذُهُولٍ طَالَ بِهِ مَدَاهُ...

وتداركها مثلُ شعوره وغصّة قلبه فأنخطف لونها، والحسين يرى فأطرق
إطراقةً مائجةً بالإيحاء. مرّ في خاطره معها أنّ بُدّيحاً ينتهي إلى مثل غربتها، فغير
بعيد أن تكون ذات هوى به وضرب الزمان بينهما، فباعدهما قدر عاد في دورة
أخرى يضمهما... وجدير بي أن أكون خط النهاية في دورة القدر المبهمة،
فالتفت إلى بُدّيح وقال:

كنت على أهبة أن أستقدمك إليّ يا بُدّيح، فسقطت من نفسي على موعد،
أنت عندي مثل كريم عزيز، وهي عندي مثل... فاستخفّ بُدّيح عاصف فرحة
كبرى، حتى كأنه دفع إلى الخلد من نافذة، بعد أن حيل بينه وبين الباب طويلاً.
ولم ير إلا مكتباً على يد الحسين يُقبّلها، في موضع تلاقي عليه ثغران: ثغره وثغرها.
وكان في منظر وضعهما ما أفعم قلب الحسين بغبطة الروح «ففاضت مقلتا»
بدمع الشرور، الشرور غير المحدود. وبذل لهما «ألف دينار، وقام إلى صلاته»
هانئ القلب ريان، ناعم الضمير نشوان...

*

جاؤوا يقتنصونه بغانية من فتون الدنيا...
لعلهم يهبطون به إلى مثل حضيضهم ورغابهم...
بيد أنها ما آستهوته، على أنه قد آستهواها...
فقد مسها بشعلة من الإشراق، غدت بها خلقاً آخر...

*

وجد قلباً حائراً يبحث عن قلب تائه...
وكُلّما أوشكا أن يلتقيا، يضيعان الطريق مرّة أخرى...

فَكَانَ هُمُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا
بِنَفْسٍ!.....

* * *

إِستشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرٍ عَادِيَّةٍ، أَمْتَاَزَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجْمُّعَاتٍ تَشَاوُرٍ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْهُ هَذَا التَّجْمُّعِ مَطْبُوعاً بِطَابَعِ الْاهْتِمَامِ وَالْجِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضَوْهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبِ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِعْتِسَافُ فِي فِتْرَةٍ طَالَتْ ذُؤَابَتُهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا أَمْتَلًا بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمُصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمَفَاجِئَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السُّنُّ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدِّثَارِ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَّكِلُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُرْتَبِطَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَجَّهَ رَأْيُ الْمَلِكِ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوِضَكُمْ بِهِ، وَيَسْتَشِيرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَزِمَهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَطَلَّعُوا فِي إِضْغَاءٍ مُرْهَفٍ، وَوَاصَلَ الْمُغِيرَةَ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنْ لَا يُتْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدًى «كَالضَّأْنِ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ آبَنُهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَرَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ

مُتَحَدِّثَةٍ، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَفَّهْمُ صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عَلاَقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانَهُ عَظِيمٌ، وَيَزِيدُ صَاحِبُ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُوْلِعَ بِهِ مِنَ الصَّيْدِ، فَرُؤَيْدَنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمْنِ أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا نَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرَكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْفَوْتُ»، فَقَذَفَهُ الْمَغِيرَةُ بِنَظَرَةٍ شَرِّرَةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَظُنُّ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيٍ أَمْثَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيزُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسْبُ. فَهَبْ عُيَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيُّ، وَكَانَ مُسْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرَحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَيُمَيِّتَ إِلَيْهِ آبَتَهُ. وَإِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ يَزِيدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهَنَاتٍ يَتَقِمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتَسْتَحْكِمَ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نِعَمْ مَا قُلْتَ، وَنِعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادٌ».

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُعْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأَمْصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأَصِيبَ بَعْضٌ بِمِثْلِ الذُّهُولِ، وَبَعْضٌ بِمِثْلِ الطُّيْشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطَرَّبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ بَعْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدِي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَذْرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَيَزِيدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي حُسْنِ مَعْدِنِهِ وَقَصْدِ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا حِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً بَعْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحَقَّنَ لِلدَّمَاءِ وَآمَنَ لِلْسُّبُلِ وَخَيْراً فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وقال عمرو بن سعيد:

«أيها الناس: إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفته أغناكم. جذع قارع، شويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع. خلفاً من أمير المؤمنين، ولا خلف منه...» فقال معاوية: إجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنيت.

فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: «أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة». فأحمس يزيد بن الملقع، فوثب موعداً مبرقاً، وقال:

«أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد، «فمن أبى فهذا...» وأشار إلى السيف.

فقال معاوية: آجلس فإنك سيّد الخطباء.

وقام المسكين الدارمي الشاعر، فأنشد:

إذا المنبر الغربي خلاه ربّه فإن أمير المؤمنين يزيد
وتهياً معاوية، فدعا الناس إلى المباينة «فقال رجل: اللهم إني أعوذ بك من شره».

قال معاوية له: تعوذ من شر نفسك فإنه أشد عليك، وبايع.

فقال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة.

قال له: بايع أيها الرجل، فإن الله يقول: فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البَيْعَةِ في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ البَيْعَةِ. «فَكَتَبَ إلى مَرْوانَ بْنِ الحَكَمِ، وكانَ عامِلُهُ على المَدِينَةِ، أنِ أَدْعُ النَّاسَ عِنْدَكَ إلى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فإنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بايَعُوا. فَحَظَبَهُم مَرْوانُ فَحَضَّضَهُم على الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُم الفِتْنَةَ، ودَعَاهُم إلى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وقالَ هي سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الهادِيَةِ المَهْدِيَّة».

فكانَ لهذهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ في الهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِنْكارٍ، وَأَصْواتُ تَسْخُطٍ، وتَزايِدَ بِهِم هذا الاستِنْكارُ وهذا التَّسْخُطُ، فاندَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقْذِعُونَ في الطَّعْنِ، وَمَضُوا يَنْثُرُونَ الاختِجاجَ نَثْرًا دونَ رِعايَةِ وَحَذَرِ.

فقالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «ما صَدَقْتُ، إنَّ أبا بَكْرٍ تَرَكَ الأَهْلَ والعَشِيرَةَ، وبايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وأَمَانَتَهُ، وأَخْتارَهُ لأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... وَتَرادًا طَوِيلًا، وَأَنْتَقَلَ بِهِما التَّجَاوُبُ إلى التَّناوُشِ والمُهاذَنَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوانَ، فقالَ: أَيُّها النَّاسُ: إنَّ «هذا المُتَكَلِّمُ هو الَّذي أُنْزَلَ اللهُ فِيهِ: «والَّذي قالَ لوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما، أَتَعِدانِي أنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فقالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أفينا تَتَأَوَّلُ القُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِما، إِذْ هَبَّ واقِفًا، وعلى سِمايِهِ مَشَتْ غَضَبُهُ مَكْظُومَةٌ راحَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَها:

«إلى النَّارِ تَدْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ العارِ»، لَقَدْ حَمَلُوا أَطْماعَكُمْ مُتَبَرِّمينَ، وَتَرَكَوا لَكُمْ أَنْتِهابَ الدُّنْيا كَما شِئْتُمْ وشاءَ الهوى، وَلَكِنْ آخِلَوْلى في أَفْواهِكُم المُسْتَوْحَمُ فَتَحَطَّيْتُمُ الدُّنْيا إلى العَبَثِ بالدِّينِ، فَأَحْرِ بِنّا أَنْ نَدْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وما هو حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكَرُونَ وِلايَةَ يَزِيدَ في مِثْلِ الزَّئِيرِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوانُ إلى مُعَاوِيَةَ بِذلكَ ، فَأَقْبَلَ إلى المَدِينَةِ في أَلْفٍ، فَلَمّا قاربَها تَلَقَّتهُ

الجموع عند ما أتوها ومدخلها، وما أخذ نظره الحسين حتى قال: مرحباً بـ «سيد شباب المسلمين»، قاربوا دابة لأبي عبد الله. وقال مثل ذلك أو قريباً منه لعبد الرحمن ابن أبي بكر، ولابن الزبير. ثم انطلق بهم حتى أتى مكة ففضى حجّه، ولما أراد الشخص أمر بأثقاله فقدمت، وأمر بالمئبر ففرب من الكعبة، وهنا بدأ مفاجأته الانتخاية دون تقييد بعرف أو قانون، فأرسل إلى الحسين وعصبيته، وهؤلاء لم يخف عليهم ما يعتلج في نفسه، فاجتمعوا وتدبروا الأمر من كل وجهه، وتركوا المأداة والمداراة لابن الزبير، فأقبلوا على معاوية، فرحب بهم، وقال:

«قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم وصلتي أرحامكم، ويزيد أحوكم وآبن عمكم. وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم الأمرين الناهين بين يديه». فرد ابن الزبير:

«عندنا إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنع رسول الله (ص)، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم. وإن شئت فما صنع أبو بكر: عهد إلى رجل من قاصية قریش، وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلاً. وإن شئت فكما صنع عمر: صيرها إلى ستة نفر من قریش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً».

قال معاوية: هل غير هذا؟ قال: لا. ثم قال للآخرين: ما عندكم؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير. فقال معاوية: إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر، «فأنا قائم فقائل مقالة، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه...» وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان سيفيهما، وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المئبر، وحف به أهل الشام، واجتمع الناس.

فقال، بعدَ حمْدِ اللّٰهِ والثناءِ عليه: «إِنَّا وَجَدْنَا أَحَادِيثَ النَّاسِ ذَاتَ غَوَارٍ، قالوا: إِنَّ مُحْسِنًا، وَأَبْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْنَ عُمَرَ، وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ، وهؤلاءِ الرَّهْطُ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارُهُمْ لَا نُبْرِمُ أَمْرًا دُونَهُمْ، وَلَا نَقْضِي أَمْرًا إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمْ، وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَبَايَعُوا وَسَلَّمُوا وَأَطَاعُوا»... ثُمَّ قُرِبَتْ رَوَاحِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ، تَارِكًا النَّاسَ فِي دَهْشَةٍ الْمَفَاجَأَةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنهَالُوا أَحْيَرًا عَلَى الْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ يَسْتَشْتَبُونَهُمْ، فَأَجَابُوا: «كَادَنَا بِكُمْ وَكَادَكُمْ بِنَا».

كَذَلِكَ آتَتْهُ الْمَفَاجَأَةُ الَّتِي حَبَكَهَا مُعَاوِيَةُ، وَطَلَعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، غَيْرَ عَابِيٍّ بِأَنَّهُ أَقَامَ وِلَايَةً وَلَدِهِ عَلَى الْبُرْكَانِ، وَوَضَعَ الْقُنْبُلَةَ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْحُكْمِ أَزْمَانَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ وَمَنْ بَيْنَهُمَا، وَتَقَلَّبَ فِي الثُّورَةِ عَلَى الْحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخَاضَ مَعْمَعَةَ الْبُطْشَةِ الْكُبْرَى الَّتِي كَالَهَا وَالِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الشَّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرَافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهِيرِ الَّتِي بَدَلَ فِيهَا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يَغْضَبَ، وَأَنْ يَتَنَمَّرَ، وَأَنْ يَنْدَفِعَ مُتَلَطِّيًا، وَأَنْ يَثُورَ مُبْعَثِرًا فَبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْفَسَادِ تَزْمِيمٌ لِلْفَسَادِ، وَأَضْطِطَاعٌ لِفَسَادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيِّنْدَ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَسَادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَعْقَدُ أَمْرًا، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقَاءً وَنِضَالًا.

لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْمُصْلِحِينَ الْحَقِيقِيِّينَ هَدْمًا وَبِنَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ الشُّطْرُ الْأَوَّلُ دَائِمًا أَرْوَعَ وَأَشَقَّ وَأَقْدَسَ، فَهُوَ كِفَاحٌ وَتَضَحِيَّةٌ وَتَغْبِيدٌ.

وَبِهَذَا، وَلَهُ فَقَطْ، رَأَيْنَا الْحُسَيْنَ يُوَلِّي وَجْهَهُ قِبَلَ الثُّورَةِ، قَبْلَ الْإِنْتِشَاءِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

*

قَلَمًا يَبُورُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَتَنَاحَى الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدَّدَ أَمْنُ الْغَابِ وَشُكُونُ جَلَالِهِ...
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ
عَنِ الْإِنْسَانِ...

*

الْبُزْكَانُ نَذِيرٌ بِالْإِنْقِلَابِ...
وَكَانَ الْحُسَيْنُ بُزْكَانَ الْإِصْلَاحِ...
وَقَدْ مَضَى كُلُّ مُصْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُزْكَانِ، يُؤَسِّلُهُ مَنَارًا يَهْدِي فِي
الْحَلَكِ!...

* * *

إِلَى اللَّهِ

فِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَابِ
الْغِلْمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْزَاقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِلَالِ السَّلُولِيِّ:

إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَةِ وَأَشْكُرُ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا بِمَا رُزِيتَ، وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ
الْأَرْمَ، وَيَتَمَيِّزُ حَقَقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ عُضُونَهُ تَجَهُّمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْخَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْحُسَيْنِ فَعَيْنَ عَلَيْهِ
حَتَّى الْإِعْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَاللَّمْ بِهِ إِطْرَاقٌ عَنيفٌ،
كَانَ مَزِيحًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنَمُّرِ الْغَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِيقٌ يُنَاجِي
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثُّبُوتِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَائِلُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيْكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَرَفْتَهُ صَارِمًا لَا
يَشْعُرُ بغيرِ وُجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي
الْمُفْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذُّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغَيْرِ
وُجُودِهَا فَقَطْ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْإِمْتِصَاصِ وَإِزْوَاءِ نَهْمِ الذَّاتِ، إِنَّ ظُمَأَتَهُ
تَطِيفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحِيلُهُمْ قَطْرَةً تُنَدِّي بِهَا لُعَابَهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمَ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبِ
عَدَالَةٍ وَرَفَقَةٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَعْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالْهَشِيمِ يَغْبُثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَادَفُهَا
مِثْلَ أَوْرَاقِ الْحَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَبَيْنَ الْمَغَاوِرِ وَالْكُھُوفِ الضَّالِّجَةِ بِالْفُسُوقِ.
إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنٌ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَتَفَعَّلُ بِهَا لِيَحْيَا، وَيَفْعَلُ فِيهَا
لِتَرْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتِ الْحَيَاةُ جَامِحَةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةِ
مَخْزُونَةٍ لَمْ تَنْقَدْخْ فِي فَمِ الْمِصْبَاحِ فَتَحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضِّيَاءِ،
وَمُغْلِنًا بِنِدَاءِ النُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،
فَقَرَّامَتْ بِالضِّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعَدْنَا حِينًا بِدُنْيَا
الْقُرْآنِ.

على أَنَّهُ عَادَ إِلَى اسْتِغْرَاقِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَبْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ
غَضَبٌ مَكْظُومٌ أَشْتَعَلَ فِي عَيْنَيْهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا
تَلْتَهَبُ:

نعم. نعم. نحنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى الثَّقْوَى، وَلَنْ نُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهَا، أَوْ نَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ اخْتَارَنَا لِحَمْلِ أَمَانَتِهِ الْعَظْمَى، وَأَنْتَظَرُ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِفْتِدَاءَ بِكُلِّ
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَاتِ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،
وَأَسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءُ، وَكَانَ دَامِيًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَنَكِلُ
خَوَازٍ...

«أَلَمُوتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...»

فَكَيْفَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعُهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ...!
وَيَيْنَمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الاِضْطِفَاءِ، تَبَدَّى
لِنَاطِرِيهِ، فِي وَجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَشْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الاِغْتِبَاطِ، وَهِيَ
تُبَارِكُهُ وَتَشُدُّ عَزْمَهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:
رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا
الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضْحِيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَخَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءُ... «فِي حِكَايَةِ الْآسْتِشْهَادِ يَوْمَ
كَرْبَلَاءَ».

*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «آسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ
الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنَ بِالْإِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ
الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَمْلِ السِّلَاحِ، فَأَنْتَهَى إِلَى
الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَاجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى
الْوَلِيدِ - وَمُرْوَانَ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطَى بَيْعَتُهُ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ
تَقْنَعُ بِهَا مِنِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى
الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى أَسْمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِينَا
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرْوَانُ لَمَّا وَلَّى: عَصَيْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى
تَكْثُرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرْوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آتِ بَعْثٌ إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ
بَايَعَ، وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحَاكَ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِفٍ يَكَادُ يَنْطَلِقُ، وَبُزْكَانٍ يَكَادُ
يَثُورُ، أَهْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،
وَحُسْنِ التَّنَاطُلِ الْفَائِقِ فِي تَضْرِيْفِ الْأُمُورِ، وَاللَّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبَةً، خَفَقَ لَهَا
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِيمَائِهِ وَجَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ،
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصُّبِّ حِمْيَرًا، وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَايَا يَرُضِدُنَنِي أَنْ أَحِيدَا

وما هو حتّى هَبَطَ بِأَهْلِهِ مَكَّةَ لثَلَاثِ مَضَيَّنَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّينَ، وَلَبِثَ فِيهَا
حَتَّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذُّكْرِيَّاتُ الْمُلهِمَاتُ الَّتِي تَضْفَرُ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا
وَسَمَائِهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفُقُ الْمَكْلُلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ
الْحُسَيْنُ يَزْنُو، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظْرَهُ آغْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ،
صَدَفَةً حَقِيرَةً فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا،
وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ آيَاتِهَا وَحِينِهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَحْيَاهَا
الْمَرْءُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَرْءُ هُنَاكَ لَا يُحِسُّ بِالْأَلَمِ أَوْ
اللَّذَّةِ، وَالْقُبْحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاسًا مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ
كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةً جَوْهَرِيًّا.

وَكَانَتْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى اسْتِثْنَائِ الْجِهَادِ،
اسْتِثْنَائِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحًا وَحِيدًا وَبَطْلًا فَرِيدًا،
حَتَّى أَمَالَ دُنْيَا وَأَثْبَتَ دُنْيَا، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلَبَّ، وَهُوَ
وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمُرُّ بِهِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزِمَ لَا يُقْهَرُ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الزُّبَيْرِ الَّذِي يُبَادِرُ الْإِنْطِلَاقَ، غَيْرَ
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسَوِّتِي بِهِ، أَنْ أُجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِحَ مُنَافَحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لَهَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَّ الْبَغْيَ وَالْبَاغِي، وَذَكَ دُنْيَا الْأَوْثَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الْإِنْفِلَاتَ، وَأَوْثَانُ الْآلِهَةِ آسْتَوْلَدَتْ أَوْثَانِ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبُّ دُونَ أَنْ
أُغْلَ ذَاكَ، وَأُعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أُبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَنِيَّتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أُمْنِيَّتِي...

وَإِنَّ مُحَمَّدًا أَخْرَجَ مُهَاجِرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالِغَةِ الْعُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ
لَا أَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِثٍ بِالمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضًا، أَنْ يَكُونَ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهِجْرَةَ الْأُولَى، هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَإِنَّ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هِجْرَةُ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحُفَافَةُ عَلَى
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزْمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَزْغَبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُثَبِّطُونَ مِنْهُ وَيُوْهِنُونَ مَا آسَتَوَى عَلَيْهِ
عَزْمُهُ. فَقَالَ أَبُو عَبَّاسٍ، وَقَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثَنِي ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،
وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ عَشِيرٌ، وَفَخِرُ قَبِيلٍ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطْلُ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي

الْفُزَّانِ جُبْنًا أَكْبَرَ عَارًا، فَيَزِيدُهُ تَلْظِيًا وَحَمِيَّةً، وَفِي تَقَهُّقِرِ الشُّجْعَانِ خَوْرًا أَبْلَغَ غَوْرًا
وَأَعْمَقَ أَثْرًا، فَيَوْقِدُهُ عَزْمًا وَيَضْطِنُّهُ شَكِيمًا.

إِحْتِضَارُ نَسْرِ... فِي هَمْسٍ كَالزَّئِيرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْآكَامِ، فَتَكْنُفَتْهُ بُغَاثُ النَّسُورِ- أَيِ ضِعَافُهَا - مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمْضِيَ بَعِيدًا، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فَسَادًا وَتَبُثُّ رُغْبًا.
وَلَكِنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلًا، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لُغَةُ نَسْرِ...
عَلَى أَنَّهُ مَضَى، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئًا فِي
الشَّكْلِ...

فَإِذَا اسْتَحَالَ الْمَعْنَى شَكْلًا فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا...
ثُمَّ انْطَلَقَ يَهْوِي غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَغْتَرِضُهُ.

*

وَمَا هُوَ حَتَّى وَاثَبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيرًا وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا...
عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُغْتَبِطًا أَيْضًا، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...
وَهُنَاكَ تَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنِّي أَقْضِي، وَيَبْقَى فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ اقْتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِمًا فِي
الْإِمْكَانِ...

مُتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْآفَاقِ...

وَلَمْ تُمْتْ مَوْتَ الْبَتِّهِمْ عِنْدَ الشُّفُوحِ، لِيَتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ
الْعُصُورِ، أُسْطُورَةً تُرَوَّى...

*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودِّعاً الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلاً رُوحَهَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَشَغَلَتْهَا
بِكُلِّ يَدَيْهِ...

تَوَاصَلَتْهُ الْمَلَائِكُ وَتُبَارَكُهُ، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِرَةٌ عَلَيْهِ...
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ إِرْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...

*

رَغِيّاً لِذِكْرِكَ أبا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ التَّوَجُّودِ...
فَارَزَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنْ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...
وَأَرَادَهَا الْآخِرُونَ دُنْيَا مِنْ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...
أَرَدْتُهَا كَوْناً مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...
وَأَرَادُوهَا كَوْناً مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...
فَاسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي حِسِّ النَّاسِ، لَذَّةً كُبْرَى فِي حِسِّكَ!...

*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...
وَرَأَيْتُ، فِي حُمْرَةِ الدَّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسْنِ...
وَلَا بَدْعَ، فَقَدِيماً قِيلَ الْمَثَلُ السَّائِرُ: «إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ»...

* * *

مَنبَهة... لهذه الطَّبعة (ز) - (ل)
الفاحة (م) - (س)
مُقَدِّمة (ف) - (ث)

يوم المدينة (٢٥) يوم الميلاد (٦٧)
يوم القرآن (٤١) مشاهد (٧٧)
يوم الايمان الشامخ (٥٥) يوم الدولة (٨٩)
دموع (٩٩)

من أيّام العهد الراشدي

مع خليفة (١٠٩) في الثورة (١١٩)
جهاد الشباب (١١٣) في الزوبعة (١٣٩)
إلتياح (١٦١)

من أيّام الحسين السبط (ع)

في الهيكل (١٧٥) تقوى (٢٢٧)
في وجه الظلم (١٨٣) استشارة (٢٤٥)
مع أرينب (١٩٧) إلى الله (٢٥٣)

... فمُحَمَّدٌ لَمْ يَصْنَعْ أُمَّةً بِدْرِ الْأُمَمِ ، بَلْ صَنَعَ
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ الْأُمَمِ ، وَأَكْبَرُ ظَنِّي
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُتَدَاعِي ، كَمَا
تَنْطَلِقُ الْعَصَاةُ ، وَفِيهَا الْحَرَارَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ .



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4